متابعات ومبادآت

قالات
في الفكر والأدب والثقافة

د/ محمد العيد الخطراوي

من إصدارات
نادي أبها الأدبي

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م

ⓒ نادي أبها الأدبي - ١٤٢٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الخطراوي- محمد العيد
متابعات ومبادآت ومقالات في الفكر والأدب والثقافة. - أبها.
٢٠٠ ص ؛ ٢٤ سم
ردمك: ١-٣٥-٦٢٣-٩٩٦٠
١- الأدب العربي - السعودية ٢- الثقافة العربية - السعودية
أ- العنوان
ديوي ٨١٠,٩٩٥٣١ ٢٢/٤٩٧٣

رقم الإيداع: ٢٢/٤٩٧٣
ردمك: ١-٣٥-٦٢٣-٩٩٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

لهذا السفر أشباه ونظائر في الأدب العربي وغيره من الآداب قديماً وحديثاً، من حيث التنويع والشمول وتعدد الموضوعات، وهو ما فعله الرافعي في وحي القلم، وأحمد حسن الزيات في وحي الرسالة، وأحمد أمين في فيض الخاطر. وكذلك فعل العقاد وطه حسين، تحت عنوان: فصول، أو مقالات، أو أشتات مجتمعات. ونحسب أن هذا السفر متميز بوحدة موضوعية تربط بين أجزائه، برغم تعدد العنوانات، ومتميز أيضاً بأن صاحبه يجمع في أنشطته العلمية والثقافية، بين الفكر والتاريخ والأدب والثقافة، ويضم بين جنبيه الروح الشعرية المتوثبة، والعقل الباحث المتأني، ذلك أنه من الأكاديميين الذين نفاخر بهم، وأحد الشعراء البارزين الذين نعتد بهم، وتحتفل بهم دنيا الأدب وعرائس الشعر والإبداع، في الوقت الذي ينازعنا فيه رجال التربية والتعليم، فقد قضى في هذا المجال أكثر من أربعين عاماً، وخرّج أجيالاً كثيرة، هم الذين يرأسون أبرز مؤسساتنا، من وزراء ومديري جامعات، وباحثين وعلماء. ومن هنا فإن تقديمنا له – حفظه الله – من خلال هذا السفر، يعتبر هدية ثمينة لقراء العربية، وهم واجدون بين دفتيه إن شاء الله، المتعة والمنفعة في كل موضوع من موضوعاته،

فالكتاب في مجموعه باقة زاهية الألوان، ذكية الرائحة، خفيفة الظل والروح. فأهلاً بمؤلفه الحبيب في إصدارات نادينا، وأهلاً بكم حين تستقبلون هذا السفر بالبهجة، وسلام عليكم في القارئين.

إدارة النادي

المحتوى

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

تقديم

يضم هذا الكتاب بين دفتيه مجموعة من (المقالات في الفكر والأدب والثقافة)، كتبتها في فترات مختلفات، نشر أكثرها في جريدة (الجزيرة)، التي أصبحت تعدّ بحمد الله، من كبريات الصحف المحلية نوعاً وإخراجاً وانتشاراً، وقد جعلت عنوانها هنا: (متابعات ومبادآت) لأن بعضها كان نقداً أو محاورة مع بعض المؤلفات والمؤلفين، وبعضها الآخر كتبته ابتداءاً بنفَسٍ ذاتي بعيد عن التعقيب والتجويب، لكنها تلتقي جميعاً في معالجة مسائل أدبية أو إشكالات فكرية أو قضايا ثقافية، وهذا يعني أنها تكوّن في عامتها بناءاً موصولاً متراصاً، وإن بدا في النظرة الأولى أنها مختلفة فيما بينها بعض الاختلاف، لا يربط بينها رابط، ولا يجمع بينها جامع. ومذهبي أن مثل هذه المقالات ينبغي أن تبقى لها صفاتها التي ظهرت بها لأول مرة في الصحيفة التي نشرت فيها، فلا يمتد لها القلم بالتغيير والتحويل، إلا ما دعت إليه الضرورة القصوى، فإن وقع شيء من ذلك، فليكن بقدرها.

وأنا وإن كنت بحمد الله قد تجاوزت الثلاثين من عمري مرتين، فإنني أحس كأنني في أول المشوار، وأنني في حاجة إلى رؤية هذا، وقيل ذاك، فيما أكتب، وأفيد كثيراً من ذلك، لذا سأكون مسروراً أيها القارئ الكريم، بقراءتك لي، وشاكراً لك توخيك إبداء رأيك فيما قرأت، فذلك أجمل هدية تصلني منك، وهو الوسام الذي سأظل أعتز به، وأفاخر، وأعدك بأن رأيك سيكون محل تقديري وإعزازي كيفما كان، لأنني واثق أن اختلافنا في الرؤية والموقف والنظرة، هو وحده الذي يسعفنا بالخروج من مأزم الاتفاق الآجن، وينتشلنا من مأزق النسخة الواحدة، والتشابه القاتل.. إنني

أؤمن كل الإيمان أننا إذا أردنا اتقاء التلاشي والتلف، فلابد أن نختلف، ولكنه اختلاف التكامل لا التدابر، فهات يديك لنبني ونختلف، حتى لا يلعن منا الخلف السلف، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رءوف رحيم.

محمد العيد الخطراوي

المدينة المنورة ١٤٢٢/٧/٢١هـ

مرحباً ألْف.![1]

هذه عبارة ترحيب تسمعها كلما نزلت (أبها) من مُضيفيك، وتقرؤها في عيونها، وتلمسها في تعاملهم معك، بل وتجدها في كثير من الأحيان مكتوبة على لوحات جميلة تهنئك بسلامة الوصول على جوانب الطريق، حتى غدت هذه العبارة شعاراً لمنطقة عسير كلها، ورمزاً من الرموز الدالة عليها، وهناك طريفة قد يكون من المناسب ذكرها.. كانت أول زيارة لي قمت بها لأبها بمناسبة صدور العدد مائة من مجلة الفيصل الغراء، حيث دعي إلى الحفل كل أو معظم الذين سبق لهم أن أسهموا بالكتابة فيها أو تعاونوا معها بشكل من الأشكال خلال المائة عدد، والذي يرجع إلى مجلة الفيصل في أعدادها الأولى سوف يجد بحمد الله مشاركاتي منذ العدد الثاني، وكان من أصدقائي وزملائي المدعوين من قرأ هذه العبارة: (مرحباً ألف) لأول مرة، فقرأها بشكل آخر (ألفّ - لُفٌّ)، واحتار في الأمر، وسألني: كيف توفق بين كرم هؤلاء الناس، وبخل عبارتهم التي تأمرك باللف وعدم التوقف عندهم.؟ وضحكت وضحك من سمعه معي يطرح علي السؤال، ثم ضحك معنا حين عقل الجواب، وعشنا بقية أيام الاحتفال بمئوية مجلة الفيصل، نردد عبارة (مرحباً ألف). وكنت اعتقدت أنها ابتكار شعبي عفوي من أهل عسير لا يشاركهم فيه أحد، فهم يرحبون بضيوفهم مرات ومرات، بل إلى أقصى عدد، على اعتبار أن العدد (١٠٠٠) يمثل أعلى عدد وصلت إليه معارفهم، فلذلك كنا نجد عند القدماء عبارةً مثل (ألف ألف) أو (مائة ألف ألف)، ولا نجد المليون وأشباهه، وبدا لي أن هذه العبارة موجودة عند

---

(١) الجزيرة ٢٠/٤/١٤٢١هـ.

العسيريين وأضرابهم، شائعة بينهم منذ القدم، فهذا الشاعر عبدالرحمن بن إسماعيل الخولاني، المعروف بوضّاح اليمن يقول: (الأغاني ٦/٢١٨ - ٢٢١):

طرق الخيالُ فمرحباً ألفاً ... بالشاغفات قلوبنا شَغْفاً
ولقد يقول لي الطبيبُ، وما ... نبّأتُه من شأننا حرفا:
إني لأحسبُ أن داءكَ ذا ... من ذي دمالجَ يخْضِبُ الكفّا
إني أنا الوضّاح إن تصلي ... أحسن بك التشبيبَ والوصفا
شطّتْ، فشفَّ القلبَ ذكرُكُها ... وبنت فما بذلتْ لنا عُرْفا

صحيح أن الشاعر هنا يرحب ألفاً بطيف حبيبته، ولكنها عبارة في جميع الأحوال تحمل في طواياها روح الكرم، وبشاشة الاستقبال، وتُوسّع للضيف وتحسن معاملته والاحتفاء به.

وللترحيب والتأهيل في شعر وضّاح مساحة ملحوظة، وبخاصة مع صاحبته الحجازية الحَرَميّة (نسبة إلى الحرم)، من ذلك قوله:

يا لَقومي لِكثرة العذّال ... ولطيْفٍ سرى مليح الدلال
يقطع الحَزْنَ والمهامةَ والبيـ ... ـدَ، ومن دونه ثماني ليال
عاتبٌ في المنام، أحببْ بعتْبا ... هُ، إلينا، وقولِه من مقال.!
قلت: أهلاً ومرحباً عدد القَطـ ... ـرِ، وسهلاً، بطيف هذا الخيال

ولا يقف الوضّاحُ الترحيبَ على نفسه وقومه، وبهذه الصيغة وبهذا الأسلوب، بل يعدّيه إلى حبيبته أيضاً، فهي ترحب به حين تحس بمقدمه، وتُوسع له الأرضَ جميعاً، يقول في تائيته:

حيٌّ التي أقصى فؤادك حلّتِ ... علمتْ بأنك عاشق فأدلّت
وإذا رأتك تقلقتْ أحشاؤها ... شوقاً إليك، فأكثرت وأقلّتِ
وإذا دخلتَ فأُغلقت أبوابُها ... عَزمَ الغيورُ حجابَها، فاعتلت
وإذا خرجتَ بكتْ عليك صبابةً ... حتى تبُلَّ دموعُها ما بلّتِ

إن كنتَ يا وضّاح زرتَ فمرحباً، رحُبتْ عليك بلادُنا وأظلّتِ

ومات هذا الشاعر ذو الغزل الرقيق، المؤلّف في ترحيبه سنة (٩٠ هجرية تقريباً)، قتله الوليد بن عبدالملك حين تغزّل بأم البنين، وجاء بعده الشاعر العباسي بشار بن بُرد، فرَحَّب في مجال الغزل أيضاً ألفاً، ولكنه يعطف عليها ألفاً أخرى، ويرحب بصواحبه يقظة لا عن طريق الرؤى والأحلام كما كان يفعل الوضاح، ولعله فعل ذلك ليقنعنا بالحوار الذي دار بينهن وبينه، ويعرض بعض مواقف النساء من الرجال، يقول بشار:

يا مرحباً ألفاً وألْفاً بالكاسرات إليَّ طرفا
رُجْح الروادف كالظبا ءِ تَعرَّضتْ حُوًا وَوُطْفا
أنكرن مركبتي الحما رَ، وكنَّ لا يُنكرن طِرْفا
وسألنني: أين الشبا بُ؟ فقلت: بان، وكان حِلْفا
أفنى شبابي، فانقضى : حلفُ النساء تَبِغن حِلْفا
أعطيتُهنَّ مودّتي فجزَيْنني كذباً وخُلْفا

(الحُوّ: جمع حوّاء، وهي السمراء. الوُطف: جمع وطفاء، وهي كثيرة شعر أهداب العين. الطِّرْف: الكريم من الخيل).

وفي الصيف تزداد عبارة (مرحباً ألف) تداولاً بين المصطافين الذين يهديهم حسّهم السياحي إلى الظفر بزيارة مصايف بلادنا الحبيبة، من لدن الطائف المأنوس إلى أبها البهية، ويحظى بمشاهدة المهرجانات الترفيهية، التي أعدت لهذا الغرض، وقد أثارت هذه الجملة الجميلة: (مرحباً ألف) شهية الشعراء المعاصرين الفنية، ممّن قدّر لهم أن يكتبوا قصائد شعرية في هذه المصايف، فذلك ما فعله الشعراء/ إبراهيم مفتاح، وإبراهيم صعابي، ومحمد هاشم رشيد، وفي كناشتي الآن بيتان من شعره في أبها حيث يقول:

مرحباً ألف يا ربوع المعالي ومسار الشذا، ووكْر النسور
فهنا تلتقي البطولة بالبذ لِ، ويهمي الينبوع فوق الصخورِ

بقي أن أقول: إن عبارة (مرحباً ألف) يسمعها زوار أبها من الصغير والكبير، وما أروع أن يسعدك الحظ فتسمعها من خالد الفيصل الشاعر الأمير.! وما أجمل أن تلهج بها مع الآخرين.!

* * *

الابتهاج بموارد المعرفة(١)

أورد الشيخ مصطفى محمد عرفة الدسوقي، في حاشيته على (مغني اللبيب) لابن هشام الأنصاري (ط حنفي – مصر) طريقة جميلة هادفة عن علم من أعلام ثقافتنا العربية القديمة، هو أبو عمرو بن العلاء. قال الدسوقي رحمه الله (٢٩٧/١):

(يحكى عن أبي عمرو بن العلاء أنه كان له غلامٌ ماهر في الشعر، فوُشي به إلى الحَجَّاج، فطلبه يشتريه منه، فلما كلّمه بذلك قال له: إنه مُدَبَّر، فلما خرج من عنده قال له الواشي: يكذب.! فهرب أبو عمرو إلى اليمن مخافة من شرّه، فمكث هناك، والحال أنه إمام يُرجَع إليه في المسائل، فخرج ذات يوم إلى ظاهر بصحراء، قال: فرأيت أعرابياً يقول لآخر: ألا أبشرك؟ قال: بلى.! قال: مات الحجاج.! فأنشد:

ربما تكره النفوس من الأمـ ـرِ له فَرْجةٌ كحلِّ العقال

بفتح الفاء من (فَرْجة). قال أبو عمرو: ولا أدري بأي الشيئين أفرح.؟ أبموت الحجاج أم بقوله: (فَرْجة) بفتح الفاء.؟ ونحن نقول: (فُرجة) بضمها، وهو خطأ، وتطلبت ذلك زماناً في استعمالاتهم. قال أبو عمرو: وكنت بقوله (فَرْجة) بفتح الفاء أشد فرحاً مني بقوله: مات الحجاج.!).

قلت: الفَرجة – بفتح الفاء – المرة من الفَرَج، وهو زوال الهمّ. وبالضم: الثُّقْب في الحائط ونحوه.

---

(١) نشرت بصحيفة (الجزيرة) ١٤١٩هـ.

قال الدسوقي: (والبيت من بحر الخفيف، من لامية ا بن أبي الصلت، وقبله:

يـا قـلـيـل الـعـزاء فـي الأهـوال ... وكـثـيـر الـهـمـوم فـي الأوجـال
صـبِّـر الـنـفـس عـنـد كـل مُـلـمٍّ ... إن فـي الـصـبـر حـيـلـةَ المحـتـال
لا تـضـق بـالأمـور ذَرْعًـا فـقـد تُـكـ ... ـشـفُ غـمّـاؤهـا بـغـيـر احـتـيـال
قـد يـصـاب الجبان في آخر الـصـفّ ... ويـنـجـو مـقـارع الأبـطـال)

قال صاحب المغني في (ربما) الواردة في قوله: (ربما تكره النفوس.. إلخ): أي ربَّ شيء تكرهه ا لنفوس، فحذف العائد من الصفة إلى الموصوف.

قلت: فـ (ما) حينئذ ليست حرفاً، بل هي اسم نكرة يعني شيء، قالوا: وهي نكرة ناقصة، أي أنها مفتقرة إلى صفة تذكر بعدها، بحيث لا تتم دلالتها، ولا يستقر وضعها في الجملة إلا بها، سواء كانت هذه الصفة جملة، كما في البيت السابق، إذ جملة (تكرهه النفوس) في محل جر صفة لـ (ما) التي هي بمعنى شيء، أم كانت هذه الصفة مفردةً، وذلك كما في قول الشاعر الآخر:

لِما نافعٍ يسعى اللبيبُ، فلا تكن ... لشيء بعيدٍ نَفعُه - الدهرَ - ساعيا

أي لشيء نافعٍ يسعى اللبيب، فسعيه ينبغي أن لا يكون إلا لشيء نافع، فنافعٌ: صفة لـ (ما) الاسميةِ النكرة، تكمل نقصها. قالوا: والفاء في قوله: (فلا تكن) هي الفاء الفصيحة أو الفاصحة، وه الدالة على شرط مقدّر، وهي شبيهة في طريقتها لأداء وظيفتها باللام الموطئة للقسم، فكلتاهما توحي بشيء مقدّر مضمر في النفس.

وإذا ما تأملنا في هذا النص خرجنا منه بمجموعة من العبر والمنافع التي لا يستغني عنها أي عاقل يسعى إلى تحصيل المعرفة من أي الأبواب ترده:

١ - مدى الفرح والسرور الذي ملك على أبي عمرو بن العلاء جوانح نفسه وأرجاء روحه، حين ظفر بضبط كلمة عربية واحدة بالشكل، والفوز بنطقها الصحيح، حتى إنه قارن بين فرحه بها، وفرحه بنبإ موت الحجاج، الذي شرده عن بلده، ودفعه إلى الهروب من العراق، وهذا يعني أنه يسوي بين سلامة روحه وسلامة لغته، بل

وسلامة كلمة من لغته بل ويرجح سلامة اللغة، انظر إلى هذا الانتماء الصادق إلى اللغة العربية والحضارة العربية، والتراث العربي، بمثل هؤلاء المتعرّبين بالإسلام قامت الحضارة العربية وسلمت اللغة وقامت أركانها.

٢ – هذه البهجة تذكرنا بما يشاع عن بعض العلماء بأنهم يرون أن الله منح الحكام والسلاطين نعمة الحكم، وجمع حولهم الحشم والأتباع، ولكنه أعطى للعلماء نعمة أخرى أجلّ وأعظم، تلكم هي نعمة الظفر بفك طلّسم مسألة علمية، ولذة حلّ معظلة نحوية أو فقهية، وبهجة الحصول على الأمجاد الفكرية، وتفتُّح النفس على الموارد المعرفية سواء عن طريق الجهد الحسي والسعي الجسمي، أم عن طريق الإشراقات الروحية والعلم اللدنيّ ﴿**واتقوا الله ويعلمكم الله**﴾، ﴿**آتيناه رحمةً منا، وعلمناه من لدنّا علماً**﴾، وإذا كان في السلاطين من ظفر بإمارة المؤمنين في الحكم، فكم عالمٍ ظفر بإمارة المؤمنين في العلم الشرعي والمعرفة الإنسانية الإسلامية.! وبعضهم تسلطن فوق كراسي العلم منذ مئات السنين، ومازالوا متسلطنين خالدين.

٣ – ولذة الظفر العلمي أمر شائع في المسلمين وغير المسلمين، وكلنا يعرف قصة أرشميدس الذي اهتدى إلى قاعدته في غمر الأجسام، وهو يسبح في حمامه، حتى قالوا: إنه من شدة سروره خرج من حمامه عارياً، وهو يصيح: وجدتها.. وجدتها.. ولم يتنبه لعُريه. وما ذاك إلا لأن بهجة حصوله على المعرفة ألهته عن كل ما حوله، وملأته نشوة.

٤ – وفي مطلع حياتي رأيت رجلاً على نعمة عظيمة غبطته لأجلها غبطة كبيرة، ولكنه كان على غاية من الجهل، لم يرزقه الله نثارة من علم، وكان معي صديقي الأعز الأستاذ عبدالرحيم أبو بكر – رحمه الله – صاحب كتاب (الشعر الحديث في الحجاز)، فقال لي: على مهلك! أترضى أن تتبادل معه الواقع، بحيث يسلبك الله نعم العلم والملكة الأدبية، وطاقات الفهم والإبداع فيما تسمع وتقرأ وتكتب، ويعطيك ما رأيت بين يديه من نعم محسوسة، لا تلبث أنوارها أن تنطفئ، وبهارجها أن تزول.. فقلت: لا والله.! ورددت مع الشاعر القديم:

رقـيـنـا قـسـمـة الجـبـار فـيـنـا لـنـا عـلـم، ولـلـجـهـال مـالٌ

ثم تضاحكنا وسرنا في دروب الحياة..

* * *

العلاقات العامة[1]

تقوم هذه الحياة على مجموعة من العلاقات التي أودعها الله في صلب هذا الكون، ليضمن بها استمراره ونموه وتطوره، بإمكانات ذاتية علائقية، وهذه العلاقات منها الرأسي ومنها الأفقي، ولكنها جميعاً تشترك في إحكام حركة الكائن أو تحريكه، فأنت - مثلاً - حينما تكون جالساً في مكان مّا، وتريد أن تنهض من مجلسك، لابد أن تضع في حسبانك قبل أن تتحرّك، الفضاءات التي من حولك من الجهات الستّ، وبتعبير أدق، أفقياً ورأسياً، هل تتسع لحركتك التي تريد من وقوف ونحوه؟! أو أن هناك عائقاً مّا يدعوك إلى الانكماش، أو إلى التغيير من جلستك أو وقفتك، وربما إلى انزياحك نهائياً وإخلاء المكان.؟ وهذا يعني أن الكائن لا يستطيع أن يعيش منفصلاً عما حوله، ولا يمكنه أن يفكر في ذاته منفرداً دون أن يعمل حساباً للكائنات الأخرى، وبخاصة هذا الإنسان، الذي خصه الله بالقدرة على التفكير، وفي حقيقة الأمر هي تأثرات متبادلة، بحيث تتفاعل جميع الكائنات بها وتنفعل، حتى الجمادات، وإذا كانت الحركة الإرادية دليل الحياة، فإن الجمادات أيضاً تتمتع بنوع من الحركة الخفية، التي قد لا ندركها بالحواس العادية، ولكن ربما تستطيع المراصد والأجهزة الدقيقة رصدها، فهذه الجبال والعمارات والجسور وغيرها تعيش حالة إيقاعية دائمة، إذ الإيقاع لا يعدو أن يكون تكراراً مطرداً لصوت أو حركة بصفة منتظمة، وذلك كصوت قطرات الماء من قربة معلّقة، أو حركة بندول الساعة، ومن القوانين الدولية عسكرياً، إنه يحظر على الكتائب العسكرية، أن تمر

---

(١) نشرت بصحيفة (الجزيرة) ١٤١٩هـ.

فوق الجسور بخطوات عسكرية منتظمة حتى لا تعرّض نفسها للخطر والموت المحقق.. كيف؟ فقد تتفق إيقاعات أرجل الجند مع إيقاعات الجسر، فيستجيب لحركتهم، ويميل حيث يميلون تأخراً وتقدماً، فينفتح، ويسقط بهم، وذلك كما حصل فعلاً بفرنسا في الحرب العالمية الثانية، في حادثة مشهورة، فعلى العسكريين بمجرد وصولهم إلى الجسر أن يمضوا من فوقه بخطوات عادية، لا تثير شجونه، ولا تقتدح إيقاعاته، فيتحقق وقوعه ووقوعهم من فوقه، وكم من علاقة بين الإيقاع والقاع والوقوع.!

ولعل ما ذكرناه من هذه الحركات والإيقاعية الكونية للأحياء والسوائل والجوامد جميعاً، وما بينها من علاقات حركية أزلية ضرورية، لا يعرف فيها الفاعل من المفعول، ولا يبقى فيها غير مسبب الأسباب وخالق المؤثر والمتأثر، الذي هو الله، أقول: لعل الذي ذكرناه يتطابق مع قوله تعالى في سورة النحل، الآية ٤٩، ٥٠ **﴿ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون * يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾**، وقوله في سورة الرعد، الآية ١٥: **﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوْعاً وكَرْهاً وظلالُهمْ بالغدوِّ والآصال﴾**، وقوله في سورة الإسراء، الآية ٤٤: **﴿تسبّح له السموات السبع والأرضُ ومن فيهن وإن من شيءٍ إلا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾**.

وإذا اقتنعنا بأن حركة الكائن محكومة بمجموعة من العلاقات الداخلية والخارجية، فإنه لا يمكننا نحن بني البشر أن نتعامل مع هذا الكم الهائل من العلاقات بشكل مبعثر، وإنما العقل يقتضينا أن نفهرس تلك العلاقات ونختزلها في زمر وعوائل، وذلك ليمكننا استثمارها، ومن ثم تحويلها إلى عوامل تعمير وبناء، وإذا كانت العلاقة بين الأرقام على كثرتها وتشتتها لا تتعدى ولا تتجاوز أربعة أنظار كما تعلمناها في حساب علم المواريث، هي التباين والتماثل والتداخل والتوافق، ويختلف الموقف والتصرف عند كل نظر، ففي التباين نأخذ العددين معاً، كما هو الحال بين العددين ٥، ٦ أو ٣، ٢ ونفيد من محصل ضربهما، وهكذا. وفي التماثل نكتفي بأخذ واحد منهما، كما هو الحال بين العددين ٢، ٢ أو ٧، ٧ وهكذا. وفي التداخل نكتفي

بأخذ العدد الأكبر، كما هو الحال بين العددين ٢، ٦ أو ٣، ٦ وهكذا. وفي التوافق نأخذ محصل ضرب وفق أحدهما في كامل الآخر، كما هو الحال بين العددين ٤، ٦، فإنهما يتوافقان في النصف، فيضرب ٢×٦ أو ٣×٤، تكون النتيجة ١٢ هو العدد المأخوذ، وقد نعبر عما تقدم بأسلوب رياضي آخر، ولكن نتيجته على كل حال لا تختلف عما ذكرناه.

عفواً، قد أكون حملت القارئ الكريم على أن يلج معي شرفة من شرفات علم المواريث الذي هو أحد تخصصاتي التي أعتز بها، ولكنني أؤكد أن هذه التحويلة أو الانعطافة لم تكن مقصودة البتّة، وإنما أردت أن أفيد من نموذج للتفكير، واختزال الكثير، ليتيسر استيعابه في كبسولات فكريّة، وقوائم صغيرة، يسهل تصفّحها بسرعة حين الحاجة إليها.

والسؤال: ما رأيكم لو طبقنا هذا السلوك على كثير من صحفنا ومنابرنا ومطبوعاتنا، وكثير من أنشطتنا ومؤسساتنا، وفي حواراتنا.!

فمثلاً: يشترك ثلاثة منا في ندوة - بغضّ النظر عن نوعها.! - فكل واحد من المنتدين يبدأ من لدن آدم إلى أن يصل أيام ظهور المسيخ ونزول المسيح، ولا يكتفي بما ذكر زميله، كأن الحق لا يحق إلا إذا برز من بين شفتيه ونبع من بين ثناياه، وهكذا نظل نكرر أنفسنا من جهة، كما يكرر بعضُنا بعضاً. فبعض الشعراء - وأرجو ألاّ أكون منهم - مازالوا يؤمنون بأن التكرار يعلّم **الشطّار**، وبأن في كل إعادة إفادة.. وبعضهم يهرف بما لا يعرف، ويملأ أسماعنا ويقذي أبصارنا بكلام لا هو بالعربي ولا هو بالعجمي، فعلاقته بأبي معشر الفلكي والديربي أمتن وأوشج من علاقته بامرئ القيس والمتنبي.! وبعض الناس يكتب (خنثى مشكل) من الكلام.! ويا أمان الخائفين.!

شرفة:

ومن يك ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ يجد مرًّا به الماء الزُّلالا

* * *

شيء في صدري[1]

حول معالي الشيخ عبدالعزيز التويجري

حين تم نشر كتاب المؤرخ الأديب عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري: (لسراة الليل هتف الصباح) في بيروت - أكتوبر ١٩٩٧م، سعيت إلى الحصول عليه بشتى الوسائل، لاعتقادي بأهمية موضوعه وأهمية محتواه من جهة، ولاهتمامي بمؤلفه وبكل ما يكتبه، ومكانته في نفسي من جهة أخرى.

فالموضوع كلنا نعرفه أو نعرف عنه، وهو سيرة البطل الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله، ولكن القدماء قالوا: (من شدة الوضوح الخفاء)، فمثلاً هناك أشياء نعايشها يومياً، وهي ذات تأثير كبير على حياتنا، كالشمس والقمر، والليل والنهار، والماء والهواء والأرض والسماء، وغيرها من الأمور التي لها صلة مباشرة بحياتنا.. فمن منا يعرفها أو يعرف عنها حق المعرفة.. فقد أحال الله على التبصر في أمر خلقها وتصاريفها، في القضايا العقدية. ولأجل فهم بعض ما يتعلق بها افتتحت الجامعات والمراكز والأرصاد والمختبرات، ومازالت تفتح - ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾، الإسراء الآية ٨٥، هذا بشأن الظواهر الكونية.. والملك عبدالعزيز دون مواربة هو ظاهرة بشرية تاريخية فكرية، بحجم تلك الظواهر الكونية، التي من الصعب الإحاطة بجميع جوانبها أو إدراك كنهها بسهولة، وكما نواجه

---

(١) نشرت بصحيفة (الرياض) ١٤١٩هـ.

دراسة الظاهرة الكونية بالوسائل اللازمة والعُدد التكنولوجية التي تتطلبها طبيعة البحث، فإنه يجب علينا ونحن نواجه دراسة (الملك عبدالعزيز/ الظاهرة) أن نستعدّ الاستعداد نفسه، وأن نحتشد لذلك كل الاحتشاد، وبخاصة أن معالجة الظواهر الإنسانية - كما نعلم - أكثر استعصاءً على البحث، وذلك لعدم خضوعها للمنطق الرياضي والاختبار المعملي.

وحين تقرأ هذا الكتاب: (لسُراة الليل هتف الصباح) تجد معالي الأستاذ عبدالعزيز التويجري ذلك الرجل الذي استعدَّ وأبَدّ، وأعطانا من وابله الصيب وأمدّ. فكان المحتشد بحبه لبطله، المدجج بالوثائق العلمية والتاريخية، المحصن بالموضوعية، والقدرة على الوصف والتحليل، وربط الأحداث والوقائع بمحاورها التي تدور عليها، ووصلها بمنابعها التي تنبعث منها، ومما امتاز به الكتاب هذه العقلانية التي تزن الأمور بموازينها، وتضعها في نصابها، فلا تثبت إلا ما يجيء وفقها، وتمحو ما عدا ذلك، فإن إضافة ما ليس للبطل إلى البطل تزيّدٌ يُساوي في ميزان العلم تنقصه فيما هو له. وحسبك من بطلك أن تقدمه إلى الناس في صورته الواضحة الناصعة، دون تزيّد أو تنقّص.. وهكذا فعل التويجري ببطله/ بطلنا/ عبدالعزيز، حين قدّمه للناس من خلال كتابه: (لسُراة الليل هتف الصباح)، في أسلوب تاريخي رشيق مشرق بروح الأدب، مضيء بالصدق والإخلاص، يذكرني بكتّاب اشتهروا في تاريخنا العربي بهذا النوع من الأسلوب منهم: محمد حسنين هيكل - حبيب جاماتي - فكري أباظة - حسين مؤنس/ فإذا شئنا صدقاً أكثر قلنا: إنه الأسلوب التويجري المميز، الذي عرفناه في كتبه الأخرى: (رسائل إلى ولدي - في أثر المتنبي - اليمامة والدهناء - حتى لا يصيبنا الدُّوار - منازل الأحلام الجميلة - حاطب ليل ضجر - أبا العلاء.. ضَجِرَ الركبُ من عناء الطريق - خاطرات أرتني سراها)، المتدفق بالفكر الثرّ، واللفظ الآسر، والإيقاع الشعري الساحر. فأيّ ليل؟ وأيّ سُراة؟ وأي صباح، وأي هتاف هتف به هذا الصباح؟ ذلك أمر يطول شرحه، وليس في طاقة مقالة صغيرة أن تنهض به.! ولعل العنوان الثاني للكتاب يعطينا في ثناياه بعض

الإضاءات: (الملك عبدالعزيز/ دراسة وثائقية). ويختصر مقدّم الكتاب: (محمد حسنين هيكل) دور الملك عبدالعزيز البطل فيقول (لسراة الليل ص ١٤ – ١٥).

(والحاصل أن الدور الذي قام به الملك عبدالعزيز آل سعود حزمةٌ مربوطةٌ تكاد أن تكوّن دائرة شبه كاملة محددة بذاتها، واضحة في حدودها ومعالمها: (١) بناء دولة وإقامة نظام. (٢) قيادة الدولة والنظام إلى الإقليم. (٣) ثم وضع الدولة والنظام على طريق العمر).

وقد جاء الكتاب في ٨٦٢ صفحة، مشتملاً على فهارس للأماكن، وأخرى في الأعلام، وأخرى للموضوعات، كما اشتمل على ثبت بالمراجع لم يتعد ٢٣ مرجعاً، وقد تستغرب لكتاب في هذا الحجم، وفي هذه الأهمية، أن تكون مراجعه بهذه الضآلة، والجواب أن العبرة بكيفية استثمار المراجع لا بأعدادها وأحجامها، كما أن لنوعيتها شأناً خاصاً أيضاً، ومن جهة ثالثة فإن مراجع المؤلف من الوثائق والمسموعات والمشاهدات، ما يغني عن المطبوعات، وأهل مكة أدرى بشعابها، وما ينبئك مثل خبير، ومع ذلك فإنني أعتقد أن الوثائق المتعلقة بحياة الملك عبدالعزيز رحمه الله، مايزال كثير منها رهن الخزائن، فعسى أن يظهرها أهلوها في يوم من الأيام، والذي يدفعني إلى هذا الاعتقاد، هو أن الملك عبدالعزيز كان يعيش حياته مضاعفة، ويعمل بشكل مضاعف، فلو قلنا، إنه كان يعمل في الأربع والعشرين ساعة ثمانية وأربعين ساعة، وينجز في اليوم والليلة ما ينجزه الناس في أسبوع، لما عدونا الحقيقة، وتلك طاقات يمنحها الله لمن يشاء من عباده، وكان فضل الله عليه وعلينا عظيماً. (مايزال يتقرب إلي عبدي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها...).

يبدأ الكتاب بإهداء، ثم بكلمتين تمهيديتين وقصيدتين حول الكتاب والكاتب، الأولى لمحمد حسنين هيكل، والأخرى لرياض نجيب الريّس (ناشر الكتاب).

ثم تأتي مقدمة الكتاب بعنوان غير تقليدي، يتفق مع مسار المؤلف عبدالعزيز

التويجري في التجديد على صعيد الكتابة: (ما قبل الكتاب)، ثم تتوالى موضوعات الكتاب على النحو التالي:

(مدخل وإلى أين.؟ - الفصل الأول: الرياض والدرعية - الفصل الثاني: عبدالعزي عند أبيه - الفصل الثالث: عند الصباح حمد القوم السرى - الفصل الرابع: ضجرُ العدالة في قلب عبدالعزيز من جور السفيه عليها - الفصل الخامس: الملك عبدالعزيز والشريف حسين - الفصل السادس: من هم الإخوان.؟ - الفصل السابع: الملك عبدالعزيز والإنجليز - الفصل الثامن: الملك عبدالعزيز وفلسطين العرب - الفصل التاسع: العودة من جهاد أصغر إلى جهاد أكبر - الفصل العاشر: حقائق عن الأمن في شبه الجزيرة العربية ما قبل الحكم السعودي وفي أيامه - الفصل الحادي عشر: عبدالعزيز مع العفو والتسامح - الفصل الثاني عشر: نماذج عن أيام العسر - الفصل الثالث عشر: الملك عبدالعزيز في فكر معاصريه - الخاتمة، والمراجع، والفهارس).

أما مؤلف الكتاب، فقد آن لي أن أعبر عن الحب الكامن له في صدري منذ سنين، فقد عرفته منذ سنة ١٣٧٦ هجرية حين كنت مدرّساً بمعهد المجمعة العلمي: وأنا شاب طريّ العود لم أتجاوز الواحدة والعشرين من عمري إلا بشهور قلائل، وكنت طموحاً للقراءة، شغوفاً بالأدب، أتحفظه وأتفهمه، وأكتب منه الشعر وأشياء أخرى، وأرتاح لمن أجد فيه مثل هذا الاهتمام، ولم يكن في المجمعة آنذاك - كعامة مدن المملكة - مكتبة عامة، ولا دارٌ لبيع الكتب. وبمناسبة بدء العام الدراسي أقام لنا الشيخ عبدالعزيز التويجري مأدبة عشاء فاخرة، جمع فيها كل المدرسين في المعهد العلمي والمدرسين بمدارس المعارف، وكانوا عشرات، وتحقق من خلال هذه الحفلة التعارف المثمر البنّاء بين المدرسين، وألقى فينا صاحب المأدبة كلمةً ترحيبية ضافية، قال فيها: أرجو أن تعتبروا بيتي بيتكم، وأن تعتبروني أخاً لكبيركم، وأباً لصغيركم، وأن تعرضوا علي أي مشكلة تصادفكم، فربما استطعت مساعدتكم في حلها، وإني أعرف مدى شره طالب العلم للحصول على الكتاب، وهذه مكتبتي بين يديكم، وليكن بيننا اجتماعات دورية أسبوعية أو نصف شهرية، للتحاور والنقاش، وتبادل الخبرات

المعرفية. ودخلنا مكتبته، فإذا هي مكتبة زاخرة بالكتب من كل نوع، قديمة وحديثة، ثقافية وفكرية وأدبية وعلمية، فضلاً عن الكتب الدينية، وإذا بكتب علم النفس وعلم الاجتماع تملأ خارطة المكتبة، وإذا بصاحب المكتبة في كثير من لقاءاتنا به يتحدث في حقول النفس المختلفة، حديث العالم المتمكن الذي يأخذ بالألباب، وأعترف أنني كنت من جملة المأخوذين بعلمه في هذا الباب، ولما وثق المنتدون في بيته بجدية الجانب العلمي لديه، انطلقوا يشتركون ويسهمون، وتحول مجلسه الأسبوعي إلى ورشة عمل علمية وأدبية وفكرية، وكان يتصيد الكتب بالرياض والحجاز، بل وفي مصر، ليدعم بها هذه الورشة، فأثمر مجلسه نشاطاً أدبياً وفكرياً انعكس على رواده، وعلى أدائهم المدرسي، وأثمر أنْساً معرفياً ثقافياً يعدّ به بيت هذا الرجل من المنتديات الأدبية التي لا ينبغي أن يتجاوزها التاريخ، حين يؤرخ له، وحين يؤرخ للحركة الأدبية في المجمعة وفي منطقة نجد بصفة عامة، ومن الذين كانوا يغشون هذا المجلس في بعض ندواته: الشاعر عثمان بن سيّار، والأستاذ عبدالله الحقيل، والشيخ عبدالمحسن التويجري، والشيخ عثمان الحقيل، والشيخ عثمان النجران، والأستاذ محمد الركبان والشيخ عبدالعزيز الربيعة، والأستاذ سليم البرادعي، وغيرهم.

وكنت دائماً أتعجب متسائلاً: لماذا لا يكتب في الصحف، أو يسجل خواطره وأفكاره في كتاب يقرؤه الناس ويفيدون منه، ثم فوجئت بعد ما يناهز الثلاثين سنة بكتابه عن المتنبي، ذلك الشاعر الطموح الذي كان معاليه يكاد يحفظ ديوانه،، ويكاد لا تخلو جلسة من جلساته، من ذكر له على وجه من الوجوه.. هكذا فعل مع شاعره المفضل، وهكذا فعل مع بطله المفضل جلالة الملك عبدالعزيز، فحمدت الله أن كتب بعد طول هذا الصمت فإذا بتلك العتاقة وهذا التصبّر، مكن للدوحة التويجرية أن تتجذر، وأن تحلو ثمارها وتزهو، فكان نابغتنا التويجري في النثر نظير نابغتنا القديم في الشعر، فكلاهما طلع على الناس بعد نضج وتمحيص، أما أنا فقد علمت نضجه وتمحيصه منذ أمد بعيد، ولكنني صفقت للصدع والمعالنة، والتصريح.

وكان ابنه عبدالمحسن صغيراً يمشي في باحة البيت متأبطاً ألعابه العصرية

في وقت لا توجد به في المجمعة ألعاب من غير الألعاب العادية، كانت ألعاب عبدالمحسن مغرية بألوانها وأحجامها وأهدافها العلمية، وعلمت أيضاً في ذلك الحين أنه كان يعلم بناته من المنزل، ويقدمن اختبارهن في المدارس الخاصة في بعض مدن المملكة، كان يتحمل من أجلهن تعباً كبيراً، لكنه كان يحس أنه يؤدي رسالة، إذ كان يؤمن بحق المرأة في التعليم، في بيئة كانت آنذاك تحدده للبنين.

وحين زار جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز المجمعة سنة ١٣٧٧هـ على ما أظن، رشحني أبو عبدالمحسن لإلقاء قصيدة الترحيب، فاشتركت بقصيدة دالية ضاعت فيما ضاع مني من شعر تلك الفترة.

لا أدري كلما ذكرت هذا الرجل ومنجزاته على مختلف الأصعدة، وعلى الصعيد الفكري والأدبي بالذات، تذكرت رجالات النهضة العربية الأوائل الذين لم يتهيأ لهم - بحمد الله - أن يحملوا الدالات، ولا الميمات، ولا الهمزات، من أمثال محمد رشيد رضا، ومحمد عبده، ومحمد كردعلي، وشكيب أرسلان، وأحمد حسن الزيات، والرافعي، والعقاد، ومحمد البشير الإبراهيمي، وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم الآن ممن كونوا أنفسهم وبنوا معارفهم بالتحصيل الذاتي، فكان التحصيل المدرسي هامشاً صغيراً في حياتهم، بل وتتقاطر على ذهني أسماء أخرى من تاريخنا العربي الطويل.. تؤكد عندي: أن الإنسان هو الذي يرفع قدر الشهادة العلمية، ولا ترفع الشهادة أقدار الرجال.. المحتوى العلمي هو الذي يعطي قيمة للإنسان، أما الشعادة فقد تكون جميلة ذات خط رائع وبرواز أروع، ثم عند الامتحان يكرم صاحبها أو يهان.. وما أجمل أن أختم مقالتي هذه بجزء من إهدائه الذي صدر به كتاب (لسراة الليل هتف الصباح) وأهداه لكل قارئ، يقول معاليه: (ما علق بذاكرتي أني من مواليد المجمعة، منطقة سدير، في قلب نجد، مات أبي وعمري ست سنوات، وفي أيامنا البسيطة تلك، في كل شيء، كان لمجتمع القرية فضائل لا يشعر معها اليتيم والصغير بإحساس مرارة اليتم، كل القرية أهلنا، أسرتي تتساوى وتتآخى مع جميع أسر القرية في حب ووئام. استلمت عملاً رسمياً وعمري يقارب الثامنة عشرة، ومن ذلك اليوم إلى يومي هذا وعملي متواصل في خدمة الدولة،

ثقافتي اكتسبتها من تجربتي في الحياة، وبما تيسر لي قراءته من كتب، جيبي خال من الشهادات، فالحياة معلم، والناس معلم، والتاريخ وأحداثه معلم.

على العموم لم يكن لي معلم واحد، لم أدخل مدرسة سوى الكتّاب.! ولأن الكتابة ما كانت في حسابي، لأنها مسؤولية كبرى، ومسار بالإنسان على الطريق الطويلة وسط صفوف من الأجيال، يستعرض فيها الإنسان ذاته وتفكيره وفهمه لنفسه، تهيبتها كثيراً في مراحل عمري، وحين دلفت بي السنون، وبدا لي شفق الغياب في أفقي، كتبت ما كتبت على استحياء، معتمداً في هذا على ما في الكتاب من وثائق وآراء المفكرين).

بقي أن أقول - وأنا في صدد الإفصاح عما في صدري من إكبار للكاتب والكتاب - يجب أن نعمل على إيصال الكتاب إلى أيدي الناس في الجامعات والأندية الأدبية والرياضية لما له من الأهمية، وأن يكون الكتاب وصاحبه عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري، من المكرمين في المناسبة المئوية لتأسيس المملكة ومرور مائة عام على تأسيس المملكة، وحيًّا الله الكاتب والكتاب.!



الاعتدال(١)

في كل ما حولك واجد مفرطين ومفرّطين، حرفيين ومعنويين مضمونيين، ينطبق هذا على كل شؤون الحياة: في السياسة والاقتصاد، والدين والدنيا، وفي الأدب والنقد، والعلم والفن، وعلى مستوى الفرد والجماعات. وكل فرحٌ بما هو فيه، مباهٍ بما عنده، مغالٍ في حماسته له، وربما بالغ أكثر فنال من غيره، واتهمه بالعجز في الفكر، والقصور في الفهم، والخطإ في تقدير الأمور، وينسى أو يتناسى أنه يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر، وأن العلاقة بين الناس يجب أن تكون قائمة على التكامل، لا على التنافر واستنقاص الآخرين وما لديهم، وأن من اعتقد نفسه كل شيء فهو ليس بشيء، ومن اعتقد أنه علم فقد جهل.. والأحسن من كل ذلك هو الاعتدال، فهو سيد الموقف، وهو الواصل بين أطراف الحياة سلباً وإيجاباً، والمفعّل الحقيقي لجميع الطاقات، فالعاقل من كان معتدلاً في طعامه وشرابه، ويقظته ومنامه، وفي علاقاته الأسرية، والاجتماعية كلها، والذي إن ولي أمراً من أمور الناس لا يشق عليهم، وإنما يكون اليد الحانية والقلب الرحيم، الذي لا يمنعه حنوّه ورحمته من تنفيذ الأحكام، ولا تشطّ به سلطته فيقسو ويختار الأشق والأعنف، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما.

والعاقل إذا أحب لم يعمه حبه عن إدراك مثالب المحبوب، فقديماً قالوا: (حبك الشيء يعمي ويصمي)، فإن الحب يصور موجوداً ما ليس بموجود، وكثيراً ما ألقى الحب المندفع غير المتعقل بصاحبه في المهالك، وهو في هذه الحالة لا يصغي إلى

---

(١) نشرت بصحيفة (الجزيرة) ١٤١٩هـ.

عاذل أو نصيح (غشي هواك وما ألقى على بصري)، ولو تعلق بحبال الاعتدال لما ارتكس وما مال.

والعاقل إذا كره، لم يحل كرهه بينه وبين إيصال الحق إلى ذويه، ولم يدفعه إلى إنكار حسنات من يكره، ولا يتجاوز به المشاعر والأحاسيس، بل يعتدل في علاقته مع من يكره كما يعتدل في علاقته مع من يحب. وقديماً قيل: (أحبب صديقك هوناً مّا، فلقد يكون عدوّك يوما مّا. واكره عدوّك هوناً مّا، فلقد يكون صديقك يوماً مّا).

فالغلو حتى في الدين مرفوض ومردود، والزيادة أخت النقصان، (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ) أي مردود، وكان عمر بن الخطاب إذا رأى أحداً في أسواق المدينة ودروبها يمشي متصنعاً التقوى، معتقداً أن التذلّل في المشية والحديثمن الدين خفقه بالدِّرّة، (هي بكسر الدال، وهي ما يسميه أهل المدينة اليوم: (المعكارة)، وقال له: ارفع رأسك، ولا تفسد علينا ديننا.

ويقول المثل الفرنسي في هذا الشأن: (إذا ما أوغلت في السير شرقاً، فإنك واجد نفسك في النهاية غرباً). وهو قريب من قول delahrpe دلاهرب (١٧٣٩ - ١٨٠٣م): (وإذا بالغت في الانتصار لأمرٍ أضعته).

وإن أناساً يغالون في حب القديم، فتؤدي بهم المغالاة إلى التقوقع والانغلاق، والوقوف أمام كل جديد، يقع في ذلك في شؤون العلم وشؤون الفن، وربما تجاوز بالبعض الآخر إلى أن يصموا المخالفين بالكفر والمروق والتنكر للمجتمع، وقع ذلك في اقتناء الأشياء، وفي اللباس والشراب وحتى في المراكب والمراقد، وحصل في الشعر والنقد والقصة والرواية، وإذا نال الشعر من ذلك النصيب الكبير، فلأن المتشعلقين على حباله كثر، والمدّعين له ولعلومه أكثر وأكثر.

وإن أناساً يغالون في حب الجديد، وبخاصة ما عند الآخرين، فأدى بهم ذلك إلى الانفتاح إلى حد الذوبان والتميع، والتنكر لكل قديم، والسخرية بالتراث

العناية بهم إلي الممات، ثم جاء المَتَنْبلون يريدون العودة لما كانوا عليه، فطردهم المسؤولون، وعن هذه القصة عُرف (تنابلة السلطان).

إذن عدوُّنا الأول هو الكسل والتكاسل والتواكل، والسماء لا تمطر ذهباً ولا فضة على كل حال، كما قال الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٣ - سيغذي الأعداء فينا هذا التوجه الذاتي إلي التنبلة، ويشعروننا دائماً بالقدرة على العيش الهانئ دون كبير عناء، وفي اعتقادي لو قمنا باختبار عامّ لمن يستحق أن يعيش بحق لوجدنا أن الأكثرية الساحقة لا تبدئ ولا تعيد، ولا يتكافأ جهدها مع حاجتها من وسائل العيش، لذا هي في أكثر الأحيان نجدها تعيش على حسنات الدول الكبرى، وكما يقول المثل: (أطعم البطن تستَح العين)، إن ذلك الإحسان خَزْمٌ سياسي وثقافي، وختم اقتصادي على الأسماع والأفواه. إنهم يختمون على قلوبهم أن تحس بما هم فيه من كوارث وعلى عيونهم أن تشاهد، وعلى أسماعهم أن تعي ما يدور حولها. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٤ - سيكون من سمات هذا القرن الحادي والعشرين أن المعرفة ومعها العلم ستحل محل القوى العاملة: (لدرجة القول بأنه في الولايات المتحدة نفسها، وهي أكبر دولة متقدمة، تشير بيانات وزارة التعليم فيها إلى أن حوالي تسعين مليون مواطن أمريكي مهددون بفقد فرص العمل، نتيجة دخول التكنولوجيا المتقدمة في الصناعة الأمريكية، بسبب أنهم غير مهيئين للتعامل مع هذه التكنولوجيا، ولأن كل إنسان آلي من الجيل الثالث أو الرابع يدخل الإنتاج، يُخرج من الطرف الآخر في المصنع عدداً كبيراً من العمال الذين يفقدون فرص العمل) - جهاد فاضل - جريدة الرياض ١٤١٩/٤/٣هـ.

وهذا يعني أن القرن الحادي والعشرين سيكون قرن البطالة والتَّنْبلة معاً، بحيث يصيب شره كل المجتمعات الإنسانية، وتتساوى في ذلك المتقدمة والمتخلفة.. بمقادير تتلاءم بالطبع مع حجمها ووضعها في هرم السيطرة العالمية.

فما الحل أيها السادة حتى نتحاشى الزوايا والركايا، ونحتفظ لأنفسنا بموقع

المخترعين العالميين.؟ وهل ترى أحدنا قادراً على اتخاذ قرار مستقل في الدخول إلى أقطار العلم وميادينه الشاسعة، وبخاصة ما كان منها متصلاً بشؤون الدفع والردع. وأما الدين فلو كنا على قوة فيه لما تداعت علينا الأمم، ولما سامنا كل مفلس، ولما تجاهلنا المتجاهلون، ولما أخلدنا إلى راحة ونوم، ولقضينا حياتنا في كفاح وعمل وإنتاج.

يحكى أن التنابلة في فترة من فترات الحكم العثماني الذي استمر بأمر الله قروناً، كثروا كثرة ظاهرة. (التُّنبل والتَّانَبُول: كلمة أصلها تركية، دخلت اللغة العربية، وتجمع على تنابلة). وفي لامية كعب بن زهير ورد:

يمشون مشْي الجمال الزُّهْر، يعصمهمْ ضربٌ إذا عرَّد السودُ التنابيلُ

قالوا: وهي جمع تِنْبالٍ أو تَنْبِيل، وقد تجمع على تنابلة أيضاً بمعنى الأسمر، وكعب يريد الأنصار من الأوس والخزرج، وقد كانت فيهم سمرة، ويريد بالزُّهْر، صِباح الوجوه، وهم المهاجرون من قريش، وكانت الدولة قد اهتمت بهم وأجرت لهم المعاشات وأسكنتهم الدور، على اعتبار أنهم في حاجة إلى الرعاية والإيواء، وأن ما بهم من كسل هو نوع من العجز العقلي والنفسي الموجب لمساعدتهم، ثم أحس المسؤولون أن أعداد هؤلاء التنابلة تزيد ولا تنقص، وأنهم يرفضون التعلّم والتمهين، ويستعصُون على التأهيل، بحيث أصبحوا عبئاً على خزينة الدولة، فأشار الوزير على حاكم تلك الإيالة أن يضرم النار في القصر الذي كان يؤويهم، ليُعْلم الصادق في تنبلته من الكاذب، فلما اشتدت النار في جنبات القصر، فر أكثرهم، ولم يبق إلا مجموعة صغيرة، أراد أحدهم أن يشعل سيجارته في هذا الجو المكفهر بدخان الحريق، فقال لزميله، وكان أقرب منه إلى الجمر: ناولني جمرة أشعل بها سيجارتي، فقال له الزميل: ولماذا العجلة.؟ انتظر النار إلى أن تصل إليك، وكانوا يسمعونهم ويتابعونهم، بوسائل التصنت الممكنة. فلما سمعوا ذلك الحوار البائس اليائس، تحققوا من تنبلتهم، وأسرعوا إلى إنقاذهم، وأطفأوا النار المحيطة بهم، وواصلوا

تصرفنا تحت مظلة الآية الكريمة من سورة النحل (آية ١٠٦): ﴿**من كفر بالله بعد إيمانه إلا من أُكرِهَ وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن من شرح بالكفر صدْراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم**﴾، فإننا ونحن مغلوبون على أمرنا تفرض علينا اللياقة الحياتية، واللباقة المعيشية أن نشارك القوم بعض أفراحهم، ولكن ذلك لا يمنع من أن نظل في دواخلنا نؤمن بقيمنا ونخلص لتاريخنا وانتماءاتنا الأصيلة، على أن نكون جادين في كل أولئك، مبتدئين في اتخاذ خطوات البناء، فَلأَنْ نموت عاملين أجدى علينا من أن نوت متسكّعين.!

إن الولاء يجب أن يكون لتاريخ هجرة محمد صلى الله عليه وسلم، على أن يكون ولاءً صادقاً بكل معاني الصدق.. أما أن يكون لتاريخ ولادة المسيح أو للأشهُر الرومانية، فلا، علماً بأننا نؤمن بالمسيح نبياً ورسولاً من خلال ما جاءنا عنه في القرآن والسنة عليه وعلى نبينا والمرسلين السلام.

٢ - إن كل الأمواج المتجهة بنا إلى القرن الحادي والعشرين إنما تجرنا بقوة إلى العولمة، لتعيد صياغتنا وفق هواها وتبعاً لإرادتها ومصالحها، وذلك في جميع ميادين الحياة، وبخاصة في مثلث الموت: (الاقتصاد - السياسة - الثقافة)، لأنها تعلم علم اليقين أنها متى ضمنت التبعية في هذا المثلث الرهيب كان الناس تبعاً لها، يتحركون في مدارها، وتبعاً لأقمارها، وحتى لو لم تتعمد تلك القوى العالمية المستفيدة جرنا لمدارها، فإن الأمور بطبيعتها منجرة لها، آيلة إليها، لأنها هي التي تمتلك المكْننة، والتَّكْنجة، وهي التي تحدد الأقدار السياسية والمستويات الاقتصادية. فما العمل.؟ ربما يقول بعضنا، لا عمل.! وربما كان العمل في ترك العمل.. وهو منطق استسلامي، لا يعي واجبه تجاه نفسه وتجاه مجتمعه، ولا يزن الأمور بموازينها الحقيقية. يرون أن الاحتواء واقع لا محالة، وأنه قدر البشرية في القرن الواحد والعشرين. وتظل هذه الفئة اليائسة من بني جلدتنا تكابد يأسها وعجزها، في انتظار الكارثة أو حدوث المعجزة لإنقاذهم. والمعجزة في اعتقادي لا تحدث إلا بشروط علمية أو شروط دينية. فأما العلم فنصيبنا منه ضعيف، وهذا الضعف هو الذي جعلنا في آخر قائمة المحتفلين بالقرن الجديد، وانظر هل ترى اسماً من أسماء أبنائنا في قوائم

الجماعة هي الغالبية الكبرى من الستة بلايين إنسان الذين سيستلمهم القرن الحادي والعشرين خلال فعاليات الاحتفال الكوني).

وهذا الحديث الحاشد عن هذا القرن في جميع بقاع الأرض - إحساساً ووعياً، أو تقليداً وعدوى - يدل على عدة أمور أهمها:

١ - انضواء العالم كله حضارياً وسياسياً واقتصادياً، تحت قبضة أمريكا وأوروبا، والتسليم الاختياري بهيمنتهما، إذ القرن الحادي والعشرين يمثل تاريخهما ويرتبط بحركة وجودهما، وعليهما ينطبق قول شاعرنا القديم مفاخراً بقبيلته:

ترانا إذا سرنا مشى الناسُ خلفنا وإن نحن أومانا إلى الناس وقَّفوا

فلكل قوم تاريخهم المرتبط بآبائهم وأجدادهم، والمتصل بعقائدهم وحضاراتهم، ومنهم نحن العرب.. ولكن الشعور بالتبعية وتلبيسات أخرى تجعل الناس يتنازلون عن كل أولئك لينضووا إلي حظيرة المجموعة الثالثة الهاتفة في الاحتفال الكوني بالقرن الحادي والعشرين، والسؤالُ - مثلاً - هل احتفل الأمريكان والأوروبيون معنا بدخول القرن الخامس عشر الهجري.؟ وهل نحن دخلناه بمشاعرنا وأحاسيسنا.؟ هل كان شعورنا بالانتقال من قرن إلى قرن شعور المحاسب نفسه عما أنجز، وعما خطط لمستقبله.؟ هل قطعنا فيه ميثاقاً على أنفسنا بوجود التطور والتغير إلى الأحسن وبالإخلاص فيما نقول ونعمل.؟ هل شعرنا فيه بصدق الانتماء لجذورنا وأصولنا وأرضنا وتراثنا.؟ أو مرت بنا ليلة ١/١/١٤٠١هـ عادية ككل ليالينا العابثة المطمئنة الآمنة من الإزعاج.؟ إذا مرت بنا كذلك فلماذا نتطلع إلى أن يشاركنا فيها الآخرون.؟ إن مواقع الحياة تكون بمقدار الفاعلية في الحياة، فهل حاولنا أن نحدد فاعليتنا بعيداً عن الصخب والخطب وموائد الادعاء.؟

وإذا كان الأمر كذلك فهل علينا أن نستسلم لهذا الإضواء أو الانضواء.؟ وما يصحب ذلك من إغواء وإغراء.! نحن قد نجد أنفسنا منضوين بشكل أو بآخر شئنا أم أبينا، لأننا نفقد في كثير من الأحيان حتى فاعلية القدرة علي الدفاع. ولكننا لو

الاتجاه إلى القرن الواحد والعشرين[1]

السؤال الملح هو: هل نحن بالفعل مهيأون حضارياً إلى دخول هذا القرن بشكل من الأشكال.؟ وبالتالي: ما مظاهر هذا التهيؤ.؟ وهل هو ذاتي نابع من إحساسنا بوجوب المشاركة، ومنطلق من قدرات نمتلكها، أو أن هذا التهيؤ مجرد (تهيؤات) وتهويشات ومحاولات للتأهيل مستعارة من هنا، ومسترقة من هناك.؟ أو أننا نحن العرب - أساساً غير مؤهلين، وإنما نحن نساق زمانياً كما نساق مكانياً وحضارياً:

مخلّفون ويقضي الناسُ أمرهمُ ... وهم بغيب وفي عمياء ما شعروا

ولعلني أوافق أخي الدكتور علي شويل القرني في حديثه عن المجتمعات الثالثة القادمة لحضور الاحتفال الكوني بحلول القرن الواحد والعشرين، وذلك في مقاله المنشور بالرياض بتاريخ ١٤١٩/٤/٣هـ تحت عنوان (فتنة القرن ٢١):

(هناك جماعة ثالثة على هامش التاريخ، وخارج حدود الحدث والكتابة، وضد الفكر المستقبلي للأشياء والزمن، هذه الجماعة ليست فقط خارج نطاق المشاركة في المسرح الكوني لأحداث القرن الحادي والعشرين، بل إنها حتى خارج حدود المعرفة بهذه الأحداث، وفي جهل وأمية مطبقة بما يدور حولها أو يختلج داخلها، أو يهيأ ضدها.. فهي مجرد جموع غفيرة وجماهير ساقطة في لعبة الشطرنج الدولي، هذه

---

(١) نشرت بصحيفة (الرياض) ١٤١٩هـ.

قوم لهم شرفُ العلى من حميرٍ فإذا انتموا (صنهاجةً) فهمُ وهمُ
لما حووا إحراز كل فضيلةٍ غلب الحياء عليهمُ فتلثموا

أما هذه النعرة الجديدة المتمثلة في الدعوة إلى الأمازيغية، ووضع حروف لها لاتينية ومحاولة التقعيد لها، والكتابة بها، والضغط على دول المغرب العربي بقبولها لغة ثانية وفرضها في التلفزة والإذاعة ومختلف القنوات الثقافية، فإن ذلك دعوة استعمارية تغذيها فرنسا، ومعاهد التنصير والتبشير في العالم، في محاولة لكسر ظهر الوحدة الوطنة في تلك البلاد، وبخاصة في المغرب والجزائر، وقد كانت **اللهجة البربرية** إلى عهد قريب المختلطة بألفاظ عربية كثيرة تنبئ عن البنوة الصادقة، كالعامية المنبثقة عن العربية الفصحى، لا تتعدى مجال النطق والتعامل اليومي.. ولكن دعاة الفرقة هم من ساندها وقواها، وأفسح لها المجال لتكون قسيمة للفصحى، وبالتالي يمكن إحياء الإنقسامات بين أبناء الشعب الواحد، ونحن حينما نفسح المجال لها على أي وجه سنكون مسهمين في ذلك من حيث لا ندري.. ولا نريد بدعوى المطالب الفنية أن نصل إلى نشر العامية، أو الترجمة عنها..

تمنياتي لأحبائي أسرة تحرير (نوافذ) وإخواني في نادي جدة الثقافي.. وإنه احتفاء على الطريقة الخطراوية.

* * *

١٢ - إن ما يتم ممارسته على صفحات (نوافذ) من ترجمة للشعر، يعدّ مغامرة كبيرة جداً، جديرة بالمناقشة، وذلك في الإطار التالي:

إن ما يقال شعراً، لا ينبغي أن يقال نثراً، إذ النثر غير الشعر، وما فعله المترجمون هو أنهم حولوا الكلام الشعري في لغةٍ ما إلى قالب نثري في لغة أخرى. وانظر أي كمية من عناصر الشعرية يمكن أن يفتقدها الشعر بهذه العملية، بالإضافة إلى ما في هذه الممارسة من محاولة لإخضاع الذوق العربي والعين العربية للكلمات المتناثرة، وإقناعها بأن هذا يدخل في دائرة الشعر، ونحن نعلم جميعاً أن ذلك كان في وقت من الأوقات سبباً في انزلاق الكثيرين في أوحال ما يسمى الآن بقصيدة النثر، وتضييعهم طريق الشعر السليم.. فلماذا نترجم القصة قصة، والرواية رواية، والمسرحية مسرحية، ولا نترجم الشعر شعراً.. لماذا لا يترجم إلا بعد أن يؤنث أو يتم خصاؤه؟ إن الترجمة على النحو القائم وإن أحدثت نوعاً من التواصل، فإنها في الجانب الآخر تسيء إلى موسيقى الشعر، وتسهم في دق عنقه.! فليتنا نترجم الشعر شعراً، ومن لا يستطيع ذلك فليجاوزه إلى ما يستطيع.!

١٣ - لاحظت أن النص الثالث والرابع مترجمان عن الأمازيغية، تحت عنوان: (قصيدتان من الشعر البربري)، وأنا أعرف أن البربر منذ دخل الإسلام إلى شمال أفريقيا تعرّبوا جميعاً، لغة ووجداناً وتوجّهاً، فإن بقيت فلول لم تدن بذلك، فلمرض في النفس، ولعدم تمكن الإسلام من قلوبهم، وقام البربر جنباً إلى جنب مع العرب في الأندلس وشمال أفريقيا ببناء الدولة العربية الإسلامية، والثقافة العربية الإسلامية الموحدة، وكم من علماء نبغوا من البربر في علوم العربية، وكتبوا شعرهم ونثرهم باللغة العربية، ويعرف ذلك من يرجع إلى نفح الطيب للمقرّي، والإحاطة للقضاعي، وعنوان الدراية في علماء بجاية، والبستان في علماء تلمسان، ومعالم الإيمان في علماء القيروان للأنصاري، وغيرو ذلك كثير.. وقد قال شاعرهم القديم مفتخراً بأصوله العربية البعيدة والقريبة:

٩ - وسم الأدب الذي تهتم به دوبرية (نوافذ) بالعالمية، يجعلنا نتساءل عن مدلول العالمية، لدى المشرفين على هذه الإصدارة، هل المقصود مجرد الدلالة الجغرافية، فيشمل كل ما ليس بعربي، أو أن هناك معايير فنية يتم على أساسها الاختيار أو قبول النص المترجم، وإذا كان الأمر كذلك فما هذه المعايير؟ فإن كثيراً من الأسماء المترجم لها من الأسماء العادية جداً، وأنا مع أسرة التحرير في جمال ما قرأناه من هذه النصوص، ولكنه استفسار ليس غير.!

١٠ - لماذا لم يذكر المترجمون المراجع التي أخذوا عنها قصائدهم، ليمكن لمن شاء الرجوع إليها، وربما المطابقة بين النص في حالتيه اللغويتين.؟

١١ - بعض القصائد لم يشيروا إلي اللغة المترجم عنها، في آخر القصيدة، بينما أشير إلى بعضها الآخر، فمن المشار إليه القصيدة الأولى والثانية والثالثة، والرابعة، ومن المهمل، القصيدة الخامسة فالقصيدة الثانية: (لا تسأليني عن ذلك الحب ثانية) لشاعر باكستاني اسمه فايز أحمد فايز/ واللغة المترجمة عنها هي الإنجليزية، فالمتوقع أن تكون لغته الأوردية كما هو الشأن في الشاعر محمد إقبال/ ولقائل أن يقول: وما المانع أن يكتب الباكستاني بالإنجليزية؟ ويترتب على هذا أمران: أولهما ضرورة ذكر المرجع، فذلك يحدد إن كانت الترجمة من لغة وسيطة أو لغة أصلية. وثانيهما، يتمثل في صيغة سؤال هو: هل ينسب الأدب إلى لغته أو إلى جنسية مؤلفه أو عقيدته؟ أما أنا فإنني أجزم بأن الأدب ينسب إلى لغته، فكل ما كتبه الأفارقة - شمالاً ووسطاً - بالفرنسية هو أدب فرنسي صرف، يستوي في ذلك سنغور السينغالي، ومولود فرعون وكاتب ياسين الجزائريان، وكل ما كتبه الهنود - هنداً - وبنغالاً - وباكستاناً) وغيرهم، بالإنجليزية هو أدب إنجليزي، وهكذا.! كما أن كل ما كتبه المسلمون من غير العرب في مختلف العهود باللسان العربي، هو أدب عربي وثقافة عربية.! ومن المعلوم أن الأدب بالترجمة عبر اللغات يفقد كثيراً من روائه وجماله.. ومن هنا ندرك ضرورة التنويه على الوسيط إن كان موجوداً.!

الكهف/ آية ٩٦/ ومن الأخطاء الشائعة على ألسنة العاميين وأشباههم: (ربَّ صدفةٍ خير من ألف ميعاد)، والصحيح: (ربّ مصادفة).

٤ - في ص ١١٦: (أعجز عن رفع رأسي، فهي تئن تحت ثقل الألم الشديد). والرأس مذكّر، وتأنيثه عامية مصرية، مساوية لتأنيثهم كلمة (مستشفى) متوهمين أن ألفها للتأنيث. فيقولون: (رأسي أو دماغي بتوجعني)، والمستشفى فاتحة، أو مغلقة.

٥ - في ص ١٠٩: (ونطالب بالثأر، الذي لن ينطفئ ناره)، ومعروف أن النار مؤنثة، واستعمالاتها الشعرية والنثرية والقرآنية أكثر من أن تحصى.

٦ - في ص ١٠٨: (إيه.. بريشتينا، تحدثني عن الأيام والأسابيع)، وأعتقد أنها في الأصل (حدثيني)، فهي المناسبة لاسم الفعل (إيه)، والملاحظ أنه لا توجد دقة في استعمال أدوات الترقيم، والمفروض أن تكتب هكذا: (إيه.! بريشتينا.! حدثيني عن الأيام والأسابيع.! إلخ)، ولا يخفى علينا ما لأدوات الترقيم من تأثير في الكتابة الحديثة، وما لها من إيحاءات ودلالات.!

٧ - في ص ١٠٥: (حيث أمهاتنا وإخوتنا، يسمعون نشيدنا)، وأعتقد أن السياق يقتضي (أمهاتنا وأخواتنا)، أما الإخوة، فإنما يناسبها الآباء، وجاء بعد الجملة السابقة (ويلمسون الألم والرهبة هراوات وسياط) هكذا بالضم أو الكسر، والصواب نصب الاسم الأول بالكسرة نيابة عن الفتحة، ونصب الثاني بالفتحة، وذلك على التمييز، وبالتالي يكتبان هكذا: (هراواتٍ وسياطاً).

٨ - في ص ١٠٤: (وموكب الأبطال لا نهاية له، يغيّبون في الزرائب، مكدّسون بعضهم فوق بعض)، والصواب: مكدّسين لأنها حال، وكذلك: (جائعون) في الصفحة نفسها، وذلك حين يقول: (وترتعش أجسادهم من البرد، جائعون، يمددون عظامهم على الأرض)، ولا وجه لجعل الاسمين: (مكدسون - جائعون) خبرين، فالفرق ظاهر بين الدلالتين.

(مَنْطِقة) بفتح الميم وكسر الطاء، بمعنى الجزء المحدد من الأرض، له خصائص مميّزة، وهي بهذا المعنى محدثة، وهي في الأصل: الحزام يشدُّ به المرءُ وسطه، جمعُه مناطق. والذي يكثر من شدّ وسطه بها يسمى (مِنْطيقا)، قال جرير يهجو قبيلة تغلب قوم الأخطل:

والتغلبيون بئس الفحل فحلُهمُ فحلاً، وأمّهمُ زلاّء منطيق

حيث كانت تتمنطق بطريقة توهم كبر الأعجاز، وهي في واقعها زلاّء. وإذا استوى الكسر والفاتح، كان الأولى ترك الشكل، أو الشكل بهما معاً.

٢ - في ص ١٢٣: (وكل ما عشتُ بمنحني القِوى). بكسر القاف، وهذا يعني أنها على وزن فِعَلٍ، ومفردها: قِوَّة، على وزن فِعْلَةٍ، كحكمة وحِكَم، وفِدْية وفدىً، وليس الأمر كذلك. بل هي (قُوىً) على وزن فُعَلٍ، ومفردها قُوّة - بضم القاف - على وزن فُعْلة، كغرفة وغُرف، وصُوَّة، وصُوَى، وسُمِع بكسر القاف (قِوى)، على غير قياس، فإذا سلمناه لم يحتج إلى الشكل.

٣ - في ص ١٢٢ مقطع ٣: (وحدها الصُّدفة، تعرف مكان اللقاء)، والصحيح: المصادفة، والماضي منها: صادف، يقال: صادف فلان الشيء أي حاذاه، وصادف صديقه، أي لقيه ووجده من غير موعد ولا توقُّع، وتصادفا أيضاً: أي تقابلا على غير وعد. أما الصُّدْفة، فلا وجود لها بهذا المعنى، والفعل الثلاثي (صدَفَ) بفتح الصاد، يأتي بمعنى أعرض، قال تعالى: ﴿**فمن أظلم ممن كذّب بآيات الله وصدف عنها، سنجزي الذين يَصْدفون عن آياتنا سوءَ العذاب بما كانوا يَصْدِفون**﴾ الأنعام/ آية ١٥٧، وتستعمل لازمة ومتعدية، فيقال: صدَفَ عن الشيء، إذا أعرض عنه وانصرف، ويقال: صدَف فلاناً عن الشيء، إذا صرفه عنه وجعله يعرض عنه.، وما في الآية يستوعب المعنيين معاً: أما الصَّدَف بفتح الصاد والدال، فمن معانيه الجانب والناحية، وصَدَفا الجبل: جانباه المتحاذيان، قال تعالى: ﴿**حتى إذا ساوى بين الصَّدَفين قال انفخوا**﴾

نوافذ على نوافذ[1]

ترددت في اختيار العنوان المناسب لهذه الكلمة القصيرة التي أكتبها حول (نوافذ)، التي يصدرها نادي جدة الأدبي الثقافي، معنية بترجمة الأدب العالمية، هل يكون العنوان: (ترميمات في نوافذ نادي جدة الأدبي)؟ أو (لمسات تحسين وتزيين)؟ فوجدت في الأول روحاً صدامية، واستفزازاً لا يليق بما يقدمه نادي جدة من خدمات لدنيا الثقافة والأدب، وفي العنوان الثاني بقايا من تلك الروح، مع قصور عن المقصود، ووقع الاختيار أخيراً على العنوان المثبت أعلاه، ليحقق المواجهة المتسمة بالمسالمة والحوار الذي ينشد التكامل، وينطلق من خلال الإحساس بالمسؤولية الكبرى التي ينهض بها هذا النادي في مجال التأديب والتثقيف، وما يصنعه من مرجعية ثقافية تجعلنا نحرص على التعالق معه والتكامل مع أهدافه، وكلامي إنما هو خاص بالعدد الرابع من هذه الإصدارة (صفر ١٤١٩هـ/ يونيه ١٩٩٨م). وستكون نوافذي هذه المرة على نوع واحد فقط من أنواع الإبداع، ذلكم هو الشعر، وسألخص مطلاتي في مجموعة من الملاحظ، بعضها لغوي والآخر فكري أو منهجي، علماً بأن الملاحظ اللغوية عندي لا تقل شأناً عن الملاحظ الأخرى، لأن اللغة تمثل في جميع مستوياتها وجودنا بكل معطياته الماضوية والآنية والمستقبلية:

١ - جاء في ص ١٢٤: (في منطقة الكلمة، في فضاء الإلهام، ثَمّة بقايا حديقة مهجورة.. إلخ) ووضع المشرف اللغوي كسرة تحت ميم (منطقة)، والصحيح أن وضعها حذلقة زائدة، إذ يقال: (مِنطقة) بكسر الميم وفتح الطاء، كما يقال:

(١) نشرت بصحيفة (الجزيرة) ١٤١٩هـ.

المشرفة علي المهرجان لبسوا من النطيحة وما أكل السبع كما يقول أخي الغذامي، وهو في غلواء اندفاعه وحماسته، فأول أمسية على ما أذكر ضمت حسن عبدالله قرشي، ومحمد هاشم رشيد، وأحمد الصالح (مسافر). كما أن الأمسية التي أدرتها ضمت علي الدميني، ومحمد الثبيتي، وغيرهما، وضمت أنشطة الأمسيات الشاعر شوقي بزيع ونذير العظمة، وعبدالرحمن رفيع، وعبدالله الصيخان، وصالح الزهراني وعبدالمحسن حليبت وبلند الحيدري، ومحمد الفيتوري، وعبده بدوي، وسليمان العيسى. أما غازي القصيبي، فقد صاغ (المسرحية الغنائية) الأوبريت، وأما الجواهري فأنت تعلم أن الاهتمام به لم يكن لمجرد شعره.

والغريب أن بعض الضيوف المثقفين من الداخل والخارج يؤثرون أحياناً النوم في الفندق، أو الثرثرة في صالته، أو الخروج للتسوق أو الزيارات الإخوانية، ويفضلون ذلك على حضور الأمسيات والندوات، اصْغ إليّ: (الندوات) وفيها عتاولة الفكر والثقافة.. وبعضهم ولا أحب أن أسمي، رأيتهم يتشاغلون عن سماع الشعر بالنكت وإطلاق الضحكات.. فماذا نصنع.. إننا نجيد البكاء والتباكي، ونحاول في أكثر الأحيان أن نحمّل الآخرين وزرنا.. هذا عبدالوهاب البياتي.. وفاروق شوشة، وشوقي بزيع، والشرقاوي، وكان قبلهم بلند الحيدري، وغيره، بالجنادرية، فهل التمّ حولهم شباب الفصحى؟ أو قصدوا إليهم، يسمعون منهم ويفيدون من تجاربهم؟

إن العملية أعمق من أن نناقشها بطريقة سطحية.. إنها نفس المشكلة التي تعاني منها الفصحى في قاعات الدرس، وفي الإدارات الحكومية، وفي الصحف، والإذاعة والتلفاز.. إننا في حاجة إلى أن نؤمن بذواتنا، ونحدد هويتنا ثم نسير.! أما الجنادرية فقد هيأت لنا الكثير والكثير، (والشاطر) من يحسن استثمار ما هيئ له.. والله المستعان.

* * *

العامية وتوظيف الموروث العامي.. أخي الغذامي.! مرحباً بأوبتك إلى رحاب الدفاع عن الفصحى.. ولكن رفقاً بنا فنحن إخوانك.!

٣ – هناك سبب آخر للتصفيق للشعر العامي وشعر العامية، هو غلبة الجماهير العامية في الحاضرين، فلو أتيت لهم بالمتنبي، ونزار، وبامرئ القيس، والنابغة الذبياني، لما أصغى إليهم أحد، ولا نحمّل النص ذنباً لم يقترفه، ومتى كان رأي الجماهير العامية مقياساً لجودة الشعر أو رداءته.؟ وقد قلت: إن الناس تهتف للنجوم لا للمضمون ولا للإبداع، ولكنك تعلم معي أن الشهرة ليست دليل الجودة دائماً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.. وفلا أشهر من (أرسين لوبين) ولاعب الكرة فلان.. ولقد أحسنت إذ قلت: (ولذا فإن الجماهير لا تأتي من أجل الشعر العامي تحديداً، ولكنهم يأتون إلى (النجم الجماهيري)، تعني ابن هذال، لما تميز به من مواهب إلقائية، متّعه الله بالصحة والعافية، أما استدلالك بالشاعر محمود درويش، فإنني أؤكد لك أن أكثر المعنيين لا يعرفون من محمود درويش؟ أو سميح القاسم.! واشتهر نزار لحديثه عن المرأة. ومن خلال عبدالحليم وكاظم الساهر، ونجاة وفائزة أحمد وماجدة الرومي وأصالة..

وقلت يا أخي الغذامي: (وإذا ما جئنا إلى الأمسيات الشعرية التي تقام في قاعات الفندق، فإننا نرى نجوم العامية مثل: طلال حيدر – الأبنودي – مساعد الرشيدي، وغيرهم من شعراء العامية المتميزين والنجوميين، وفي مقابلهم لا نجد للفصحى سوى النطيحة وما أكل السبع، وهذا يؤدي حتماً إلى تفضيلات ظالمة، تقود إلى الظن بأن العامية أشعر من الفصحى، وأن الناس لا يطربون إلا للعامي، وما سبب هذا الظن إلا كون شعراء الفصحى في أمسيات الجنادرية أقل بكثير من زملائهم، ولا يصح مقارنة شعراء الصف الرابع بشعراء الصف الأول، وهذا خطأ لابد من تداركه).

وبما أنني شرفت بحضور كل مهرجانات الجنادرية منذ إنشائها، وشرفت بإدارة بعض أمسياتها الشعرية، فللحق أقول إن كثيراً ممن اختارتهم اللجان

مرتكز في أساسه على عربيتنا وإسلامنا وانتمائنا لهذه الأرض: (المملكة العربية السعودية). كلام أخي الغذامي هذا جميل نصفق له ونؤكد عليه.. كما نؤكد على وجوب ا ختيار الشعراء المتميزين من شعراء الفصحى لمواجهة شعراء العامية، ونتمنى أن لا تكون العامية قسيمة للفصحى، بل ضيفاً يحل بساحتها يكرّم، وتوطأ له الأكناف، ولكن في حدود الضيافة.. ويسجل الأخ (الغذامي) بعض أسباب تراجع الفصحى أمام العامية في الجنادرية فيقول: (خاصة وأن الشاعر الذي يجري اختياره لإلقاء قصيدة عربية بجوار ابن هذّال **دائماً** (لاحظ كلمة دائماً) ما يكون من شعراء الصف الرابع أو الخامس عربياً، أي أنك تضع شاعراً ضعيفاً بجوار شاعر مجلجل وجذاب جماهيرياً، ومن هنا وقعت مقارنة ظالمة بين العامي والفصيح، تنتهي باستمرار إلى تغليب ابن هذال على رفيقه إلخ..)، وهذا يعني أنه يريد القصائد الحفلية أي التي ألقيت في أحفال الافتتاح، وبما أنني ممن شرفوا بذلك في جنادرية سنة ١٤١٥هـ، فإنني أقدم احتجاجي لأخي (الغذامي)، ملخصاً في النقاط التالية:

١ - إن عبارته (دائماً مّا تكون من شعراء الصف الرابع أو الخامس.. إلخ) غير مقبولة في الفصحى، فلا تدخل كلمة دائماً على ما، ولم يرد مثل هذا الاستعمال عند العرب الأقحاح، ويمكن إحالته إلى عامية ابن هذال.

٢ - لو قلت (غالباً) لقبلتك اللغة وقبلناك، فقد رشحتني أنت بنفسك للقصيدة الحفلية بديلاً عن الدكتور غازي القصيبي، ذات عامٍ، واتصلت بي هاتفياً لأخذ رأيي المبكر، ومرّت المناسبة دون أن أشترك فيها، ثم رشحني سعادة وكيل الحرس الوطني الدكتور عبدالرحمن السبيت لعام ١٤١٥هـ، فألقيت في حفل الافتتاح قصيدتي (خيمة الحب) المنشورة في ديواني (تأويل ما حدث)، وهي من قصائدي التي أفتخر بها، ونالت إعجاب الكثيرين ومنهم أخي الدكتور الغذامي، الذي عانقني بعد نزولي من المنصة، وهنأني بها، كما هنأني كثير من الشعراء العرب ونقادهم من الضيوف.. فلا أدري لماذا يتعمد الآن أخي (الغذامي) إلغائي ويجعلني في الصف الخامس أو الرابع، لمجرد أنه تاب عن عاميته حين شارك في أول فاعلية ثقافية بالجنادرية حول

رفقاً بقلمك يا دكتور.![1]

جميل أن نغار على عروبتنا وعربيتنا من خلال إسلامنا.! وأجمل منه أن يكون أخي الدكتور عبدالله محمد الغذامي، من بين هؤلاء الغُيُر المنافحين.! وجميل أيضاً أن تتحول الجنادرية إلى منطلق دائم للحوارات الثقافية المختلفة، وأن تكون موضوعاتها المثارة، وأطروحاتها وفعالياتها مجتذباً للباحثين وادارسين، والمهتمين بشؤون الثقافة العربية والمشتغلين بهموم العروبة، في جميع أقطار العروبة، يقول الغذامي في مقاله المنشور بثقافة الخميس - الرياض (١٩٠٩) - السنة ٣٥/١١/ محرم ١٤١٩هـ/ والذي يحمل عنوان (الجنادرية والنجوم والمخلصون حين يقلقون (حول العامية والفصحى).. يقول: (ولقد سمعت هذا السؤال في سوريا وفي مصر، وفي المغرب، ووجدت نفسي في مواجهة محرجة مع عرب كثيرين صاروا يسألون عن المملكة العربية السعودية، وعن الجنادرية، ويتساءلون: هل صرنا نحن في بلاد الإسلام والعروبة ندعو ونتبنى العامية ونقف ضد الفصحى.؟).. هذا حقيقة سؤال مؤذٍ كما قال الغذامي، هجم على أسماعنا أكثر من مرة، وبخاصة حينما بدا الاهتمام بالشعراء العاميين في غاية الوضوح في جنادرية السنة الماضية (١٤١٨هـ)، بحيث نجد كاتباً مثل الشاعر اللبناني (شوقي بزيع) يكتب عن ذلك في جريدة (الحياة). ولقائل أن يقول إن المناسبة حفل عامٌ وجماهيري، فلا غرابة أن نجد فيه مساحة للشعر العامي، والإبداعات العامية الأخرى إذا صح هذا التعبير، ولكن الذي نذكّر به هنا هو أن لا ننسى ونحن في غمار ذلك عروبتنا ولغتها الفصحى، إذ أن وجودنا

---

(١) نشرت بصحيفة (الرياض) ١٤١٩هـ.

ومعطياته، بل ودعا بعضهم إلى بتّ الصلة بيننا وبين ماضينا المجيد وتطهير ذاكرتنا منه، فلا نتنفّس إلا من مناخر الغربيين، ولا نثق إلا بمقاييسهم ومعاييرهم، بل لا نأخذ إلا بما تفرزه عقولهم الجبارة، وما يجود به علينا كل زمّار وزمّارة.

ولا ريب أن هذا وذاك في ميزان العقل السليم لمخطئ كل الخطأ، وأن الاعتدال وحده هو الذي يرد كل واحد منهم إلى رشده، وينتشله من غيه، فلا القديم مرذول لقدمه، ولا الجديد مقبول لمجرد جدته، بل نحن في الحقيقة مطالبون إذا أردنا أن نبني على أساس متين، أن نأخذ الصالح من هذا وذاك، وأن نحافظ على أصولنا القويمة، ونأخذ من الغير أفكاره السليمة، بعد أن نسمها بميْسمنا، ونثبت عليها ملكيتنا، نطبق هذا في الفكر والأدب، في العلم والفن، قبل أن نطبقه في شؤون الحياة الأخرى، فمن الخطإ أن نعتقد أن كل ما لدينا من موروثات علمية وثقافية هو الصواب والحق الذي ينبغي أن نقيم عليه حياتنا، وغير ذلك باطل وخراب وضلال يجب أن نتجنبه. ومن الخطل أيضاً أن نعتقد أن التطور والتنور لا يتمان إلا من طريق التنكر للآباء والأجداد، والانصهار في بوتقة الغرب، وقد دعا رسول الهدى صلى الله عليه وسلم إلى الوسطية في أمور الدين والدنيا بعد الوقوف عند حدود الله فقال: (خير الأمور أوسطها). وهو ينطبق تماماً على ما نعنيه من الاعتدال.

شرفة:

من بحار النزيف جاء إلينا ... حاملاً قلبه على كفَّيْه
أين يمضي؟ كلّ الخرائط ضاعت ... أين يأوي؟ لا سقف يأوي إليه!

* * *

مّا في هذا الخضم الحاشد، وحتى نستطيع مواجهة هذا القرن وغيره من المناسم والقرون.

إن الحل في اعتقادي يتمثل في الحل الذي وجده ابن تيمية رحمه الله للنهوض بهذه الأمة بعد كبوتها على ركبها وأذقانها أمام التتار، إنه في الرجوع إلى الكتاب والسنة، إلى التحرر من الذل للمخلوق وقبول العبودية للخالق.. إلى تحكيم شريعة الله والعمل من أجل إعلاء كلمة الله، وخدمة كل خلق الله.. فلا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، شريطة أن يكون ذلك بعيداً عن التقوقع والجمود، وبمنأى عن التنازل والذوبان في الغير، إنه تصحيح للنقل والعقل، وتوفيق بينهما لبناء المستقبل المجيد، ولمواجهة جميع الأنظمة والأوضاع، ومعايشة كل الظروف. والله المستعان.

* * *

كنت في ضيافة نادي أبها الأدبي(١)

ضمن العناصر الفاعلة في مهرجان أبها السياحي السنوي، يتصدر نادي أبها الأدبي، بما يقيمه على هامش المهرجان ندوات فكرية ومحاضرات أدبية وأمسيات شعرية، خلال المدة المحدودة للمهرجان، والتي تستغرق عادة كل أشهر الصيف، وقد شرفت هذا العام بالمشاركة في أمسية شعرية، كنت فيها ثالث ثلاثة، ضمت الشاعر سعد الهمزاني والشاعر إبراهيم طالع الألمعي، وكاتب هذه السطور. ورغم ما أحسست به من حرص إخواننا في نادي أبها وفي المقدمة أخي الأستاذ محمد الحميد رئيس النادي، على إنجاح الأمسية، فإن أمسيتنا في اعتقادي لم تنل ما يتناسب معها من النجاح، ولم تلق من تفاعل الحاضرين ما كان متوقعاً، علماً بأن شعر المجموعة كان يتراوح بين الشبابية والكهولة، وحاول في بعض حالاته استرضاء الجمهور بإلقاء بعض القصائد الشطرية، وأعيذها أن تكون قَداميّة، فإنها رغم شطريتها منتمية لعصرها، ممتزجة به، معبرة عن هواجسه وتطلّعاته، فإن المعاصرة في القصيدة لا يحددها الشكل بمقدار ما يحددها المضمون، وطريقة التناول وآليات النص المختلفة، ومع ذلك لم يظهر على الجمهور رفضٌ ولا قبول، فهو جمهور ظل صامتاً طوال الأمسية، دخل الصالة صامتاً، وودّعها صامتاً، بحيث أحسسنا أن لا جدوى من مشاركتنا في الأمسية، عدا بعض كلمات المجاملة من المضيفين وبعض الأصدقاء. وقد أشرت في آخر الأمسية إلى أننا جميعاً مظلومون، فشعرنا ظُلِم، كما يظلم الشعر عادة في كل أمسية تقام، لأن الشعر المعاصر يُقرأ أكثر مما هو يسمع،

---

(١) نشرت بصحيفة (البلاد) ١٤١٩هـ.

فلا يكفي للتفاعل معه مجرد الاستماع العارض والسريع، إذْ لم تعد القصيدة المعاصرة تعتمد في وصولها إلى المتلقي عن طريق أذنه، بما توفره من جلجلة وصرصرة وشدة إيقاع، بل تعتمد في أغلب أحوالها على التعبير الهامس الرامز المصور، الذي لا ينفذ المتلقي إلى مداخله إلا بعد محاولات عديدة ومعاودة متكررة للقراءة، وهل يعني هذا أن إقامة الأمسيات الشعرية يفقد أهميته، ولا يبقى هناك ما يستدعيه؟ لا، ليس هذا هو المقصود، بل أقصد أن الأمسيات لا تنجح بشعرائها، وبما ألقي فيه من شعر فقط، بل تعتمد في نجاحها أيضاً بشكل كبير على الجمهور.. ثم هناك سؤال آخر حول جمع أكثو من أي شاعرٍ في أمسية واحدة؟ ولا أقصد نادي أبها فقط، بل هذا السؤال لكل من يفعل هذا في الأندية الأدبية وغيرها، إن دعوى حب التنويع وما إلى ذلك من أجوبة لا تسوّغ إطلاقاً مثل هذا الجمع، فلنأكل من طعام واحد، ولنصْغ إلى شاعر واحد نتفاعل معه، ونرتحل في شعره، ونحلق معه في عالمه السحري ونرافقه في واقعياته فنلتقي على موائدَ سواء، ونفترق على دروبٍ سواء، وعلى كلمة سواء وهذه وجهة نظري على كل حال..

أما عن جمهور نادي أبها فإنني أشكر كل فرد عنَّى نفسه بالحضور، ولكن في أبها كغيرها من مدننا الكبيرة، كليات، بل جامعة، وأكثر من جامعة، أي فيها من صفوة المثقفين الكثير والكثير، فأين أصحاب الدالات والسّينات والهمزات والميمات، وكل حروف الهجاء.؟ وأين أبناؤهم وأتباعهم وحواريّوهم.؟

إن الدخول إلى القاعة مجاني، بل ومحفوف بالترحيب والتأهيل والتسهيل، وما سيلقى على الأسماع من قصائد أو حوارات أو محاضرات، من الكلام الذي ينشد الخير ويسعى إليه، ويزعم أنه يطلبه ويؤسس له، فلماذا إذن لا يحضر هؤلاء المثقفون في أبها والرياض وجُدّة ومكة المكرمة والمدينة والشرقية.. إلخ إلخ إلى الفعاليات المنبرية التي تقيمها الأندية، علماً بأن بعض الأندية فرطت في خصوصيتها التي أقيمت من أجلها وتسمّتْ بالثقافية، والأخرى سمحت بالمحاضرات تلقى في رحابها من جميع التخصصات. فهل أجدى ذلك عليها شيئاً.؟ وهل أمَّ رحابها المثقفون.؟ إن على المثقفين في بلادنا دوراً كبيراً يجب أن ينهضوا به، كل في موقعه، وإن صدر

الأندية الأدبية يتسع لكل ألوان الفكر والثقافة، وإنّ العاملين فيها قادرون على الإفادة من كل الآراء التي يطرحها الجمهور في داخل الأندية وخارجها، شريطة أن تكون قابلة للتنفيذ، صادرة من نفوس صادقة الانتماء فيما تطرحه من أفكار، مستعدة للتعاون مع الأندية فيما تقترحه من أوجه النشاط.

كنا اعتندا في زيارتنا للأندية الأدبية أن نلتقي بمندوبي الصحف المختلفة يوجهون لنا الأسئلة العديدة قبل الأمسية وبعدها، ويستهدوننا القصائد التي ألقيناها بغية نشرها، ولكننا في أبها لم نلق غير مندوب جريدة (البلاد) الأستاذ مرعي ناصر عسيري، الذي أعطيته قصيدتين وبخلت عليه بالباقي، على أمل أن أكون عادلاً في توزيع قصائدي، بالنسبة لمندوبي الصحف الأخرى، ولكن مع الأسف لم أر أحداً منهم.. أعلم أن بعضهم سيغمغم بكلام مفهوم وغير مفهوم بغية التخلص من هذا الموقف.. وربما قال: إن شعرك لم يهززنا في شيء، ولهذا لم نطلبه منك، ولم يُغرِنا فيه شيء، ولهذا لم نحضر، وهنا سوف أمسك عن الكلام وأعرض عن المهاترين، وربما ردد أحدهم من المتقعرين قول أبي تمام:

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه   فليس جديراً أن يقال له شعر

وحينئذ سوف أكون مضطراً إلى ترديد شيء من شعر البحتري.. (عليّ نحتُ القوافي من معادنها) وربما اعتذر آخر بكل ذوق، وقال: إن اليوم كان مطيراً، ولم تصلني الدعوة، فلهذا بلا شك عذره، أفأنت تكره الناس أن يكونوا من الحاضرين.؟ وكل حزب لما لديهم فرحون، وللناس فيما يعشقون مذاهب، إلى آخر ما يقال في هذا الصدد من حكم وأمثال، وأقوال جديدة وحديثة.. ولكن سمعنا كثافة الجمهور السياحي الأبهاوي في مناسبات أخرى حضرها العوام، وأنّ حضورهم اكتسح عدد الكراسي المهيئة لذلك النشاط، لفيكون احتفاء العاميين بعاميتهم أكثر من اهتمام المثقفين بالثقافة العربية والأدب العربي والشؤون العربية وهموم العرب، وندخل كما في كل مرة إشكالية لمن تكتب أو تشعر.؟ وما اللغة التي تعتمدها فيما تكتب أو تشعر.؟ هل هي لغة أجنبية نلوي بها ألسنتنا.؟ أو عامية لا تعبّر عن روحنا وثقافتنا،

وإن كانت ملتصقة بحياتنا اليومية؟ أو هي اللغة العربية الفصيحة لغة الآباء والأجداد التي تنتظر منا الإخلاص لها والوفاء لماضيها وحاضرها، إن مثقفينا بكل أسف يغيبون عن محافل العربية وتجلياتها المختلفة، وينظرون لمن يرعاها شزراً كأنهم غرباء عنها معادون لها، وفي الحقيقة ما هم بالغرباء ولا الأعداء، ولكنهم في غفلة عن واجباتهم تجاهها وحقوقها عليهم، وعفواً إن تكلمت بلغة حماسية إلي حد كبير، ويعلم الله أن حديثي عن أمسيتنا الشعرية في نادي أبها الأدبي أخوي صادر عن حب مكين، فإن أمسيتنا منسوبة إلى غيرها تمت بحمد الله على أكمل وجه، ولكنني انطلقت من خلال الطموح، وما كل ما يتمنى المرء يدركه.. وليت مثقفينا يعون دورهم التثقيفي التنويري فلا يتأخر واحد منهم عن أداء دوره المنوط به، مشاركة وإسهاماً، ومساندة وإلهاماً، فهل يفعلون.؟ ولا يفوتني أن أنوه بما شاهدته في النادي الزميل من حسن إدارة وتنظيم ولجان عاملة في شتى المجالات.

وقد كان لنا في أبها لقاء مع أميرها الهمام خالد الفيصل سيكون موضوع حديث لاحق إن شاء الله.

* * *

في رحاب صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل[1]

هيأت لي زيارتي لأبها استجابة لدعوة نادي أبها الأدبي، والاشتراك في الأمسية الشعرية التي أقيمت بتاريخ ١٤١٩/٤/٢٦هـ والتي كتبت عنها في عدد سابق بهذه الصحيفة، فرصة كريمة عزيزة على نفسي، محببة لقلبي، تلكم هي شرف زيارة أمير منطقة عسير، صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، هذا الأمير المتميز بشعره وريشة رسمه، وإنجازاته الباهرة، إذ بالله ثم به تحولت عسير من عهد إلى عهد، وانتقلت من مرحلة إلى مرحلة، ولحقت بالركب، ثم انطلقت تتصدر مناطق المملكة بما تهيئه لزوارها من احتفاء يتمثل في سهولة الوصول إلى المناظر الطبيعية الخلابة كالسُّودة والقَرْعا والحبَلَة وغيرها. إنها مناطق لم يكن في إمكان آبائنا الوصول إليها بسهولة، وكان الاستمتاع بها يكلفهم الكثير من الجهد والوقت.. أما الآن فبفضل ما بذلته الدولة السعودية الرشيدة أصبح الاصطياف فيها سهلاً، والاستمتاع بها ميسوراً، فالطرق المشقوقة في داخل الجبال وعلى حوافيها وأطرافها أمر يثير الدهشة والعجب، ويستحوذ على التفكير، ويجعلك تستحضر في ذهنك كيف تم التحدي في أبها بين العزائم القوية والصخور والدروب الشاقة، ما كان منها معلّقاً أو في صورة أنفاق أو ما كان منها سهلاً واصلاً بين نجد ونجد، إنها على كل حال قصة شق الطرق في عسير.!

وكما تمتعت أبها والخميس وعسير كلها بشبكة الطرق الضخمة، تمتعت أيضاً بالكهرباء الصاخبة، أو هكذا بدت لي على الأقل ونحن نشرف عليها من الجو ليلاً،

---

(١) نشرت بصحيفة (البلاد) ١٤١٩هـ.

فقد وصلنا يوم الاثنين ٤/٢٥ على الرحلة ١٨١٢ متأخرين عن موعدنا الأصلي بساعتين ونصف تقريباً، ثم تضايقنا من التأخير، ولكننا نعمنا بالمشهد الأبهاوي النضير، فمصابيح الكهرباء تحتضن صدور الجبال، كالعقود تُلبّب صدور الحسان، وقد تتخيل هذه العقود المنتظمة إنما ركبت للترحيب بالزائرين.

لقد فعل سمو الأمير خالد الفيصل الكثير والكثير، ولعل أهم ذلك جميعاً ما تم بتوجيه من خادم الحرمين الشريفين على يدي ولي العهد المعظم، من افتتاح جامعة عسير والجنوب التي حملت اسم **الملك خالد**. إنه حدث علمي وثقافي عظيم، حقق به لمنطقة عسير وما حولها من مناطق حُلُمَ العمر، ونقل لهم بذلك العلم إلى عتبات بيوتهم، ويسر لهم طلب العلم قريباً من الأهل والأسرة، ولم يعد الطالب مضطراً إلى الاغتراب إلا في التخصصات غير الموجودة. وذلك أمر معروف في كل أنحاء العالم لا كلفة فيه. ومن أهم ما أنجز هذا الحدث على مستوى المملكة أنه رفع عدد الجامعات فيها، وكسر طوق الرقم سبعة الذي كبل منطق التعليم العالي ردحاً من زمن، وأصبحنا نتطلع إلى يوم قريب نرى فيه جامعة المدينة المنورة وأخرى بالقصيم وغيرهما من المناطق، وما ذلك على الله بعزيز.. فإن دولتنا الرشيدة في جميع الظروف لا تقبض يدها في مجال الصرف على التعليم بجميع مراحله ومستوياته، ولذلك فإن التعليم لدينا بالمملكة يسير بخُطاً حثيثة وسرعة مثيرة للإعجاب، تدفع على الإيمان بحاضرنا الراشد والثقة بمستقبل أكثر ازدهاراً إن شاء الله..

وللمياه وتحليتها في عسير حديث طويل، ومجال واسع، بُذلت فيه أيضاً الجهود الجبارة وماتزال تُبذل من طرف الدولة، كشأنها في اهتمامها بجميع المناطق وللأهمية السياحية الخاصة لعسير.

وكان لي شرف زيارة سمو الأمير خالد في مقر الإمارة صحبة أخي الأستاذ محمد الحميد رئيس نادي أبها الأدبي، والأستاذ سعد الهمزاني، وسعدنا بحديثه الشائق الممتع في كل صوب، فقد تحدث عن الشعر والأنشطة الأدبية والفنية، وعن جهود نادي أبها الأدبي وتعاونه مع غيره من المؤسسات العلمية بالمنطقة في رسم الوجه الثقافي للمنطقة، وأثنى على جهود العاملين فيه..

وتحدث سموه بعُمق عما يعتبر شغلُه الشاغل منذ سنين، وهو العمل على إنجاح السياحة الداخلية بشتى الطرق ومختلف الوسائل، وذلك على أساس وطني وأخلاقي وثقافي، فالحفاظ على أموالنا، ووجوب معرفة جميع أقاليم وطننا، والحرص على أن يكون سلوكنا وفقاً لرصيدنا الأخلاقي في جميع الأحوال، والعمل على التمسك بكل عناصر ثقافتنا، كل هذا يدعونا إلى أن نقوم بصناعة سياحية داخلية تجمع بين اللهو البريء والمتعة الجميلة والاستجمام المتخلق بأخلاق المؤمن الذي يروّح على نفسه بما يخفف همومه وينفس كروبه، ولا يغضب الله.. كيف؟ إن وسائل اللهو التي اخترعها الغربيون منطلقة من ثقافات مغايرة لنا في كثير من الركائز، فلابد أن نبحث عن أساليب تليق بنا، نصنعها في داخل بلادنا، بعيدين عن التفريط والإفراط، محققين لها جانب القلب والعقل والخلق القويم في آن، ولكي يتحقق هذا لابد من الحوار والدراسات المستفيضة المستمرة، وليس الصد والتقوقع والانغلاق.. إن أبناءنا يتعرضون في الخارج لحملات أخلاقية شرسة، وبعضها قد يكون مقصوداً، تترك بعض آثارها عليهم حين يعودون إلينا من أسفارهم الخارجية تلك.. فكيف يمكن اتقاء تلك الشرور.؟ إن من أوجب الواجبات إقناع مواطنينا شباباً وكهولاً بالسياحة الداخلية، وذلك بتوفير الأجواء المناسبة لها، التي نخطط نحن لها، ونحكم استراتيجياتها، ونمسك بزمامها، قبل أن يأتي اليوم الذي تحكمنا هي فيه، وتصنع منا صفراً وخانة خالية في مخططاتها، إن موضوع السياحة الداخلية في نظري يعد من أهم الموضوعات الملحة، التي يجب الوقوف عندها ومعالجتها بإصرار وحسن تفهم، وحين يتبناه خالد الفيصل وأمثاله من المخلصين الواعين، يجب أن نحييهم ونشد على أيديهم وندعو لهم الله بالتوفيق، ونشارك بالرأي في هذه المسيرة وتسديد خطاها. وعلى وسائل الإعلام مرئية ومقروءة ومسموعة أن تقوم بواجبها الوطني في هذا المجال وتنشط فيه، وكلنا مازال يعيش في ذاكرته برنامج (ربوع بلادي)، وهذا يعني أنه في الإمكان عمل برامج خاصة وعامة تابعة للتنشيط السياحي، من نوع (ربوع بلادي) وأكثر تحديثاً.

وتحدث سموه أيضاً عن تشجيع حكومتنا الرشيدة للأدب والثقافة بالجوائز

العديدة، وبإقامة الأندية الأدبية في المناطق المختلفة، وأثنى على جهود هذه الأندية وما تقدمه من إنجازات في النشاط المنبري والمنشورات والمشاركة في مختلف المناسبات واتخذ من نادي أبها الأدبي نموذجاً، وسعدنا بحديثه في شؤون الأدب والفكر والفن، فإذا هو الرجل الأديب المفكر الرسام ذو الذوق الأدبي الرفيع، الواسع الاطلاع بمجريات الثقافة والفكر والأدب على المستوى المحلي والعربي والعالمي، وغاب عن بالي في تلك المقابلة خالد الفيصل وحسبتني أجلس إلى رجل صديق أعرفه من ألف عام.

فهنيئاً لعسير بأميرها، وهنيئاً لنا به نحن معشر الأدباء والمفكرين وأمتع الوطن كله بحياته.. وعذراً إذا لم أسجل كل ما دار بيننا ومعه من أحاديث، فالحديث ذو شجون، وأعترف أنني مازلت مبهوراً مأخوذاً بكل منجزات هذا الرجل، ولا غرو فهو ابن الملك الشهيد.!

* * *

بين الأسماء والمسميات(١)

من الأخطاء الشائعة على ألسنة الموظفين والكتاب على المستوى الوظيفي والثقافي، وفي المطبوع والمقروء، الخلط بين الاسم والمسمى في الاستعمال، فيكتبون - مثلاً - في أوراقهم الرسمية (مسمى الوظيفة)، والصحيح: (اسم الوظيفة)، فمدينة الرياض - مثلاً - بشوارعها وساحاتها وميادينها ومؤسساتها، وكل محتوياتها: (مسمى)، وكلمة (الرياض) اسم لذلك المكان، وأنت، وأنا، وهو (مسميات)، وإبراهيم، ويوسف أو عائشة وعواطف: (أسماء).

فالاسم هو ما يعرف به الشيءْ، ويستدل به عليه. وعند النحاة هو كلمة دلت على معنى في نفسها، ولم تقتقرن بزمن، وذلك كرجل، وفرس، ومحمد، وخديجة. فإذا قابلنا به اللقب، وجدنا الاسم هو ما دل على الذات وحدها. بينما اللقب يدل على الذات وعلى صفة مدح أو ذم، مثل: الفاروق، والمتنبي، والجاحظ.. إلخ.

أما المسمى فهو تلك الذات الموضوع لها الاسم أو المعنى الدال عليه، وقد يتحول الاسم إلى علم، وذلك إذا كان عند إطلاقه يعين مسماه، ولهذا قال ابن مالك في ألفيته:

اسم يعين المسمى مطلقا عَلَمُهُ، كجعفر، وخِرْنِقا
وقَرَنٍ، وعدَنٍ، ولاحقٍ وشَذْقَمٍ، وهَيْلَةٍ، وواشِقٍ

وعدَّد ابن مالك التمثيل، ليدل على أن الأعلام أي الأسماء توضع للمسميات

---

(١) نشرت بصحيفة (الرياض) ١٤١٩هـ.

العاقلة وغير العاقلة، وللأحياء والجمادات والنباتات، فلكل اسم مسمى، كما أن المسميات لا تتميز ولا تتعين إلا بأسمائها. وسما الصائدُ الوحشَ ويَسْموه: تعيَّن شُخوصَها وطلَبها. وسمَوْتُ ولدي محمداً أو بمحمد، سَمْوًا: جعلته اسماً له وعلَماً عليه، وكذلك: (أسميتُ، وسمّيتُ). وتسامى القوم تداعوا بأسمائهم واستسميت فلاناً: طلبت اسمه.

وأيهما أسبق في الوجود، الأسماء أم المسميات.؟ العقل والوقائع تؤكد أن المسميات أسبق وجوداً، ولذلك يصح لنا أن نجعل من الأسماء مطلات حضارية في دراستنا الاجتماعية اللغوية، ونجعل من الألفاظ أحافير ثقافية، وهل للأسماء علاقة بمسمّياتها.؟ قديماً قالواً: (لكل مسمّى من اسمه نصيب)، مدللين بذلك على وجود هذه العلاقة، وهم يشيرون بذلك إلى الأعلام بالذات، لأن توافر ذلك في الأسماء الأخرى مما هو معروف بالضرورة، فالعلاقة بين أصوات الحروف والمعنى وطيدة، ومن أقوالهم في جهة المعنى، إن الزيادة في المبنى زيادة في المعنى. وقال بعضهم بالنسبة للأعلام: الأعلام لا تعلّل. وقد تناول بعض الكاتبين قديماً، كابن السكيت في (إصلاح المنطق)، والجاحظ في (البيان والتبيين) قضية أعلام الأناسي في العصر الجاهلي، وردوها لظروف بيئية واجتماعية بينما ردوها مرة أخرى إلى المصادفات والمفاجآت. فأعوام الشدة غير أعوام الرخاء، والأراضي الصلبة القاسية، غير الأراضي السهلة المنبسطة، والبيئة الرعوية غير البيئة الزراعية، وهما غير البيئة التجارية الحضرية، وأسماء السادة غير أسماء العبيد والحشم. وأسماء الرجال غير أسماء الرجال.. وهكذا..

وعللها غيرهما بأشياء تتصل بأنواع العبادات التي كانت سائدة، من توتمية ووثنية قديمة ووثنية متأخرة، المرتبط منها بالأرض والمرتبط بأفلاك السماء.. إلخ.

وفي اعتقادي أن كل ذلك كائن وقائم الاحتمال، ولكن الذي يصعب علينا في ذلك هو تحديد أحد تلك الاحتمالات، وبخاصة إذا كنا بصدد إثبات قضية علمية متصلة مثلاً بالجيولوجيا أو بالأنثروبولوجيا ونحو ذلك من علوم الأرض والعقائد والأجناس والحضارات.

وبخاصة ونحن نرى في عصرنا الحديث كثيراً من المعالم تتغير أسماؤها وفقاً للهوى والأحداث والمناسبات والمقتضيات، وربما كان ذلك في سنن التطور، فقد كان حصل قديماً أيضاً ولدى كل الأمم، ومن أجل ذلك ترتفع الأصوات بوجوب المحافظة على معالم الأرض العراء، ومعالم المدن والبلاد، لأن قبول حدوث تلك التغييرات هو موافقة على سلخ الشعوب من ماضيها وتعريتها من تاريخها، بالإضافة إلى أنه تزييف للحقائق، واعتداء على الوجود الإنساني كله وقلب للموازين.

فإن وقع شيء من التغيير فليكن في الظروف الطبيعية، ولموجبات معقولة، كإزالة قبح متمثل في الاسم، أو لدلالة سيئة فيه، ولأجل هذا غير رسول الله أسماء بعض الأماكن، وأسماء بعض الناس. فمن كان اسمه عبد الكعبة، أو عبد الحارث صار اسمه عبدالله أو عبدالرحمن، وذلك لما في اسميهما من معاني الشرك.. وجُعَيْل صار اسمه عَمْراً وذلك لما في اسمه من القبح، لأن جعيلاً تصْغير جُعَل، وهو اسم لخنفساء معروفة، لا تحلو لها الحياة إلا داخل المتبرّزات، حيث تتغذى على القاذورات (وبُراز الإنسان بالذات)، وكان الصحابة يرتجزون باسم هذا الرجل وهم يبنون المسجد النبوي الشريف فيقولون:

سمّاه من بعد (جُعيل) عمْراً   وكان للبائس يوماً ظَهْرا

فإذا قالوا (عمراً) ردد رسول الله صلى الله عليه وسلم (عمْراً)، وكذلك إذا قالوا (ظهراً) قال: (ظهراً).

وغير رسول الله صلى الله عليه وسلم أسماء بعض الأماكن لما فيها من دلالات الشؤم ونحوه، وذلك كما ذكروا من تغييره (خربي) إلى (صلحى) عند حرة الوبرة قريباً من مسجد القِبلَتين بالمدينة المنورة، حيث سأل عن اسمها فقيل له: (خُرْبَى)، فلم يعجبه هذا الاسم الدال على الخراب، فقال: بل هي (صُلْحى)، أو (صالحة).

ولعل هذا الأمر هو الذي من أجله غيّر الاسم الجاهلي للمدينة، فلم يبق على اسم (يثرب) لما فيه من الدلالة علي الثَّرْب الذي هو الفساد، أو التثريب الذي هو اللوم والعتاب. وقال: إنما هي طيبة وطابة.. كما أسماها المدينة، وهو الاسم الذي ورد في

القرآن، وذلك مما أكرم الله بها مدينة رسوله، حيث تولى تسميتها باسم مغاير للحياة الجاهلية، وأوسامها الجاهلية، لتؤدي مهمات أخرى جديدة في ظل العقيدة الإسلامية، فتمدّن بها ومنها الناس أي اجتمعوا وأقاموا، أو أطاعوا ودانوا لسلطان الإسلام، وما ذكرناه هنا تصح معه جملة (لكل مسمى من اسمه نصيب). ولكننا أحياناً نجد اسم صحابي جليل أو عالم كبير أو مدينة عظيمة تطلقه بلدية مّا على شارع فرعي صغير، أو ميدان متوارٍ، وذلك في اعتقادي حيف لا ينبغي أن يكون.. والشيءُ الآخر المثير للتساؤل أن تعمد أمانة أو بلدية مّا إلى إهمال الأسماء الشائعة على الشوارع والميادين لتطلق عليها أسماء أخرى تتغير معها معالم التاريخ، وسواء تم ذلك بحسن نيّة أو لعدم إدراك نتائجه، أو لعدم وجود موجهين عالمين بالخلفيات التاريخية، فإن الأمر يحتاج إلى وقفة وتفكير.

ولا أجدني مضطراً للتمثيل، إذ لا تكاد مدينة من المدن تسلم من ذلك إلا ما حماها الله.. ويدفعنا للإشارة إلى هذه النقطة حرصنا على الإبقاء على العلاقة التاريخية بين المكان والاسم الذي يطلق عليه، وفي هذا الصدد نقترح أن تقوم البلديات والأمانات بوضع كتب تسجل الأسماء القديمة والجديدة للأماكن، وبذلك تنحل بعض جوانب المشكلة..

وحثَّ الإسلام على أن يبر الآباء بالأبناء، وذلك بإحسان تربيتهم وإحسان تخير أمهاتهم، وانتقاء أسمائهم، بحيث لا يسمي ابنه باسم مخجل أو مثير للضحك، أو للازدراء أو باعث على التشاؤم.. والحديث (خير الأسماء ما عُبِّد أو حمِّد) وإن لم يصل إلى درجة الصحيح بلفظه، فإن معناه حسن متلائم مع عقيدة التوحيد. وإن مما يؤسف له في باب أعلام الأناسي استيراد الأسماء الأعجمية وبخاصة الإفرنجية منها وإطلاقها على أبنائنا وبناتنا، من أسماء للممثلين والممثلات، ولاعبي الرياضة، مثل سوزان، وشيرين، وجورج وجورجيت ومايك.. إلخ مستثقلين أسماء عريقة في العروبة مثل خديجة وزينب وفاطمة والجوهرة وشيخة وغيرها..

ومن العبث أيضاً إطلاق أسماء الميوعة واللاأخلاقية على بناتنا مثل: مائسة، فإنها أسماء لو طابقت مسمياتها لحصل شر كبير.

أما أسماء المحلات عندنا فحدث وعند ذلك وكلُّك خجل وحرج، فبعضها لا أخلاقي، وبعضها متصل بحضارات شركية أو رموز لأمجاد دول استعمارية.. إلى غير ذلك، وكأن تاريخنا العربي على طوله وأمجاده ضاق عليهم، فلم يجدوا ما يصلح منه في هذا الميدان.. إنه والله الشعور بالدونية، والرغبة في الذيلية والتبعية للأوروبيين، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلناه.

وعلى الجهات المسؤولة أن تضع معايير للتسميات البشرية والمكانية والتجارية والصناعية وكل ما يتصل بشخصية هذا البلد ومظاهر وجوده العربي المسلم السعودي، ولعل من أهم تلك المعايير:

١ - أن يكون الاسم عربياً خالصاً، أو معرباً، وذلك بالنسبة للآلات الحديثة والشركات الأجنبية (على أن يكتب اسمها الأجنبي بلغته الأصلية تحت الاسم المعرّب).

٢ - أن لا يخدش الحياء والأخلاق من قريب أو بعيد.

٣ - أن لا يمس عقيدتنا، فعشتروت وسميراميس وأشباههما هي أسماء آلهة آشورية، وبعضها تحمل قداسات فرعونية، أو ديانات أخرى معاصرة.

٤ - أن لا يكون مثيراً للازدراء أو مثيراً للضحك، وذلك كبعض الأسماء التي كانت أو لايزال بعضها شائعاً في بعض البيئات، فلا ينبغي لأحد أن يعمد إلى تسمية أحد أبنائه أو بناته بها لمجرد الرغبة في إحياء اسم آبائه وأجداده. فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم.

٥ - أن تحمل روحاً تفاؤلية، كبشير وزهرة، أو روحاً جمالية كوسيمة ووسيم، أو روحاً قوية مادية أو معنوية مثل: (وقّاص - صبّاح - أمين - فاطمة.. إلخ).

٦ - أن لا نسمح بتغيير معالم التاريخ إن كانت من أعلام الأماكن.

وبصفة عامة يمكننا أن نسهم بالمحافظة على هويتنا من خلال الحفاظ على أسمائنا ومسمياتنا، وأعلامنا ومعالمنا، فإن التسمي بما ليس عربياً مؤشر على

الإعجاب والانبهار وبالتالي نذير بالتبعية والتمزق، إذ السميُّ في اللغة: الشبيه والنظير. قال تعالى في سورة مريم/ آية ٦٥: ﴿**فاعبده واصطبر لعبادته، هل تعلمُ له سميًا**﴾.

وأن أول ما أطالب به أن يفرق أدباؤنا ورؤساء دوائرنا وأكاديميونا بين الأسماء والمسميات فيما يكتبون وينطقون، ثم ننتقل جميعاً للالتزام بالمعايير التي نحافظ بها على هويتنا أن تَنْماع.

فبالأسماء تعرف هوية الأمم وإليها تنتسب الشعوب، وفي المعجم: تسمَّى بالقوم أو إلى القوم: انتسب إليهم.

* * *

كلام عن الحرية[1]

(١)

● الحرية: مصدر صناعي، كالوطنية، والرهبانية، والأنانية ونحوها، مصنوعة من الصفة المشبهة حُرّ، على وزن (فُعْل)، ومثلها: حُلْو - مُرّ، وهو وزن قياسي يأتي من مصدر فَعُلَ اللازم.

● والفعل منها: حَرَّ يَحَرُّ، والمصدر: حَرَارٌ: خَلُص من الرِّق.

● والحُرُّ: الخالص من الشوائب. يقال: ذهبٌ حُرّ: أي لا نحاس فيه. وفرس حُرّ: كريم الأصل.

● ورجل حُرّ: أي كريم، ضد لئيم، يقول المتنبي (الديوان ٢:١١ شرح البرقوقي):

وما قتلَ الأحرار كالعفو عنهمُ ... ومَنْ لكَ بالحُرّ الذي يَحْفَظ اليدا

إذا أنت أكرمتَ الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمتَ اللئيم تمرّدا

قال البرقوقي حول البيت الأول: والحر هنا: الكريم، ضد اللئيم، يقول: إن العفو عن الكرام قتْلٌ لهم، فمن صفح عن حُرٍّ استرقّه بهذا الصفح، قال بعضهم:

غلّ يدًا مُطلِقُها ... واسترقّ رقبةً معتِقُها

(١) نشرت بصحيفة (الرياض) ١٤١٩هـ.

● والحُرُّ من الصقور: أكرمُها وأجودها عنصراً. والحُرّ من الأشياء أفضلُها، ومن البقْل: ما يؤكل غير مطبوخ. ومن القول أو الفعل: الحسنُ منه، يقال: هذا من حُرّ الكلام. وما هذا منك بحُرّ: أي بحسنٍ ولا جميل. والأحرُّ: الأحسن. والحُرُّ أيضاً: الجزء الظاهر من الوجه، ومن كلامهم: لطم حُرَّ وجهه. وساقُ حُرٍّ: ذكَرُ القماري.

والحُرّ: الخالص من الرق. قال شدّاد العبسي لولده عنترة في قصة شهيرة: كُرّ يا عنترة – وكان عنترة يتطلع إلى نيل حريته، فاغتنم الفرصة، وأجاب: العبد لا يحسن الكَرّ، وإنما يحسن الحلاب والصَرّ.! فقال له أبوه: كرّ وأنت حر.!

وانظر معي كم كانت تساوي هذه الحرية عند عنترة وقومه، ومن أيّة وهدة انتشلته، وإلى أيّ مقام رفعته.. ولكنه يظل في منطق المجتمع العربي محرَّراً، يحسب من أفراد القبيلة، ولكنه لا يتساوى مع الصُّرحاء والسادة الأعلَين، فالعبودية درجات، والحرية درجات.

ويُجمع الحرُ على أحرار، وأنثاه حُرّة، وتجمع على حرائر، وكثيراً ما وردت كلمة الحرائر في التاريخ والفقه وغيرهما في مقابلة الإماء. وحين بايع الرسول صلى الله عليه وسلم النساء بالمدينة على أمور منها أن لا يسرقن ولا يزنين، قالت هند بنت عتبة: أوتزني الحرة.! تعني الكريمة الأصل والفصل. وسحابة حُرّة: كثيرة المطر.

● والتحرير: يدور معناه حول التجويد والتدقيق والإحكام والتخليص والإعتاق. يقال: حرّر السيد العبد: أعتقه. وحرّر الولدَ: أفرده لطاعة الله وخدمة المسجد. وأخلصه لذلك، لا يشغله بشيء آخر، ومنه قوله تعالى على لسان امرأة عمران: ﴿**رب إني نذرتُ لك ما في بطني مُحرّرًا**﴾.

وحرّر الرمي: أحكمه. وحرّر الوزن: دقق فيه. وحرر الكتاب وغيره: أصلحه وجوّد خطه، وما كان يسمى بديوان الإنشاء قديماً يسمى الآن بقسم التحرير، حيث تُنشأ الكتابة وتُحكم وتدقّق ويجوّد ما فيها. وفي الصحف إدارة التحرير، وللأخبار في المذياع والتلفاز تحرير، وفي المدن الكبرى ميادين للحرية، وأخرى للتحرير، وفرق بين تحرير وتحرير، فقد كتب قاسم أمين في مصر كتاباً باسم (تحرير المرأة) ورد

عليه مصطفى صادق الرافعي بنقطة على الحاء فقط، فصارت (تجرير المرأة) أي إيقاعها في الجريرة أو الجرائر، وكتب بذلك مقالة في مجلة الرسالة آنذاك، ثم ضمها كتابُه (وحي القلم).

ومن طرائف النقط أن أحدهم ممن جاد خطه وعلمُه، وتأخر حظه وعملُه، مرّ على إدارة كبيرة كان يديرها زميلُه في الدراسة، والذي كان هو متفوقاً عليه، فأراد أن يمازحه، فكتب على ورقة (خطي أحسن من خطك) وأعطاها لفراشه أو ساعيه يدخلها عليه، فلما قرأها زميلُه عرفه من خطه، فتناول القلم وزحلق به النقطة من الخاء إلى الطاء، فصارت: حظِّي أحسن من حظك، ثم أمر الساعي أن يردّها له، فذهب ولم يعد، وترك الدنيا لأصحاب الحظوظ.

ومن معانيه تحرير الشعوب من الاستعمار وانعتاقها من قبضة الهيمنة الأجنبية، تبذل الشعوب من أجل ذلك أزكى دمائها وخيرة شبانها، وتضحي لتحقيق حريتها بأشياء كثيرة، نسميه نحن المسلمين جهاداً، ويسميه الآخرون كفاحاً ونضالاً، ونشاركهم في هذه التسمية، لكننا نعتقد أن إطلاق كلمة الجهاد من الخصوصيات التي يجب أن نحرص عليها. ويشير أحمد شوقي في قصيدته (عيد الجهاد) الديوان ٢٩/٤/ دار الكتاب العربي – بيروت/ مؤرخاً قصيدته في ١٣/١١/١٩٢٦م إلى هذا النوع من التحرير فيقول:

خطونا في الجهاد خُطىً فساحا ... وهادنَّا، ولم نُلقِ السلاحا
وأيامٍ كأجواف الليالي ... فقدن النَّجمَ والقمرَ اللِّياحا
قضيناها حيال الحرب نخشى ... بقاء الرِّق، أو نرجو السَّراحا

ويقول في قصيدته (نكبة دمشق)/ ٧٤/:

سلام من صبا بردى أرق ... ودمع لا يكفكفُ يا دمشقُ
سلي من راع غيدَك بعد وَهْنٍ ... أبين فؤاده والصخرِ فَرق؟
وللمستعمرين وإن ألانوا ... قلوبٌ كالحجارة، لا ترق
دم الثوار تعرفه فرنسا ... وتعلم أنه نور وحق

وحُرِّرت الشعوب على قناها ... فكيف على قناها تُستَرق.؟
وللأوطان في دم كل حرٍّ ... يدٌ سلفت، ودَينٌ مستحَقٌ
وللحرية الحمراء بابٌ ... بكلِّ يدٍ مضرَّجة يُدَقّ

ولكن الحرية التي يطالب بها إبراهيم ناجي مختلفة تماماً عن التي تحدث عنها شوقي، واليد غير اليد، والمعصم غير المعصم، فالجو عند ناجي هادئ ناعم لا دماء فيه، يقول ناجي في قصيدة (الأطلال/ ديوان ليالي القاهرة، الأعمال الكاملة/ دار العودة/ بيروت/ ص ١٣٧):

أعطني حريتي، أطلق يديْ ... إنني أعطيت ما استبقيت شي
آه من قيدك أدمى معصَميْ ... لمَ أبقيه، وما أبقى عليْ.؟
ما احتفاظي بعهود لم تَصنْها ... وإلامَ الأسْرُ والدنيا لديْ
ها أنا جفّتْ دموعي، فاعفُ عنها ... إنّها قبلك لم تُبذَل لحيْ

قد يخطئ قارئ متسرع، ويقول: إنه يسمع من أم كلثوم (يديّا - شيّا - معصميَّ - عليّا - لديّا)، ولكنه لا يتذكر أن أم كلثوم لا تغني البيت الرابع، ولا تستطيع إلا إذا غيرت حالته الإعرابية (لحيْ)، ولذا فإننا نقول: إن كتابتنا للأبيات هي الكتابة الصحيحة، وهي الموافقة للصورة التي كتبها بها الشاعر، والاعتذار مقدم للست أم كلثوم ومستمعيها الكرام.

ولكن هذا الشاعر ناجي ينقلب نسراً كاسراً عندما يدعوه داعي الوطن، وتحمر عنده الحرية، وتحمر أحداق عينيه وكل شيء حوله، فيقول بعنوان: (نحو المجد/ ص ٣٢٥) مخاطباً مصر:

يا أمُّ من تستصرخين.؟ من الذي ... قدحَ اللظى الموّار في عينيكِ.؟
يا أم هل تمشين نحو النار.؟ أم ... فُتح الوغَى، ومشى الجحيمُ إليكِ.؟
ما حل بالحرية الحمراء.؟ هل ... سال الدم القاني على قدميكِ.؟
يا ويلها من صرخة مجنونةٍ ... ضجّت لها الآفاق من شفتيك
لا تجزعي يوم الفداء، فكلنا ... مُهجٌ تُحلِّق كالنسور عليك

فتلفتي تجدي عرينك عامراً ... وتسمّعي، كم قائل: لبيك
وقف الشباب فداء محراب الحمى ... وتجمّع الأشبال بين يديك
والصقر تاجُك، تاج فرعون الذي ... جعل الشموس الزُّهر في كفيك
والمجد تاجك، والسهى لك موطن ... والشّهب والأقمار في نعليك
يا مصر أنت الكون والدنيا معاً ... وعظائم الأجيال في تاجيك

ولكن ناجي الذي ينجح كل النجاح في غزلياته وعاطفياته، يُخفق في هذه الأبيات الوطنية، فحين تبلغ أبياته في قصيدة (الأطلال) العشرات، لا تجاوز قصيدته هذه عشر أبيات هزيلات، وحين يحلق هناك، ويأتي بالصور الباهرة، والعبارات المجنحة يَخفِقُ هنا بأجنحة مستعارة، مهدودة الخوافي والقوادم، (فالوغى والنسور، والعرين، والأشبال، والسهى)، كلها من الشعر القديم، وحتى الحرية الحمراء هي بنت شوقي، ولا أستطيع أن أستوعب صورة السؤال: هل سالِ الدم القاني على قدميك.؟

وهل ذلك المشهد إن صح يدل على الانتصار أو الهزيمة.؟ وتذكّرني عبارة (تجدي عرينك عامراً) بالعبارة العامية (عرين الأسد ما يخْلاَ)، ولا أعلم كيف توصف الشموس بأنها زُهر، فالتناقض واضح بين الموصوف والصفة، وقد قلّبتها على كل الوجوه فلم أجد لها وجهاً، مع أنني من أنصار حرية الشاعر في ابتداع أوصافه، بل إن المتعة لا تحصل إلا بكسر السائد والمألوف من الأوصاف، ولا أحب أن نكرر دور النقاد القدامى في كم الأفواه، وسدّ النوافذ علي القرائح أن تأتي بجديد، ولكن هناك أمور – في اعتقادي – تتجاوز مدى القبول.

ولا عرفت ما الفرق بين الكون والدنيا، بالإضافة إلى أن العبارة تذكرني بالعبارة العامية (مصر أم الدنيا). وما قلناه لا يكسف من صور (اللظى الموار في عينيها، ومشى الجحيمُ إليها، والصرخة التي صُجّت لها الآفاق من شفتيها)، وفي الوقت نفسه لا ينسينا وهجُ هذه الصور، استخدامه الخاطئ لأم، إذ أن (أم) العاطفة لا تأتي بعد هل الاستفهامية، فالمكان لأَوْ. وإنما تأتي (أم) بعد الهمزة.

وكلنا تغنينا مع فنان الأمة العربية الكبير محمد عبدالوهاب أو استمعنا إليه وهو يغني:

أحب عيشة الحرية زيّ الطيور فوق الأغصان

وحول هذه الأغنية حصلت حادثةٌ صغيرة نذكرها على قاعدة أن الشيء بالشيء يذكر، في أوائل سنة ١٩٥٤م وفي برنامج (ما يطلبه المستمعون) من الإذاعة البريطانية، القسم العربي، قال المذيع ما معناه: وردت رسالة من المستمع فلان الفلاني من الجزائر يطلب أغنية (أحب عيشة الحرية)، ونعتذر عن تقديمها، ونقدم مكانها أغنية أخرى لمحمد عبدالوهاب هي: (أيها الراقدون تحت التراب).!

فاعتبرها الناس إذ ذاك رسالة مشفّرة إلى الشعب الجزائري كله تحثه علي الثورة، حيث كان الكفاح على اشده في المغرب وتونس، ولم تكن الثورة الجزائرية قد بدأت بعدُ.. ربما لم يخطر على بال ذلك المذيع شيء من ذلك، وربما خطر، لكن حالة التلقي هي التي خلقت المناخ الملائم لمثل هذا التفسير، وهذا يعني دائماً أن مراعاة المتلقي فيما نكتب أو نقول مهمة جداً، كما أن المتلقي عليه أن يتهيأ لما يقرأ أو يسمع، فإن لم يكن هذا ولا ذاك، مات النص بين المرسل والمتلقي، واختنق بسوء تعاملهما معه.

ويثير أطفال الحجارة في الكفاح الفلسطيني الشاعر المهجري زكي قنصل، في عامهم الأول، فيكتب قصيدة بعنوان (سداسية الوطن المحتل) التي بدأها بقوله:

أطلقْ رصاصك.. لا أخاف النارا إني أرد لك الرصاص حجارا
لا يُستردُّ الحق إلا عنوة ماذا إذا انتفض الهضيمُ وثارا.؟

ويعنون القصيدة الثالثة من هذه السداسية بـ (لن أجتدي حريّتي) ويبدؤها بقوله:

بحجارتي لا بالسلاح القاتل قررت أن الوي يمين الباطل

إلى أن يقول:

يا مهد والدتي، وموطن والدي ... إني اتخذت من الحجار قنابلي
لن أجتدي من غاصب حريتي ... أيمدُّ راحته فتى من وائل
إن نمتُ عن حقي فلا سلمتْ يدي ... ما حاجتي ليدٍ تصافح قاتلي

[الأعمال الكاملة ٣/٤٣١/ جدة/ عبدالمقصود خوجة]

ولزكي قنصل وأمثاله من شعراء المهجر وقفات وأي وقفات من قضايا العرب التحريرية، وشعره كله يقطر عروبة وإخلاصاً للتاريخ العربي الإسلامي المجيد، والواقع الأليم، ولكنه لا يترك لليأس مجالاً في نفسه وهو القائل في نكبة حزيران ١٩٦٧م:

كبَوْنا.. ولكن ما كبتْ عزماتُنا ... ولا مات نور في الجوانح هادِ
كبونا.. ولكن لم تُعفّر جباهنا ... ولم تتزعزع في النفوس مبادِي

وهو القائل أيضاً:

سأخنق جرحيَ بين الضلوع ... وأقسو على دمعي المسْبَل
وأحشد للثأر نارَ الجحيم ... وأركب متن القضا المنْزَل

وإلى لقاء آخر عن الحرية فإننا لم نشر إلا إلى جانب يسير من حرب التحرير السياسي، ولم نورد للشعراء السعوديين، علماً بأننا هنا لا نريد الاستقصاء، وإنما نكتفي من البحر بقطرة، ومن الزهرة بشيء من عبير.

* * *

كلام عن الحرية[1]

(٢)

في المقال السابق تحدثنا عن بعض المعاني اللغوية لمشتقات الحرية، في نطاق كرم الأصل وعتاقة النفس، والخلوص من شوائب الرق، وذلك على مستوى الأفراد والشعوب. ومن المعلوم أن الشريعة الإسلامية نشطت كثيراً في تحرير الأفراد، وتحرير الشعوب معاً. وبذلت الجهد الكبير المتواصل من أجل تخليص الإنسان من أسر الرق وربقة العبودية.

فأما الأفراد فقد ضيقت الشريعة الإسلامية أبواب الرق كل التضييق، وقلصت أسبابه، فبينما كانت طرقه لا تقل عن اثني عشر طريقاً، حصرها الإسلام في طرق قليلة جداً، منها الشراء، والإرث، والحرب، ومع ذلك فتح باب التحرير واسعاً، فجعل عقوبة بعض الاعتداءات على العبيد موجبة لتحريرهم، وندب إلى التحرير بصفة عامة **﴿فلا اقتحم العقبةَ، وما أدراك ما العقبةُ، فكُّ رقبةٍ، أو إطعامٌ في يوم ذي مسغبةٍ..﴾** والأحاديث النبوية مليئة بالدعوة إلى تحرير العبيد. وجعلَ الإسلام كفارة كثيرٍ من الذنوب والأخطاء تحرير الرقاب، واضعاً ذلك في المكان الأول بحيث لا يمكن التخلي عنه والانتقال إلى غيره إلا عند عدم الوجد، وذلك كما في كفارة القتل، قال تعالى في

---

(١) نشرت بصحيفة (الرياض) ١٤١٩هـ.

سورة النساء/ آية ٩٢: **﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خَطأ ومن قَتَلَ مؤمناً خطأً فتحريرُ رقبةٍ مؤمنة وديةٌ مسلّمةٌ إلى أهله إلا أن يَصّدّقوا، فإن كان من قوم عدوّ لكم وهو مؤمن فتحريرُ رقبةٍ مؤمنة. فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، توبةً من الله وكان الله عليماً حكيماً﴾**، وفي كفارة الظهار، قال تعالى في سورة المجادلة/ آية ٣: **﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحريرُ رقبة من قبل أن يتماسا﴾**، وجعله كفارةً على الخيار، وذلك في كفارة اليمين، قال تعالى في سورة المائدة/ آية ٨٩: **﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكمْ بما عقّدتم الايمان فكفارتُه إطعامُ عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكُمْ أو كسوتُهم أو تحرير رقبةٍ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام﴾**.

وجعل الإسلام من مصارف الزكاة الواجبة عتق الرقاب، من تحرير خالص أو إعانة على مكاتبة، قال تعالى في سورة التوبة/ آية ٦٠: **﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبُهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضةً من الله والله عليم حكيم﴾**.

والمدبَّرُون وأمهات الأولاد لا يجوز بيعهم ويعتقون بمجرد موت سيدهم. ولاحترام الإسلام للعلاقة بين السيد وعتيقه جعل الولاء لحمة كلحمة النسب، فالعلاقات القوية الوثيقة في الإسلام ثلاث هي النسب والزواج والولاء، وبهذه العلاقات الثلاث يقع الإرث، ولا يقع بأية علاقة أخرى.

وهناك آداب كثيرة حددها الإسلام في علاقة السيد بمن هم واقعون تحت رقه، مما يؤكد على إنسانية هؤلاء الأرقاء ويعطيهم الكثير من الحقوق، بل ويخفف عنهم في الأحكام الشرعية، ويحدد بعض مناشطهم التي لا يؤهلهم وضعهم للقيام بها.. وكثير من هؤلاء الأرقاء والمحررين نبغوا في العلوم والآداب، وخلد التاريخ أسماءهم على صفحاته. غير أنهم لم يكونوا جميعاً صالحين، بل كان منهم من تتبلد أحاسيسه ويسوء سلوكه، ويكثر كيده وفساده في المجتمع، وفي هؤلاء وأمثالهم قال المتنبي:

لا تشتر العبد إلا والعصا معه　　　إن العبيد لأنجاس مناكيد

وقال شاعر قبله احتذاه المتنبي:

العبدُ يقرَعُ بالعصا والحرُّ تكفيه الإشارةْ

وأما بالنسبة لاهتمام الإسلام بتحرير الشعوب واستنقاذهم من عبودية أنفسهم ورق وثنيتهم وربقة سادتهم العتاة ورؤسائهم الطغاة، فإن ذلك واضح جداً، وكل تحركات الإسلام مرتكزة عليه. فكلنا يعرف أحاديث الفتوح الإسلامية، وما صحبها من مفاخر وأمجاد في هذا الباب.. ومازال كلمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه حين تطاول ولده على رجل من الرعية وتعالى بدعوى أنه ابن الأكرمين: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً.؟)، إن هذه القولة تلخص الكثير من مقاصد الشريعة الإسلامية ومنهجها في تحقيق العدالة والمساواة، وما أجدرنا أن نتمثلها ونستحضرها في أذهاننا كلما هجست في داخلنا هواجس الشرّ والطغيان والاعتداء على حقوق الآخرين.. فالإسلام إذن هو دين الحرية، على المستوى الفردي والجماعي والدولي، وهو ضد التسلط ومصادرة الحريات بجميع أنواعها، والحرية هي الأصل، والناس إنما جاءوا من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم أحراراً، وفقدان تلك الحرية تشوّه في الإنسان يجب إزالته، وتنفيذاً لدعوة الإسلام الراشدة إلى تحرير الرقاب وعظم الإثابة عليه تحملتْ الدولة السعودية في عهد الملك فيصل رحمه الله كل التبعات المالية والقانونية المترتبة على تحرير ما تبقى من مظاهر الاسترقاق في المملكة العربية السعودية، إعلاناً منها عن الدخول في إطار العصر الحديث بكل معانيه ومغانيه، واستكمالاً لزعامتها الأصلية للإسلام والمسلمين.

(متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟).. جملة تستهوينا كثيراً، كما تستهوينا جمل وقواعد أخرى عامة وخاصة في الإسلام، وتنير أمامنا طريق الهدى وسبيل الرشاد.. لأنها تشجعنا على قول الحق وحمايته والذود عنه، وتعطينا الفرصة للتعبير عن ذواتنا، وممارسة طموحاتنا، وتحقيق وجودنا.. ولكن مع إيماننا ببريق الحرية وشوقنا الدائم لها، وسعينا الحثيث إليها، ومكابدتنا الشاقة من أجلها،

ومع كونها حلم الدول والأفراد والجماعات، وأمل الحاكم والمحكوم، فإنها على صعيد الواقع المعاصر تعاني من غبش كبير وعدم وضوح في الرؤيا يحق لنا معه أن نطرح سؤالاً في غاية الجهارة، وهو ما الحرية.؟ إن الولد ينشد الحرية، والزوجة تطالب بالحرية، والمرأة في كل موقع تنادي بالحرية، والشعوب ترفع صوتها وتصوغ أناشيدها المطالبة بالحرية، والحكام أيضاً يطالبون بالحرية، حتى تحولت الحرية/ الحلمُ المشرق الوضيءُ المغدق بالخصب والعطاء/ إلى سرابيل وأقنعة زائفة لخوض الظلم والباطل، يصح لنا معها أن نقول: إنها كلمة حق يراد بها باطل، كما يصح لنا أن نطالب بتحرير الحرية من بعض المفاهيم والممارسات الخاطئة، فما الحرية.؟

١ - الحرية أن تفعل ما تشاء، وتقول ما تشاء، في أي مكان تشاء، وفي أية مناسبة تشاء.! لا أحد يكم فاك، ولا أحد يحصي عليك أنفاسك ويرصد تحركاتك... ولا أحد يقول لك: ثلث الثلاثة كم.!

هذا كلام جميل جذاب، يغرينا بالوقوف معه والانتصار له بادئ الرأي، وذلك لما فيه من روح التمرد وكسر الأطواق والقيود، ولكن بعد التأمل والتعقل، نجده دعوة للفوضى والانحلال والبوهيمية. إنه إفساح المجال أمام ممارسة الذات في جميع حالاتها بطريقة حيوانية غير منضبطة ولا خاضعة للتعليم، وبالتالي نتصادم جميعاً ونحن نمارس حرياتنا المزعومة ونحيا حياة الغاب، وليس أحدنا بأولى من الآخر، بحيث قد لا تتحقق حريتي إلا بالاعتداء على حريتك والانتقاص منها، فيحصل التحارب والتفاني ويرتفع شعار: أنا ومن بعدي الطوفان، ولا أعتقد أن عاقلاً يحترم نفسه يقر هذا المفهوم للحرية، أو يوافق عليه، أو يساعد على ترسيخه في الأذهان. وعلينا جميعاً أن نراعي الآخرين ومصالحهم وحرياتهم ونحن نقول أو أحدنا: أنا حر، فالصحيح أنك حر ولكن..

٢ - الحرية أيضاً أن تمارس أقوالك وأفعالك غير مقيد بأمكنة أو أزمنة، لا أحد يحد من انطلاقنا أو ينغص علينا شهواتنا وملذاتنا، ما لم تصطدم حريتنا

بحرية الآخرين، فأنت تستطيع أن تغني وترقص في محل العبادة، لا يمنعك من ذلك أحد، إلا إذا اشمأز الآخرون من ذلك أو عكرت عليهم عبادتهم، وأنت تستطيع ممارسة الفاحشة أو تشرب الخمر، لا يقال لك إن هذا حرام أو حلال.؟ هذا ليس مشكلة.. إنما السؤال: هل لامست حريات الآخرين.؟ هل سببت لهم مضايقة ما.. يحكى في هذا الباب أن رجلاً وامرأة في بلد مّا يؤمن بهذا المفهوم للحرية، مارسا العملية الجنسية في الشارع العام، وعاقا بعمليتهما حركة المرور، بسبب كثرة المتفرجين.. فماذا فعلت الجهة المسؤولة.؟ عاقبتهما على تأثيرهما على حركة المرور وألزمتهما بدفع غرامة على ذلك، ولم تشر إلى ما زاولاه من أعمال الجنس، ولم يهمها ذلك في شيء، لأنه حرية شخصية، بغض النظر عن كونها زوجته أم لا.؟ فما أعظم إسلامنا الذي يعاقب على الحالتين.؟ ويرتفع بنا عن السوأتين.؟ وحتى أموالك لو بذرتها وعملت على إفسادها بدعوى أنك حرّ، حجر عليك الشارع الحكيم، واعتبرك سفيهاً غير صحيح التصرف.

إذن بمقتضى هذا المفهوم الغربي للحرية، تأخذ الحرية حالة نسبية، لا تمنع الاختلاف، وبالتالي لا تمنع التصادم والاعتداء على الحقوق والتقصير في الواجبات. فهي معول من معاول الهدم الأخلاقي الذي يسبب اندثار الحضارات. أما لماذا لم تندثر حضارة من يتبنون هذه المفاهيم، ويتلبسون هذه الحالات؟ فالجواب: إنهم في ترميم دائم بوسائل أخرى تشد من أزر حضارتهم وتمسكها أن تزول..

٣ - الحرية في إطار المفهوم الإسلامي تتمثل في النظرة الشاملة للحياة لأن العلاقات فيها بين الأفراد قائمة على مجموعة من الحقوق والواجبات، فكل فرد من أفراد المجتمع له حقوق وعليه واجبات، والواجب على كل منا أن يبدأ بأداء الواجبات التي عليه لا أن يطالب بالحقوق، لأن تلك الواجبات التي عليه هي حقوق للآخرين، فمن الطبيعي والحالة هذه أن تصله حقوقه بأداء الآخرين لواجباتهم تجاهه، وتصل الآخرين حقوقهم بأداء واجباته تجاههم، وهكذا.. ولكننا في واقعنا - مع الأسف - نعاني من الوضع المعكوس، وهو المطالبة بالحقوق قبل أداء الواجبات التي علينا، فالزوجان يطالب كل منهما بحقوقه وينسى الواجبات التي عليه للآخر، وكذلك الآباء

والأبناء، والمدير والمدار، والصانع وصاحب المصنع، والزارع وصاحب المزرعة، والمدرس والطالب، والمحكوم والحاكم، ولو أدرك كل منا الصواب، وأصلح الوضع بأن بدأ بأداء الواجب، لعشنا في خير وأمان، فأنت يحق لك أن تتكلم وتشترك في الرأي، وأنت تستحق المرتب والمكافأة - مثلاً - إذا أديت الواجبات التي عليك، ولكن لا يحق لك العبث بالمعتقدات والأخلاق والمقدّرات الوطنية والقومية اعتماداً على مفهومك الخاطئ للحرية، فالعلاقة بينك وبين مجتمعك علاقة واجبات وحقوق، فالحياة بين المسلمين حياة تكافل وتكامل، مثّلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالراكبين سفينة، يريد أحدهم بدعوى أنه حر، أن يخرقها .! أونتركه يفعل.؟ إن تركناه هلكنا جميعاً، وإن ضربنا على يده نجا ونجونا معه.! وفي داخل هذا الإطار تكون الحركة وتضمن الحريات الحقيقية، ليس من حقك الحرية المطلقة العابثة، وليس من حقك الحرية المحدودة بحرية الآخرين، بل إنك في إطار المفهوم الإسلامي للحرية تمسك عن أشياء وإن رضيها الناس، لأنها في ذاتها محرّمة داخلة في إطار (لا تفعل)، وتأتي أشياء وإن رفضها الآخرون لأنها في ذاتها واجبة الإتيان داخلة في إطار (افعل) مشمولة بقانون الواجبات والحقوق. ولا تكون (افعل) و(لا تفعل) حينئذ قيداً يضيق به الإنسان بل هو ارتقاء به وعروج، وتهذيب لغرائزه وهواه، وتأهيل له بأن يكون بحقٍّ خليفة الله في أرضه..

ولابد من الإشارة إلى أنه من خلال المفهوم الخاطئ للحرية حصلت كثير من التصدعات الاجتماعية والتوترات في العلاقات، ابتداء من الأسرة، وانتهاء بالحاكمية والمحكومية، والمخرج الصحيح في اعتقادي يتمثل في أن يعي كل منا حجمه الحقيقي ويحدد موقعه على أساس من المفهوم الإسلامي للحرية. فقد أعطى الإسلام للإنسان حرية العقيدة، فلا إكراه في الدين، أنت حر في أن تعتنق الإسلام أو لا تعتنقه، ولكنك لست حراً أن ترتد عنه بعد أن دخلت فيه، وعقابك إن لم ترجع بعد الاستتابة والإعذار، القتل.. وليس من حقك أن تخل بواجباته أو تتعدى حدوده ﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها**﴾، ومن تجاوزها نقص إيمانه بمقدار ذلك التجاوز، ووضع تحت طائلة السلطان، ولك حرية الكلمة، ولكن شريطة أن لا تكون نميمة أو غيبة أو

بذاءة ونحو ذلك مما يؤذي الآخرين أو يمس أعراضهم أويشهر بهم، ولا تكون إرجافاً وإشاعات تغتال هذا وذاك معنوياً، فإن عقوبة بعض هذه الأقوال الجلد، وبعضها القتل، وبعضها يلقيها صاحبها لا يلقي لها بالاً، فيهوي بها أربعين خريفاً في النار. أما إذا كانت الكلمة طيبة، معينة على الحق مسهمة في محاربة الظلم، وإماطة الأذى من طريق المسلمين، فإنه ليس لها جزاء إلا الجنة. قال تعالى في سورة إبراهيم/ آية ٢٤، ٢٥، ٢٦: **﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرةٍ طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكّرون، ومثَلُ كلمةٍ خبيثة كشجرةٍ خبيثة اجتُثّبت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾**. وبصفة عامة أنت تكمل الجماعة ولست متمرداً عليها، فيد الله على الجماعة، ومن شذّ شذ في النار.

الحرية ليست نزقاً ولا طيشاً واتباع شهوات ولا تقليداً للتقاليع الغربية أو الشرقية، وليست التفلت من القيود والالتزامات، تلك لعمري الحيوانية الوضيعة في أدنى صورها.. الحرية الحقيقية هي الوعي والمعرفة والحكمة، والالتزام داخل إطار الواجبات والحقوق، على أن تبدأ بأداء الواجبات قبل المطالبة بالحقوق. وللحديث بقية.!

* * *

كلام عن الحرية[1]

(٣)

ومن دعاوى الناس في حبهم للحرية إقامتهم تماثيل لها ومصورات مختلفة، لعل من أشهرها تمثال الحرية في نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية، أو إقامة نُصُبٍ للتحرير، يقدمون له باقات الزهور في المناسبات المختلفة، ويحيطونه أساساً بنباتات مزهرة مونقة، فإن فاتهم هذا أو ذاك اكتفوا بإقامة ميدان طويل عريض يحمل اسم الحرية أو التحرير، يقيمون فيه الاحتفالات بالأعياد الرسمية للدولة، والاحتفالات الشعبية، وفي هذه المناسبة أحب أن أشير إلى أن ما يقدم في أسلوب باقات من الزهر أو غيره إلى أنصاب الحرية أو إلى ما يُسمى بالجندي المجهول، هو في حقيقته ضرب من الوثنية المبطنة، دخيل على البلاد الإسلامية من بلاد وثنية، وهو عمل شِرْكي غير قابل للتأويل، ولا وجه فيه للقبول، ولا ينبغي فيه المجاملة، لا بالفعل ولا بالمرافقة، لأنه مناقض للإسلام، وليعذرنا جميع الأصدقاء وبخاصة إذا عرفوا الأصل الأول في عقديتنا، وهو توحيد الله بالعبادة، وترك كل ما من شأنه نقض ذلك التوحيد ومنافاته.. إننا نراهم ومن تبعهم يوفضون إلى تلك الأنصاب في ذلة وانكسار، كما يفعل عبدة الأوثان في حضرة آلهتهم التي يعبدون ويقدسون. ولقد حررنا ربُّنا من العبودية إلا له تعالى.

---

(١) نشرت بصحيفة (الرياض) ١٤١٩هـ.

والتحرير إنما يبدأ بالتحرّر من كل ألوان الوثنية، ويصدق الرغبة في تحرير الآخرين، لا في التظاهر الفج الذي نراه هنا وهناك، يذبحون الناس ويملأون بهم السجون، ويحتلون الممالك والشعوب ثم يشربون أنخاب الحرية ويرفعون شعاراتها ويرددون أناشيدها، ويوهمون الناس بأنهم حماتها والمدافعون عنها.

وقد فرق الرومانيون قديماً بين الرومانيين وغيرهم وسموهم بربراً، أي أجانب، وإن كانوا مقيمين في أراضيهم وأراضي آبائهم وأجدادهم، ومن هنا نجد في أنحاء متفرقة من العالم: (بربر – برابرة- بربارة – بربراية – بربير.. إلخ). مع ما ألصقوا بهذه الكلمة من معاني التخلف والهمجية والوحشية.

وفرق الأوروبيون في العصر الحديث بينهم وبين شعوب الأرض الأخرى فاحتلوا بلادهم ونهبوا خيراتهم واستعبدوهم عشرات السنين، وغزوهم عسكرياً واقتصادياً وثقافياً، ولم يسوُّوهم بأنفسهم، بل اعتبروهم أقل منزلة وأدنى درجة، وفرضوا عليهم أن تظل أسواقهم مفتوحة، وحرموهم من اقتناء كثير من وسائل الحياة السلمية والعسكرية. أما ألمانيا النازية فقد قسمت البشرية حسب نزعتها النازية التي مازالت إلى الآن تظهر وتختفي ورتبت البشر في قائمة أعلاها من يسري في عروقهم الدم الألماني، ولعل أعظم ما فيها هو إدراكهم لأدوار اليهود الدنيئة في العالم.

وتعالى اليهود من قديم واعتبروا أنفهسم أبناء الله وأحباءه. وتبعهم في ذلك بعض النصارى أيضاً، قال تعالى: (المائدة/ آية ١٨): ﴿**وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فلِمَ يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خَلَق يَغْفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير**﴾، علماً بأن الأصل أن النصارى أقل الناس معاداة للإسلام، قال تعالى (المائدة/ آية ٨٢): ﴿**لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون**﴾. وقال اليهود في تعالٍ وكبرياء: ﴿**ليس علينا في الأميين سبيل**﴾، ولم

يروا لغيرهم من الأميين شأناً أو مكانة بل هم يستحلون أموالهم ويستغلون ثرواتهم بالربا وغيره، ويعملون علي تدمير ملكهم وتلويث حياتهم، ثم ختموا كل ذلك باحتلال فلسطين، وأذلوا العرب ومايزالون أي إذلال.

وجاء دور أمريكا في العالم كله، وليس الأمر في حاجة إلى تعليق، وفرقت بين الأبيض والأسود، وبين العرب وإسرائيل، إلى غير ذلك من الجرائر التي لها أول وليس لها آخر.

ومايزال الجميع يلهج بالحرية والديمقراطية، وينصب نفسه مسؤولاً عنها في العالم، ويبكي أو يتباكى حين يجري خفرٌ لها هنا أو صدْعٌ لها هناك، أو يصطنع مواقف معينة تظهره بمظهر المنافح عن حرية الأقليات العرقية أو الدينية في بلاد الله ليجعل منها قميص عثمان، ويتخذ منها ذريعة لاغتصاب حقوق الناس جميعاً، على حد قول الشاعر اللبناني أديب إسحاق:

قتلُ امرئ في غابة جريمة لا تُغتفرْ
وقتل شعبٍ آمن مسألةٌ فيها نظر

وصدق هتلر حين قال: الحرية أو الحق في فم المدفع. هذا هو منطق الأقوياء في عالم اليوم، وبعضهم يصدق عليه قول القائل: (يقتل القتيل ويمشي في جنازته) والبعض الآخر يرى أن الدماء التي تجري في عروقه زرقاء تؤهله لاسترقاق غيره من ذوي الدماء الحمراء، لكن الإسلام علمنا: أن الناس سواسية كأسنان المشط. فسبحانك يا رحمن، حررنا من تسلط الإنسان، كما حررتنا من عبودية الأوثان وتسلط الشيطان.!

ولننتقل إلى ميدان آخر من ميادين التحرير، الذي قلنا: إنه يدور في عامته على التجويد والإحكام والتخليص من الشوائب، حيث تلتقي مع محرري الكتب والصحف والإذاعة والتلفاز والمشرفين علي الصفحات والأحاديث والبرامج، كمتحكمين في الكلمة ومجودين لها، أو حائلين بينها وبين الوصول للآخرين. فأقول

- والله المستعان - إن معظم الذين يقومون على أمر تصحيح الكتب والصحف في المطابع غير مؤهلين علمياً للقيام بوظائفهم وما يسند إليهم من أعمال، وبعض المشرفين علي التحرير يصدق عليه المثل العامي: (يجي يكحّلْها يعميها)، كما ينطبق عليه قول بعض الشعراء في المتشاعرين:

الشعر صعبٌ وطويل سلَّمُهْ ... إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلَّت به إلى الحضيض قدمُهْ ... يريد أن يعربه فيعجمُه

وقول الآخر:

والشعراء في الوجود أربعةْ ... فشاعر يجري ولا يُجْرَى معهْ
وشاعر يسبق وسط المعمعةْ ... وشاعر لا تشتهي أن تسمعه
وشاعر لا تستحي أن تصفعه

وقال المحررون في الإعراب ولغة الأعراب أقوالاً كثيرة مخجلة، منها: إنه لا حاجة إطلاقاً إلى الالتزام باللغة الفصيحة ولتكن العامية وسيلتنا في كل تحرير، فبدأت العامية تبسط نفوذها على الصحيفة والإذاعة والتلفاز وذلك قبل ظهور الصحيفة المتخصصة في العامية. وانظر إلى الفضائيات الخليجية تجدها مليئة باللهجة اللبنانية فالمصرية ثم التونسية، فإذا استعملت فضائياتنا في نشرات الأخبار العربية هشّمتها صرْفاً ونحواً، ولجأت تارة أخرى إلى التسكين داخل الكلمة، وفي آخر كل الكلمات، فجاءت لغتهم بريئة من كل اللغات واللهجات، بينما نجد الفرنسي يهتم بفرنسيته والإنجليزي يحرص على إنجليزيته، وكل الشعوب تفعل ذلك وتهتم به أيما اهتمام، وقد كنا نسمع أن المسؤولين عن الإذاعة قديماً كانوا يضعون متابعين لسلامة اللغة، يكتبون تقريرهم اليومي حول البرامج والمذيعين يومياً وعليها تحدد قيمة المذيعين فليت الإذاعة والتلفاز والصحف تعود اليوم إلى هذا النظام.!

ومن الغريب أن العرب الذين أكرمهم الله بالإسلام فحافظ على لغتهم، بجعلها

لغة للقرآن، واستمر وعاءً له وسيستمر إلى يوم الدين، يتخلون عن لغتهم، ويستهينون بها، بينما يهتم بها مسلم من غير العرب في باكستان أو جاكرتا أو الصين، إنه أمر عجيب يستدعي البكاء..

ويقول آخرون: إن المقصود هو توصيل الفكرة، فإذا وصلتك من أي طريق فذلك هو المطلوب، فلا تبحث بعد ذلك عن استقامة اللغة أو فسادها.

وآخرون قالوا: إن الحاسب الآلي في العصر الحديث تكفّل بوجود برامج مصحِّحة للغة فما عليك إلا أن تدخل النص المراد تصحيحه وبعد هنيهة يسيرة يأتيك الجواب.! قد يكون ذلك صحيحاً ولكن من يرشدك أنت إلى صحته أو صوابه.؟

وهوّن آخرون من شأن اللغة العربية والمدافعين عنها، على حد قول الحكيم: (من جهل شيئاً عاداه، وتعداه إلى ما عاداه)، ولأنهم علموا أن الاهتمام بالعربية، يظهر جهلهم وعدم أهليتهم لما يتمتعون به من رئاسات وإدارات، مع أن الموضوع هين جداً، ولا يحتاج إلا إلى دراسات ودورات، ولو طلب منهم ذلك في لغة أجنبية وتوقفت عليه شؤونهم لسعوا إليه ولو حبْوا، ولمضوا إليه طائرين.

وبعضهم يُدْخِل موضوعَ التحرر من قواعد اللغة العربية ضمن مطالبته بحرية الصحافة، وهو – أعني مطالبتهم بحرية الصحافة – مطلب جديد، ولكن في حاجة إلى تحديد، وإيضاح للمراد منه، وبيان مداه، وبصفة عامة أجدني مضطراً إلى الإحالة على حلقتنا الثانية من هذا المقال، حين حاولنا تحديد مفهوم الحرية، وخلصنا إلى أنها إنما يحصل التعالق معها في إطار الاضطلاع بالواجبات والاهتمام بالحقوق.. قالوا: إن أحدهم سأل الآخر في مناسبة صحافية عن رأيه في اللحم المشوي، وذلك في دولة من دول العالم الثالث المحكوم بالقوى العسكرية المتطرفة، فردّ المسؤول بثلاثة أسئلة: ما معنى لحم.! وما معنى مشوي.! وما معنى رأي.؟ وإنها كارثة وأية كارثة أن تصل الأمور بالناس إلى هذا الحد.! وإن أناساً ظنوا حرية الصحافة أن تشتم من تريد بما تريد دون رادع أو وازع، وآخرون فهموها أن تنشر كل فكرة تعنّ لك أو تقرأها أو تتبناها وتقتنع بها، دون رقيب.

وآخر تمثلها في الصور العارية والموضوعات المثيرة بما فيها الحديث عن الجنس، واللاأخلاق.. حقاً.. إن الصحافة أمر ضروري لاستمرار الحياة الطبيعية في أي بلد يحترم نفسه ويحترم مواطنيه، ومن هنا سموها: السلطة الرابعة (تشريعية + قضائية + تنفيذية + صحافة)، وسموها أيضاً صاحبة الجلالة، وذلك لما يجب لها من تقدير واحترام. قال شوقي:

لكل زمانٍ مضى آية   وآية هذا الزمان الصحفْ
لسان البلاد، ونبض العباد   وكهف الحقوق، وحرب الجنَفْ

وهي التي تنقل الرأي العام للمسؤولين، فتساعد بذلك على اتخاذ القرار الصائب، وهي عين وليّ الأمر على مسارات الحياة المختلفة، وخير من يتعاون معه على شرح وجهة نظره، وتهيئة الناس لمعرفة الحق من الباطل، فهي إذن على هذا الأساس لسان حال الدولة والمجتمع معاً، فكيف يحيد بها بعض الناس فيحولونها إلى وسيلة لتحقيق مآربهم الشخصية، ويبيعون من خلالها ضمائر الأمة فإذا نبههم الإعلام المسؤول على إحداث التوازن لصالح الأمة، اتخذوا تنبيهه ظهرياً، وتولت صحفهم مهاجرة إلى بلاد أوروبية، وقد كنا نسمع فيما قبل هجرة الأشخاص حين يضيقون بالحياة أو تضيق بهم البلاد، منذ عنترة حين قال:

حكِّمْ سيوفَك في رقاب العذَّلِ   وإذا نزلت بدار ذلٍّ فارحلِ
ماءُ الحياة بذلة كجهنمٍ   وجهنمٌ بالعز أطيبُ منزل

وقال غيره:

إذا أنكرتْني بلدةٌ أو أنكرتها   خرجت مع البازي عليَّ سوادْ

ولكن لم نسمع بهجرة الصحف إلا في هذا الزمان، ففي بريطانيا وحدها منها العشرات، نعم عرفنا قبلها صحافة المهجر الأمريكي، ولكن هجرتها كانت مقترنة بهجرة أصحابها، وعلى العموم فإن الذي يهمنا من الصحيفة أن تكون ممثِّلة لنا محقِّقة لأخلاقنا، ناشرةً بيننا الفكر والثقافة، مادّةً جسراً بيننا وبين المجتمعات

الأخرى في العالم، معبرة عن رأينا فيه، وقبل هذا وبعده ناقلةً لنا مراد وليّ الأمر معبرةً عن مرادنا منه، لتحقق من خلالها التعاون المطلوب في البناء والتطوير، ومطلوب أيضاً من الصحافيين، النزاهة والإخلاص للمهنة، والتجويد في اختيار الموضوع وطرحه، فقديماً قالوا: (ليس المهم أن تقول، ولكن لابد أن تعرف كيف تقول.!)، فالحرية حق للصحافة والصحافيين، لا يستحقونه إلا بعد أن تقوم الصحافة والصحافيون بواجباتهم، مما أشرنا إليه ومما لا يتسع المقام هنا لذكره.

وتعال معي بعد هذا إلى عبث الصحافة والصحافيين وإطلاق العنان لأنفسهم فيما يكتبون، وما يقبلونه للنشر وما لا يقبلونه، فهذا صديقهم وهذا ولي نعمتهم، وهذه جهة يريدون منها قضاء بعض المصالح، إلخ.. بالإضافة إلى إماتة بعض الموضوعات بعدم السماح بنشرها، بدعوى أنها لا يرضى عنها المسؤولون أوبعض الجهات، وفي الحقيقة لا شيء إلا الجبن والخوف مما لا خوف منه أوعدم رضاهم عن صاحب الموضوع.! ونحن مع الرأي الذي يرى وجود انسجام الصحيفة مع البيئة التي تعيش فيها، ولكن ينبغي أن لا يكون ذلك على حساب الفضيلة، والواجب، والضمير، فسددوا وقاربوا، وليكن نُصْب أعين الصحافة دائماً، خوف الله، وخدمةُ الوطن والمواطن، ودفنُ الفجوات بينه وبين الحاكمين.. ومن أطرف ما تتعرض له بعض منشوراتي، حذف جزء منها لتتناسب مع وضعها في مكان ما من الصحيفة، وقد يكون الحذف مؤثراً كل التأثير على المقالة كلها، والأدهى من هذا حين يكون المنشور قصيدة، حصل لي هذا مع مجلة محلية لا أحب الآن أن أذكر اسمها في قصيدة غزلية محافظة، وقلبت الأمر علي كل الوجوه، فلم أجد غير ما أشرت إليه من جعل المكان مناسباً للقصيدة، ولو على حساب تقطيع أوصالها.. أيُّ تحرير هذا وأيّ تجويد وأيّ إحكام يا أصحاب السعادة.؟

وفي الإذاعة مشرفون على الأحاديث والبرامج، وقد تعاملت مع الإذاعة منذ عهد طويل، وسعادة الأستاذ محمد المنصور يعرف هذا، منذ كان مديراً للأحاديث في إذاعة الرياض إلى أن صار مديراً عاماً لها ثم بحمد الله وكيلاً مساعداً في

وزارة الإعلام للشؤون الفنية للإذاعة، وأجدها فرصة سانحة لأحيي في هذا الرجل جهده وحيويته، ونشاطه ومثابرته في صمت وإيثار. ومن أطرف ما صادفني في ذلك من إذاعة جدة أن أحد مديري الأحاديث في فترة من الفترات، رفض إذاعة أحاديثي بعلة أنها متنوعة، (لغويّة + أدبية + إسلامية + فكرية)، وأن الجمهور يكره في المتحدث هذا التنوّع، ويؤثر أن يسمعه على وتيرة واحدة، واتصلتُ به هاتفيّاً، وناقشته حول الموضوع، فلم يقتنع بوجهة نظري، وشدّد على وجوب الالتزام برأيه، وامتعضت من ذلك كثيراً، لأنني أعتبر نفسي حرّاً في نوع أحاديثي مادمت ملتزماً بالجوانب الدينية والإدارية، بالإضافة إلى أن التنوع المذكور الذي أشرنا إليه داخل ضمن تخصصاتي بشهادات رسمية تؤهلني لذلك، واتصلت بمدير عام إذاعة جدة حينها، وهو الرجل الفاضل الأستاذ سليمان عبيد، فاعتذر لي بكل أدب عما حدث، وطلب مني الاستمرار في التعاون، فشكرته، وكان له ما أراده(١). بينما يتنطع بعض المحررين والمشرفين إلى درجة يميتون فيها بعض الأعمال، ويضايقون بعض الكاتبين والمتعاونين، ويتساهل آخرون إلى درجة تُقْرأ فيه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بل والآيات القرآنية الكريمة مصحّفة وبشكل خاطئ ملحون، بينما المذيع يتعنطز في نبراته، ويهتم ببسماته، وبكسرات ثوبه وشماغه في التلفاز، ومايزال أحد القراء بإذاعة القرآن وغيرها، واسمه (بدر حسين) يقلب الذال زاياً في بعض ما يقرأ، وتحديداً في سورة (البلد)، وتتكرر إذاعتها دون أن تلحظها أذن الرقيب الدقيقة.!(٢)

في الحقيقة يجب أن نتعاون جميعاً، وأن نمنح بعضنا مساحة من الحرية، وشيئاً من الإصغاء والمرونة، لكي نحقق التعاون فيما بيننا، ويكمّل بعضنا بعضاً، فالمؤمن مرآة أخيه.

وما أشد أن تتصادم الحريات، وتختلف العقول في مفهومها، فتشتد

---

(١) منذ نشر هذا المقال، والإذاعة - وبخاصة محطة جدة - تتخذ مني موقفاً عدائياً، فلم توافق، على أي برنامج مقدم مني.

(٢) علمت أنه تم إيقاف إذاعة قراءة هذا المقرئ، بعد نشر مقالي، فالحمد لله، والشكر للمسؤولين.

الصراعات وتقوم الحروب بين الأفراد والدول والجماعات باسم الدفاع عن الحرية، والمطالبة بالحرية.

وكـل يـدعـي وصـلاً بـلـيـلـى   ولـيـلـى لا تـقـرّ لـهـم بـذلِـكْ

وما أروع أن نضع في أذهاننا ونحن نفكر مساحةً فوق خشبة المسرح، مسرحِ الحياة، يقف عليها معنا الآخرون، وأن نتصرف دائماً داخل إطار الواجبات والحقوق، الذي يحفظ لكل منا حقوقه ويطالبه بالواجبات التي عليه، فيعيش الجميع في أمن ورغد ونضارة عيش... للحديث بقية.

* * *

كلام عن الحرية[1]

(٤)

وفي الشعر دعوة إلى التحرر من الشعر عندنا نحن العرب، وهي دعوة في غاية التطرف والحدة، غريبة المنحى، عجيبة الأطوار، إننا نؤمن بالتطوير المنبثق من رحم الأرض العربية، والحياة العربية، والمتفرع بطبيعته من الموسيقى العربية، أي التطوير الذي يبقى على بنوته للشعر العربي، والقيم الجمالية العربية، ولا يفقد سماته الأصلية، ولكن نرفض التطوير المشروط بالذوبان في الآخر، وإلغاء الهوية.. في مطلع العصر الحديث حين نشطت حركة الترجمة، قام بعضهم بترجمة شيء من الشعر الغربي إلى العربية، شعراً، فكان ذلك كأجمل ما تكون الترجمة، وترجمه بعضهم نثراً متماوجاً بشيء من الخيال. وقرأه الناس، فانخدع به بعض الشباب، وظنوه آخر تقليعة في الشعر، وركبوا الموجة.. وكتبوا كلاماً لا يمت إلى الشعر بسبب، وإنما هو نثر جميل تتوافر فيه فنيات عالمية، هم سموه شعراً منثوراً، وقصيدة نثر، ونسميه نثراً مشعوراً أو نثيرة.. كتب هذا النوع بعض المقتدرين فجاء كلامهم جميلاً، وكتبه آخرون عن ضعف وتقليد، فجاء كلامهم كلمات مقطعة مضحكة لا رابطة بينها، غير النقط الكثيرة، وركام متهالك من علامات الترقيم، من أمثال:

أيتها النجوم.. الشمس تتخبط في رحم الليل.

---

(١) نشرت بصحيفة (الرياض) ١٤١٩هـ.

تبحث عن كوكب صغير، جدُّ صغير..

يثغو في المجرة النائية.. المشرفة على البر الغربي.. في اللانهاية.

يتغوط في وجه العابرين..

هل تنفَّستِ لهاث النور المتمرد على الظلمة..

التي باتت تضاجع الأرق فوق سرير الغُلْمة

ويلقي بها الشبقُ الأحمر في الدروب..

وبصراحة أعجبني ما كتبه الأستاذ سمير عطا الله في أحد صباحاته بجريدة الشرق الأوسط، حين قال: (نشرت مطبوعة أدبية قبل أيام نتاجاً لمجموعة من الشعراء الجدد والحديثين معاً، فهفوت إليها أقرأ، وسوف أنقل بعض المقاطع والنماذج، علماً أن الاقتطاع قد يغير في المبنى أو المعنى، لكن ليطمئن قلبكم، لن يتغيرِ شيء، تقول شاعرة حديثة:

اصحو مبكرة جدّاً..

افرك عيني..

امي كانت طيبة.

لكنها ماتت دون أن تستأذن مني.

وابي مزق أشعاري

ايضاً من دون أن يستأذن مني (...)

والولد انتقم منه الله. فاصبح بديناً جدّاً

بكرشٍ يمتد امامه بمسافة تحول بيننا).

قلت: أترون إلى أي مدى يتسخّفُ الكلام ويقلّ حياؤه.؟ أنا واثق أن ناكداً أو نويقداً ستشرئب بعض نوازعه حين يقرأ هذا الكلام لمجرد كون الكاتبة امرأة، فيستل أقلامه للكتابة عن الفن والإبداع الكامن تحت كل حرف ووراء كل نقطة من هذه

المكتوبة، وبخاصة جملة (بكرش يمتد أمامه بمسافة تحول بيننا).. إنه أيها السادة ناكت، ينت كل ما في المكحلة.

ويسترسل السمير فيقول: (ويقول شاعر آخر:

حين يعود هؤلاء إلى منازلهم

سيمتنع الأزواج عن معاشرة زوجاتهم

ويحترفون البكاء.

ويقول آخر:

إننا متأسفون يا عم

هكذا نحاول أن نعتذر إليه الآن

بعدما أدركْنا

أنّه كان يريدنا أن نكره الحرب

لكنه للأسف

لم يعد يتذكر أي شيء

بل صار يخلط

بين الحرب والحلوى).

قلت: عفواً أيها السادة، يمكنكم أن تكتبوا رسائلكم وخطاباتكم الإدارية على هذا النحو، لتتحولوا جميعكم إلى شعراء، ولنكتب صحفنا وإعلاناتنا بجميع موضوعاتها لتصبح كلها شعراً.. وما هكذا تورد الإبل يا سعد. (وبالطبع لا أقصد سعد الحميدين بصفته مشرفاً ثقافياً ولا سعد البازعي بصفته ناقداً، ولا سعد الهمزاني بصفته شاعراً.. قف.. للأهمية). قال الشاعر القديم:

وحدّثتني يا سعد عنه، فزدتني

شجوناً، فزدني من حديثك يا سعدُ.!

ويقول السمير: (إليكم نموذجاً شعرياً حديثاً آخر:

سأترك لكم نيلي وأهرب

نحو روحي التي في الأفق

لأنني في طريقي إليها

سينمو لي ذيل جديد

وللشاعر نفسه:

أيها المشتكي وما بك داء

لقد أكسبتْنا الفنونُ المعاصرة

حواسٌ فوق المكان والزمان

وفي قصيدة حديثة أخرى:

تسأله عن لون عين الفتاة التي مرت أمس

وتصغي إلى تنفسه

وتحولات لون الجاكيت الذي امتص أنواع عطورٍ

عديدة

ثم يعقب سمير عطا الله على ما أورده من نماذج بقوله: (نلاحظ هنا في تطورات الحداثة الشعرية أن كلمة (عديدة) هي الصدر والعجز والقافية معاً (لم أفهم ما يريد بهذه العبارة) أما لماذا؟ فيتوجب علينا أن نعرف وأن نحاول إدراك ما كان يمكن أن يرد بعدها من شعر أو من حبر، أو من هدْرٍ للوقت والورق. طبعاً نحن في زمن حر، وشعر حر. أي أن للسادة من الشاعرين حرية أن يكتبوا ما يشاءون: (لقد ماتت الحبيبة بعد مائة قرص من الفاليوم)، ولك مطلق الحرية في أن تقرأ، أو أن تختبئ في ظل ورقة كتب عليها شيء يفهم ويقرأ أو يستساغ).

قلت: والغريب أنه كلما كانت الكلمات أشد تدابراً وتناقضاً ارتقت في نظرهم

مكتوباتهم، واعتبروها من علامات العبقرية والتميز والريادة.. ولذلك فإن أهم أوقات كتابة مثل هذا الكلام أن يكون كاتبه حين كتابته مهشماً من الداخل، مكسرة كل خلاياه النفسية، كأن يكون عقب صحو من نوم ذي كوابيس، مكفهر الوجه، لم يشرب قهوته ولا سيجارته بعد، ولم تستقر أجزاؤه المتهالكة أو المصطرعة في أماكنها. لينطلق النص الإبداعي من مستودعاته الغجرية والمخازن البكر التي لم يمسسها قبلهم إنس ولا جان. إن نوعاً من التأله يتلبسهم وتتخبطهم به شياطينهم الشعرية واللاشعرية، والشعورية واللاشعورية، فينثال الكلام على ألسنتهم هذياناً مرعباً، وينطلق من أفواههم كصرخات طرزان وردود فعل (شيتا). وبالمناسبة فإن الأستاذ عبدالله الشيتي من أقسى الناس سخرية بمثل هذا الكلام المتشعّر الذي يسميه أصحابه شعراً حرًا. ولا يخففه غير كونه صادراً من رجل صِحافي يعبر عن ذوقه الخاص، وليس بأديب ولا متخصص في دراسة الأدب. قال الشيتي في إحدى جلسات (الجنادرية):

كانت نملة

والنملة صارت نحلة

والنحلة صارت نخلة

آه دجلة.!

وبرغم أن هذا النص موزون فإن الشيتي كان يمثل للامعنى وللعبثية التي وصل إليها بعض كتاب الشعر الحديث، غير أنه انبرى أحدهم بدافع إحراج الشيتي إلى تحليل هذا النص الصغير، ليصنع منه كلاماً كثيراً، ويكشف عن معطيات دلالية وإيحائية لبنيته اللغوية، مشيراً إلى التحولات الناجمة من النملة الحشرة، إلى النحلة المعسّلة، إلى النخلة المثمرة، إلى الماء في دجلة، ثم ربطها بالهم العربي الذي تمثل في حرب الخليج، ولاحظَ التماثل الظاهر بين الألفاظ الواقع بها التقفية في صيغتها الصرفية، والتجانس الحرفي، والتسلسل من ا لميم المقفلة إلى حاء منفتحة إلى خاء منقوطة ثم جيم، إنه تشابه ظاهري سطحي لا يركن إليه، لأن معاني الكلمات مع وجود هذا التشابه، مختلفة، وذلك يمثل الوضع بين الأقطار العربية، وأفراد المجتمع

فنحن في حاجة إلى تكامل وتلاحم أكثر، وقال، وقال.! ولكن هل هذا الاستعراض النقدي يبرر أو يسوغ قبول أمثال هذا النص المصنوع أو المتصنّع.؟ في اعتقادي لا يمكن أن نقبل الهدم لجميع عناصر الماضي ومظلاته ووسائله، والوقوف عراةً على قارعة الطريق نستجدي كساء أو وطاء من صوان الآخرين. إن الاعتصام بالذات والخصوصيات لا التقوقع والانعزال هو المرتكز الآمن والبداية الصحيحة للتطوير، يجب علينا الاستجابة لدواعي العصر ومتغيراته لكن دون تفريط في خصائصنا، يجب أن أقف في كل الميادين الكونية علمياً وفنياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً، عربياً مسلماً، بكل سماتي وخصائصي، وتاريخي وجغرافيتي، بكل طموحاتي وآمالي، متثاقفاً مع الغير متواصلاً معه معرفياً، متعاوناً معه في دفع عجلة الحياة إلى الأمام، وفي داخلي يهتف أبي وجدِّي، ويتغنَّى أبنائي وأحفادي، في عرس كوني لا تعاليَ ولا إلغاءَ فيه.

وقبل أن أغادر أو (أدلف إلى أي داهية) يريدها لي المحنقون، أحب أن أقول: إن بعض النثائر التي يكتبها أصحابها تحت مظلة النثر المشعور، هي من أرقى الأساليب وأروعها، وهي مليئة شعريةً، ولكنها ليست بشعر، بل هي نثر كالشعر، أو أجمل حتى من بعض ما ينتسب إلي الشعر بأوزانه وقوافيه.. كل ذلك كائن، ولكن يتقارب الرجال والنساء في المشارب وقد يتطابقون في الثقافات، وفي الإنسانيات، ولكن جمال الحياة أن يظل الرجل رجلاً والمرأة امرأة، وإلا فعلى الدنيا السلام..

* * *

الالتزام وأثره في تحديد علاقتنا بالآخرين(١)

● في إمكان المرء أن يعيش في هذه الحياة منفصلاً عما حوله، هائماً على وجهه، لا يرتبط بشيء ارتباطاً حميماً إلا بمقدار ما يحقق رغباته ويشبع أهواءه، ثم يتركه إلى شيء آخر، أو حتى للاشيء، ذلك هو موقفه من الأشياء والآراء والأفكار والناس، لا يتحمس لمبدإ معيّن، ولا ينافح عن فكر خاص، بل هو كل يوم بوجه وكل آن بقناع، ينطبق عليه قول الشاعر:

كريشة في مهب الريح طائرة … لا تستقر على حال من القلق

إذا انتمى الناس إلى شعب أو إلى أمة أو دين أو فكر، فهو لا ينتمي إلى شيء محدد من ذلك، ولا يتعب نفسه في تحمل مغبّة الانتماء، وما يضيفه لحياته من مسؤوليات، ذلك أن الانتماء الصادق يلقي على عاتق صاحبه أعباءً، وينوط به واجبات متواصلة. وهذا اللامنتمي على أساس هذا المفهوم، شخص يعيش لنفسه فقط، وقد قيل: (**ما استحق الحياة من يعيش لنفسه فقط**)، وبعضهم يعيش بنصف انتماء، على طريقة (**يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض**) فيسعدون ويشقون على قدر درجات ذلك الانتماء أو الانسلاخ منه، ويحسون بالعبث أو الجدوى على حسب ذلك الارتباط أيضاً أو الانفصال.

وهؤلاء اللامنتمون لا يلتزمون بشيء تجاه أسرتهم أو وطنهم أو مجتمعهم، يأخذون كل شيء ولا يقدمون شيئاً، فويل للبلاد منهم.! وقبل أن نترك الحديث عن

---

(١) نشرت بصحيفة (الرياض) ١٤١٩هـ.

هذا النوع من الناس، يجدر بنا أن نتساءل بشجاعة عن أسباب ظهورهم في المجتمعات، هل يكون بالعدوى والتقليد.؟ أو أن هناك أسباباً وراثية أو تربوية، متصلة بهذا المحتوى الفكري أو ذاك.؟ في اعتقادي أن ظهورهم لا يمكن أن يرجع إلى سبب واحد، وإنما هو راجع إلى جملة من الأسباب الظاهرة والخفية، فلنقف وقفة تأمل، ولنلق نظرة فاحصة إلى شبابنا لنعمل متكاتفين على وقايته من الوقوع في أوحال هذا الداء العضال وجرائره. وحينما أقول الشباب لا أعني أن الكهول خلو من هذا الداء، بل لأن الشباب هم المستقبل، وهم أمل الأمة الآتي.!

● وهناك فريق من الناس قد تحملهم الظروف على الانتماء وتلزمهم به، فهم ملزَمون لا ملتزِمون، وفرق كبير بين الإلزام والالتزام، وهؤلاء في الغالبية يمثلون القطاع المنافق في المجتمع، ذا الوجهين، قد يصلحه طول الممارسة والتعود، وذلك إذا أحسنت الجهة المسؤولة عنه توجيهه والإشراف عليه، وتسديد خطاه، حيث ينتقل من حالة التخلخل والتردد، إلى حالة الوجه الواحد والصدق في الانتماء، والالتزام بما يتلقاه من أفكار وآراء، ولهذا فإن التوعية والإقناع، والتبشير بالقيم والمبادئ والأفكار بين أفراد هذا الفريق تكون من أنجع السبل وأجدى الوسائل في الهيمنة على سلوكياته، وتوجيهها التوجيه المثمر البنّاء. ولابد من وجود القوة التي تَأْطُر الناشزين بعد ذلك، وتعينهم على ضعفهم، وتجبر قصورهم، فإن النفوس الضعيفة لا تدين للحق إلا بشيء من القسر والإكراه والإلزام. وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

● والفريق الثالث من الناس هم الملتزمون الذين يتصرفون من خلال إيمانهم بالقيم عن اقتناع وصدق انتماء، المرتبطون في تفكيرهم وسلوكهم ببيئتهم وأوطانهم وعقائدهم، لم يلزمهم بذلك أحد من الخارج، ولا يخضعون لموجه أو رقيب، وهؤلاء هم الذين ينطبق عليهم (**فطوبى للغرباء**)، و(**القابض على دينه كالقابض على الجمر**)، و(**لاتزال طائفة من أمتي على الحق - أو على الغرب - لا يضرهم من خالفهم**)، وغير ذلك من النصوص الدالة على الثبات وصدق الانتماء، وبخاصة عندما تظلم

الطرق وتشتعل نيران الفتن، وتختلط الأوراق. (**لا تكن إمّعة تقول: إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساؤوا أسأت**).

● في صيف سنة ١٩٥٨ مسيحية، كنت بالقاهرة، وفيها لقيت أحد المثقفين الملتزمين، الذي تعلمت منه درساً لن أنساه ما حييت، واسمه: محمد البشير العُرَيْبي كنا جالسين على النيل صحبة صديق ثالث، نستمتع بمنظره الجميل، ونقرقز بعض الأشعار من حفظنا، وبعضها من إنشائنا، حسب ما يعنّ لنا من الطبيعة الناطقة والصامتة، ولما فَتَرنا وتعبنا، اقترحت عليهما أن يصحباني إلى السينما على حسابي، في دعوة أخوية بريئة، وفوجئت من ذلك المثقف العربي الأصيل، وكان من أساتذة جامع الزيتونة بتونس جاء لزيارة القاهرة أيضاً، فوجئت بالرفض، ولما أبديت استغرابي أجاب بكل هدوء: إنني منذ سنة ١٩٤٨ مسيحية لم أدخل السينما أو (دار الخيّالة) ولم أدخن سيجارة واحدة - مع أنني كنت من المدمنين على التدخين - أتدري لماذا.؟ لأن كلاً من الدخان والسينما من الصناعات العالمية اليهودية التي نذرتُ على نفسي أن أقاطعها جميعاً مادمت حياً، ومادام الصهاينة بفلسطين. فقلت: وهل تعتقد أن موقفك هذا سيؤثر في حل القضية.؟ وأنت فرد واحد من أمة تعد بالملايين.؟ فقال: إنه موقف ألتزم به، وهو أضعف الإيمان، وفي اعتقادي لو فعل كل فرد من أمة الملايين ما فعلت لانهارت مصالح الأعداء، ولجاءوا صاغرين، ولكن اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.!

● وفكرت بعد ذلك في موقفه هذا، وفي كلماته، وفي نوع التزامه، ولا أكتمكم أن كل ذلك مازال يثيرني، ولكنه بقدر ما كان يثير في داخلي من إعجاب، كنت أتمنى أن يكون أكثر إيجابية، فلا نريد أن تؤدي بنا مواقف المقاطعة الفردية أو الجماعية إلى التقوقع، ولا نود أن تؤدي بنا مواقف المجاملة أو اللامبالاة إلى أن نتحول إلى مسهمين في تخريب ديارنا بأيدينا وأيدي أعدائنا، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار، فمثلاً فيلم (**الحصار**) الذي أنتجته هوليود مؤخراً، والذي يستهدف تشويه الجالية الإسلامية والعربية في أمريكا، وفيلم (**الطريق إلى الجنة**) الذي يقدم مشهداً للصلاة على خلفية تفجير مركز التجارة العالمي بنيويورك، وفيلم (**قرار تنفيذي**) الذي بثته

قناة (**إي بي سي**) الأمريكية الواسعة الانتشار، الذي أنتجته مؤسسة (**وارنر بروس**) العريقة في الإنتاج، يظهر الفيلم مجموعة من العرب يحملون القرآن، يختطفون طائرة لتدمير واشنطن بقنابل غاز الخردل، إلى غير ذلك من الأفلام.

في اعتقادي أنه لابد من اتخاذ موقف يكون - مثلاً - في حظر التعامل مع الشركات التي أنتجت هذه الأفلام، إلا في الحيز الضيق جداً، والذي تلجئنا إليه الحاجة والضرورة، ﴿**وإن خفتم عَيْلَة فسوف يغنيكم الله من فضله**﴾، ويتمثل الموقف في السعي أن يكون لنا إنتاجنا الخاص وصناعتنا السينمائية العربية والإسلامية، وأن نحاول بجد وتصميم تجاوز دور المستهلك إلى دور المنتج، ومن التبعية المخجلة إلي الندّية المشرّفة، أما البكاء والتباكي على ما تتعرض له مؤسساتنا وقيمنا من انتهاكات وإهانات فإنه شيء مخجل لا يفعله سوى الضعفاء والسخفاء والمتخاذلين، ومن لا يحترمون أنفسهم وأوطانهم وقيمهم.

● هناك أمور كثيرة تأتينا من الغرب والشرق، ولا تتوافق مع قيمنا وعقائدنا، يجب أن نقابلها بالرفض والمقاطعة، وذلك كبعض البضائع والسلع التي لها صلة مباشرة بأعدائنا، وبعض الأسفار التي تشجع اقتصاد أعدائنا، إن علينا واجبات دينية ووطنية وقومية تملي علينا الالتزام، وتتطلب منا أن نكون صادقين مع أنفسنا مخلصين لكل انتماءاتنا، فإن الانتماءات الصادقة لا تتصادم ولا تتناقض، بل تتآزر وتتضافر، لتتحول إلى طاقة قوية موحدة، تدفع بقطار الحياة إلى الأمام، ولا تحتقرن صغيراً تقدمه في مجال الانتماء والالتزام، فغاندي لم يخرج الإنجليز من الهند بالرصاص والمتفجرات، وإنما بالمقاطعة والاستغناء، أي بالالتزام، وفي الإسلام نقاطع بعض أصحاب الرذائل والموبقات ونعزلهم اجتماعياً، لنعيدهم إلى الجادة، ولنرسل من خلالهم رسائل للآخرين من ضعاف النفوس، أن قفوا مكانكم، فلا تفسدوا علينا حياتنا، إن طرد الضعف والخور والتخلف، ومحاربة المخدرات والرذائل، والوقوف ضد موجبات دمارنا تتمثل في صمودنا الداخلي، وتغيير ما في نفوسنا وانعكاس ذلك على سلوكنا بشكل ملتزم، ﴿**إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم**﴾، وهذا يدعو إلى أن نكون على قدر من الوعي بما يجري حولنا،

والإلمام بما لنا وما علينا، وتحديد موقعنا من العالم ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً. وهو بدوره يدعونا إلى أن نتسلح بثقافة واسعة شاملة متفاعلة مع غيرها من الثقافات، وواضعة في حسبانها كل التحركات الثقافية الأخرى في العالم، حتى يكون قرار الالتزام قراراً حصيفاً وإيجابياً وفاعلاً، فإن الانكفاء على الذات، وادعاء الصوابية المطلقة فيما يمكن فيه اختلاف آراء البشر، لهو أمر بالغ الخطورة مفض إلى الهاوية، مؤد إلي التخلف والبوار.

والخلاصة نحن نتطلع إلى جيل مرتبط بأمجاده وموروثاته وأرضه، وقبل ذلك قيمه وعقائده وأخلاقياته، يعرف ما له وما عليه، ملتزم بالوفاء بارتباطاته، مؤسس على ذلك كل علاقاته، تأسيساً يحكم جميع حركاته وسكناته، جيل يكون بعيد الطموحات، صادق الانتماءات، يبذل كل ما في وسعه للرقي بنفسه والنهوض ببلده، والسمو بأمته إلى الآفاق اللامحدودة التي تعيد لها إمامة الكون وقيادة البشر ومسؤولته الإنسانية.



الشباب والفراغ[1]

قال الشاعر القديم:

إن الـشـبـاب والـفـراغ والجِـدة مـفـسـدةٌ لـلـمـرء أيّ مـفـسـده

وهذا يعني في مفهوم هذا الشاعر، أنه إذا توافر للشباب الزمن الزائد عن حاجته، والمال الكاثر الفائض عن متطلباته، جنح وارتكس، ومال إلى البحث عن ميادين يذبح فيها ذلك الزمن أو يقطعه، أو يقضيه، وألقاه في قبضة الضياع، ليبحث مرة أخرى عن مصارف أو مشافط لذلك الفائض من الأموال، حيث تنتهي كل كمالياته، وتشبع كل رغباته المشروعة، ليتطلع بعدها إلى العبث، وربما إلى الفساد، أو إلي التدمير، تدمير نفسه، وتدمير ما حوله من محتويات أو محسوسات، وقد أشارت النصوص القرآنية والحديثية إلى أثر الترف والبطر في تدمير الحضارات وبوار الشعوب، وتدهو المدنيات تلك سنة كونية لا مفر منها إلا بتحاشي أسبابها، وإزالة الفتيل، أما الاكتفاء بالتفرج أو تركيم الدراسات على الرفوف، وتجميع الآراء في الصحف، أما الدعاء أن يعطّل الله تأثير الأسباب فلا تأتي بثوابت نتائجها، فإنه لا يغني في حل القضية شيئاً. قال تعالى: **﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرْنا مُتْرفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾** الإسراء/ آية ١٦، وقال: **﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها، فتلك مساكنهم لم تُسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين﴾** القصص/ آية ٥٨، **﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾**

---

(١) نشرت بصحيفة (البلاد) ١٤١٩هـ.

الأنفال/ آية ٢٥، إلى غير ذلك من الآيات الكريمات. وكذلك تحدث القرآن عن علاقتنا الحميمة بالزمن، وأن من عرف قيمته، وأحسن استثماره، فاز بخير الدنيا والآخرة، ومن أضاعه وبعثره، ولم يحسن الإفادة منه، كانت عاقبته الدمار والهلاك، ينطبق ذلك على الأفراد والجماعات، والدول والشعوب.

والموضوع المطروح: الشباب، وترديه في حمأة التقليعات الغربية، ومن شأن شبابنا، وقد توافر له الزمان والمال دون ترشيد كاف ودون تزويد ذاتي بطرق التعامل مع هذين العنصرين من عناصر الحياة، من شأنه والحالة هذه، أن ينحرف مع أول ناعق، وأن يستجيب لأول يد تجره إلى الهوس، وتدغدغ منه مواقع التعبير عن الذات، وبغض النظر عن كون هذا التعبير خاطئاً أم مصيباً، إن الشباب طاقة كبرى، تنشد مجالات التعبير، وعلينا نحن تقع مسؤولية الترشيد والتزويد، وبخاصة أن المؤثرات الخارجية تغزونا في عقر دارنا، ولا يمكن الاحتماء منها مهما حاولنا، كما يتوهم بعض الناس، وإنما نحن نقلل من أخطارها، ونقلم الكثير من أضرارها، إنها بلا شك خطر داهم، ووبال عظيم، فهل حددنا موقعنا منها.؟ أعني الآباء والمربين، والمسؤولين، هل أعددْنا استراتيجياتنا التربوية والتعليمية والتوجيهية والإعلامية، والأسرية، والاجتماعية إلى آخر القائمة؟ أو مازلنا نسلك سبيل التقوقع، والتجاهل، ونركب للشباب الموجات الصدامية، والقهرية؟.

لقد أنشأت الدولة ممثلة في رعاية الشباب، الأندية الرياضية والأندية الأدبية، وجمعية الثقافة والفنون، وغيرها، ولكن كيف تسير الأمور في تلك المؤسسات، هل استطاعت أن تستقطب الشباب. أعلم أن تلك المؤسسات بذلت وتبذل جهوداً كبيرة في ذلك، ولكن لنقم بدراسة حول فشلنا في استقطابهم، ولنكن دائماً على استعداد أن نبحث عنهم ونتلاءم معهم، ونصنع منهم الجيل الصالح، ولْتعمل هذه المؤسسات متعاونة مع الإعلام والمدرسة والبيت، من أجل هؤلاء الشباب. إن من أكبر الأخطاء التي نرتكبها جميعاً، هو عدم التنسيق. إن الجهود الكبيرة تتشرذم وتتضاءل، إذا لم تكن منسقة، وليشمل التنسيق أيضاً جهات أخرى مسؤولة عن الترشيد والنهي والأمر، وإلا فإن شبابنا يهوي بحق إلى مهاوي الضياع، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولابد أن يعي كبارنا قبل شبابنا قيمة الزمن فلا نفنيه في العبث ولا نصرفه إلا في البناء، فنحن المسلمين، ونحن في هذا البلد، في حاجة إلى تكثيف الزمن وتفعيله، لا لنلحق بالركب فقط، بل لنحتل منه مكان القيادة، فنحقق بذلك فينا إرادة الله وطموحَ قادتنا الميامين. إن الزمن هو أكبر رأس مال هيأه الله للإنسان؛ يجب استثماره والحفاظ عليه، والإنفاق منه بحساب.

ولابد أن يعي كبارنا أيضاً قبل شبابنا قيمة ما لديهم من مال، فلا يبذرونه ولا يصرفونه إلا في عمارة بلادهم، وإصلاح شؤون حياتهم، وقضاء الأوطار والحاجات، في إطار ما أحل الله.

إننا لو فعلنا ذلك لوضعنا أمام شبابنا القدوة الصالحة التي يمكن أن يحتذوها، ولوقيناهم من شرور وبيلة، ولجنبناهم مزالق كثيرة؛ بالإضافة إلى الإعداد التربوي المتكامل، والتفهم الدقيق لمطالبهم، ومعرفة ما عندهم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زماننا، وإن موجات الفساد تغزوهم من كل صوب، وبالوسائل التي نعلم وما لا نعلم، بل وتؤثر مع الأسف حتى على بعض الكبار، وإذا كنا بحمد الله قد نجونا في حال شبابنا من تلك المؤثرات، فإن أبناءنا اليوم هم نهب لها، ولقمة مستساغة في يد الخراب والفساد. فهل نتركهم يواجهون الموت الأخلاقي؟ إنهم امتدادنا في الحياة، إنهم نحن في رحلتنا إلى عالم الغد، وهم ثروتنا الحقيقية التي يجب أن نحرص عليها، لذا يجب علينا أن نتوقف كثيراً لنتفهمهم ونفهم ما عندهم، ومن ثم نحاورهم بالحسنى، ونقضي في الوقت نفسه على مداخل الأخطار، وأسباب العدوى، فالعدوى الأخلاقية، ينبغي أن نجند أنفسنا لمقاومتها تماماً كما يجند المختصون أنفسهم لمقاومة العدوى الصحية، فهل نفعل؟ أما السؤال عن كيفية المقاومة ووسائلها، فذلك ما ينبغي أن نجتمع حوله بصدق، بعيداً عن التشنج، والتأستذ والقهرية، فإنه يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر، كما أن الموضوع يهم كل الأفراد والجماعات، فما أشرتم إليه – مثلاً – من تجمعات عشوائية فوضوية، لتقليد أي تقليعة غريبة، يمكن معالجتها بكثير من صور النشاط والعمل، كتحويلها إلى أنشطة أخرى، وإيجاد بدائل مقنعة ومغرية، ويمكن معالجتها بشغلهم في ميادين أخرى نافعة، تعود عليهم وعلى

الأمة بالنفع، المهم أن يبدأ الحوار، ويُفتح باب الرأي والنقاش، وأن نفهم أن الموضوع مسؤولية الجميع، فكلكم راع، وكل راع مسؤول عن رعيته.

* * *

وبالوالدين إحساناً[1]

مشاركة المملكة العربية السعودية على أي مستوى في اليوم العالمي للمسنين يعطي في حد ذاته دلالة واضحة على مستوى الوعي الاجتماعي الذي بلغته المملكة تحت ظل قيادتها الرشيدة، ذلك الوعي يخرجنا من دائرة التشرنق مع الذات والإنغلاق على النفس، ويغرس فينا الروح الجمعية، بالإضافة إلى الإحساس بمعاناة هذه الشريحة المهمة من شرائح المجتمع، والولوج داخل عالمها المتشابك المتعدد القضايا والموضوعات، فإذا كان الاهتمام بالطفولة والأطفال أمراً واجباً يحكمنا فيه وعينا التربوي، والرّغبة في إعداد أطفالنا لخوض غمار الحياة على أساس متين من الصحة النفسية والجسمية، والقدرات المعرفية، وهُيِّء لهم الجو الذي تنمو فيه خبراتهم، أي أننا نعدهم لأن يبدأوا الحياة بداية صالحة، فإن الواجب يقضينا أن نهتم بآبائنا وأجدادنا (رجالاً ونساء) بشكل آخر، وذلك بأن نقدم لهم كل ما يحافظ أيضاً على سلامتهم الجسمية والنفسية، ونهيء لهم الجو الذي يمكنهم من العطاء، ويُبقي على صلتهم بالحياة قوية، ويشعرهم بأنهم مايزالون قادرين على العطاء، وأن من حولهم مايزالون في حاجة إلى معارفهم وخبراتهم، كلٌّ بحسبه، وبتعبير آخر نهيئ لهم من يخدمهم بما يقتنعون به أنهم مخدومون، كما نهيء لهم الحقول المناسبة لتخصصاتهم التي يمكن أن يسهموا فيها برزي أو خبرة أو إنتاج. يجب أن لا يشعروا أنهم أصبحوا عالة على غيرهم مستثقلين، معدودين من سقط المتاع، هم في الحقيقة طاقات نستطيع أن نفيد منها لو أحطناها بظروفها الملائمة لها، وسنحصل

---

(١) نشرت بإصدارة (الملتقى) بالرياض ١٤١٩هـ.

من خلال هذه الفئة على نماذج إبداعية عالية جداً، سواء في مجال العلم أم في مجال الفن. لقد كانت إحدى جاراتنا إذا أمسكت بضرع الغَنَمة المليء تحلبها، لا تحصل منه إلا على القليل القليل، فإذا أمسكت بها والدتي رحمها الله، ومسحت عليها وعلى ضروعها وناغتها بأصوات تفهمها الغنمة، تدفق الحليب في الغضارة وفاض، وهكذا في اعتقادي يكون استثمار البشر، ولحكمة يعلمها الله بدأ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حياته برعي الغنم.

وقد كان أجدادنا يسمون المسنين المعمَّرين (بفتح الميم)، ويقصدون بهم من طالت أعمارهم، وفي الغالب يبدأ ذلك من حوالي المئة فما فوق، وعلى هذا الأساس ألِّفتْ كتب تحوي بعض أخبار هؤلاء المعمَّرين وطرائفهم، ولعلها الأجمل، لما فيه من الإيحاء بالعمارة والتعمير.

ولست أدري ما المعنى الاصطلاحي لكلمة مسن على وجه التحديد، هل تحديده يكون بقيد زمني، أو بقيد حالاتي صحي.؟ وهل يتداخل مع المقعدين من مرض ونحوه.؟

إن ديوان الخدمة في المملكة العربية السعودية شرع للناس التقاعد حين بلوغهم الستين. وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الآثار المروية عنه إلى أن متوسط أعمار أمته حوالي ٦٥، ويعطي ديوان الخدمة القضاة والعسكريين حق الاستمرار في الخدمة إلى السبعين. فهل تعتبر بداية الإنسان من سن التقاعد أو من المتوسط المحمدي، أو من الاستثناء العسكري والقضائي.؟ وفي خارج المملكة يعطى للأستاذ الجامعي حق الاستمرار في العمل إلى ما شاء الله، طالما يحس نفسه قادراً علي العطاء. فهل نأخذ بنفس النظرة.؟ وقد عبر القرآن عن المسنين في عدة مواضع بشكل فيه كثير من الإحكام والوضوح، ومن ذلك ما جاء في سورة الحج آية ٥ **﴿ومنكم من يُردُّ إلى أرذلِ العمُر لكي لا يَعلمَ من بعد علمٍ شيئاً﴾**، قال المفسرون: وبعضهم يكبَرُ حتى يبلغ سن الهرم وضعف العقل، فلا يعلم هذا المعمَّر شيئاً مما كانيعلمه قبل ذلك.

وقوله في سورة النور/ آية ٦٠ ﴿**والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهنّ جناحٌ أن يضَعن ثيابهن غيرَ متبرِّجات بزينةٍ**﴾. قال المفسرون: والعجائز من النساء اللاتي قعدن عن الاستمتاع والشهوة لكبرهن، فلا يطمعن في الرجال للزواج، ولا يطمع فيهن الرجال كذلك.. إلخ.

فإذا أخذنا بهذا التحديد وجدنا ذلك يختلف من الرجل للمرأة، إذ أن الشيخوخة قد تبادر للنساء بشكل أسرع من الرجال، كما يبدو أن هناك شيخوخة كبرى وشيخوخة عادية، ولذلك قالت بنتا شعيب لموسى عليه السلام في سورة القصص/ آية ٢٣ ﴿**قال ما خطبكما! قالتا لا نَسقي حتى يُصدِر الرِّعاءُ وأبونا شيخ كبير**﴾.

بينما قالت امرأة إبراهيم عليه السلام في سورة هود/ آية ٧٢ ﴿**قالت يا ويْلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب**﴾ وقالت في الذاريات/ آية ٢٩ ﴿**فأقبلت امرأته في صَرَّة فصكّت وجهها وقالت عجوزٌ عقيم**﴾.

إذن الشيخوخة أنواع، فأيّ نوع من الشيخوخة أو الأسنان تدخل في دائرة اهتمام اليوم العالمي للمسنين، والدُّور التي تبنى لرعاية المسنين.؟

في اعتقادي أن الاهتمام ينبغي أن يكون بجميع المراحل، غير أن لكل مرحلة ما يتناسب معها من أنواع الاهتمام، ولا أظن أن هذا يخفى على المسؤولين عن هذه الدور وعن هذه الفئة الغالية من فئات المجتمع التي بذلت وأعطت من شبابها وكهولتها، وشيدت وبنت وحققت للبلد الكثير من طموحاته، فمن حقها علينا أن نرد لها بعض الجميل.. وقبل هذا وذاك نحن مطالبون أن ننطلق في إكرام المسنين من تعاليم ديننا الحنيف، من بر الوالدين والعناية بالجار، ووجوب النفقة على الأقربين، وأن نستوفي كل الواجبات الشرعية، وذلك أملاً في إحياء معالم الشريعة الغراء، وإبقاءً على العواطف الأسرية، وتخفيفاً للضغط الذي قد يكون.. ولعل فكرة الاهتمام بالمسنين وإقامة دور خاصة بهم تعمم في كل المدن والمناطق، وينطبق على مركز الأمير سلمان الاجتماعي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (من سن سنة

حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة)، فجميع المسنين في بلادنا بمنزلة والدينا، يجب علينا برّهم وخدمتهم والإحسان إليهم: ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً**﴾.

* * *

حرمة التراث[1]

● في الصفحة الأولى من جريدة عكاظ الغراء في العدد الذي يحمل رقم ١١٧١٩ مؤرخاً في ١٤١٩/٦/٢ هجرية وعلى وجه التحديد في الركن الأيمن السفلي قرأت إعلاناً عن حفائظ للأطفال تحت اسم (حفّاض عنتر وعبلة)، وجملة (إجمع واربح مع عنتر وعبلة). فأثار ذلك في داخلي ثلاثة أَعْجاب. يكفي كل واحد منها أن يكون موضوع حديث خاص، وحرصاً مني على وقتكم ووقتي آثرت الاختصار، مع تحقيق الهدف الأساس من التصدِّي والحوار في هذا المضمار.

● فأما العجب الأول فيتجه إلى هذه الأخطاء التي ارتكبها كاتب الإعلان، فهو يرتكب من الأخطاء، ما لا يرتكبه طالب في المرحلة الابتدائية، إذ أنه يكتب (حفاظ) بالضاد، وهو اعتداء على العربية في أخص حروفها، فعذراً للغة الضاد، وهو يضع همزة تحت ألفِ اجْمَعْ: (فعل أمر) أي أنه لا يفرق بين همزة القطع وهمزة الوصل. وسيخرج أحدهم لسانه سخرية واستهزاءً، (مع أن إخراج اللسان بجانب الحفّاظ غير لائق)، ويقول: ما هذا التعقيد.؟ وما هذا التقعر.؟ والجواب لدينا واحد دائماً، وهو أن كل ما نطلبه منكم أيها السادة إذا كتبتم بلغتنا (اللغة العربية) أن تلتزموا بضوابطها وقواعدها، وإلا تفعلوا ذلك فدعوها واذهبوا إلى ما تشاؤون.! وفي اعتقادي أن الشركات التي تصرف على إعلاناتها لا يضرها أن تنتقي كاتباً جيداً يحترم العروبة والعربية، فإن ذلك مما يدعو إلى احترامها وتقديرها، فكيف نثق فيها ونأتمنها على حاجاتنا، وهي غير أمينة على لغتنا؟

(١) نشرت بصحيفة (البلاد) ١٤١٩هـ.

● وأما العجب الثاني فإنه يتجه إلى التسمية ذاتها: (حفّاظ عنتر وعبلة).. فنحن جميعاً نعرف من عنترة وعبلة..! إنهما علمان لا تُذْكر أمجاد الجاهلية وحروبها وأحوالها الاجتماعية، ولا يتم الحديث عن الحب والشعر، والوفاء والتضحية، ولا تذكر السير الشعبية ولا الأساطير القومية، إلا ونذكرهما ونلتذ بسيرتهما، وكثيراً ما نتمثلهما ونفاخر بمواقفهما، إنهما تحولا من مجرد اسمين عاديين، أو شخصين كانا يعيشان في مجاهل نجد تحت الخيام، إلى رمز لكثير من المعاني المرتبطة بتاريخنا العربي حقيقة وتخيلاً، فقد قرأنا جميعاً العنترية وعشنا أحداثها، فتخلّلْتْنا وتخلّلناها، وبالتأكيد أصبحت تمثل كثيراً من أحلامنا، ونما عليها خيالنا.. ثم نفاجأ بشركة تحول كل ذلك إلى (حفّاظ). إنه لأمر عجاب، فإذا قبلنا هذا الفعل بعنترة وعبلة، فإننا لا نأمن أن نرى غداً حفاظات لقيس وليلى، وجميل وبثينة، وعمر بن أبي ربيعة وو..! حتى تخص شركاتنا كل شاعر من شعرائنا، أو علم من أعلامنا بحفّاظ.. أوليس عنترة من الذين نبض قلبهم بالحب ولسانهم بالشعر، وكان من أصحاب المعلقات؟ وكانت صاحبته عبلة من أوفى وأرق الحبيبات؟ وتحسبونه هيّناً وهو في ميزان التربية الوطنية والقومية عظيم.. وربما انتدب أحدهم نفسه للرد فقال: أوتدافع عن الجاهليين.؟ والجواب: نعم إنني أدافع عن كل ما يمت إلى تراثنا العربي والإسلامي بصلة، وأريد أن تبقى له حرمته في نفوسنا، وتقديره في قلوبنا، فمن التراث البعيد والقريب نستمد دعائم وجودنا، ولا خير في أمة تسعى إلى الهزء من تاريخها وتراثها بأي شكل من الأشكال، ولهذا ومثله لم يلغ الإسلام حين ظهوره من حياة العرب إلا ما كان فيه منافاة لعقيدة التوحيد، بينما أبقى في الجانب الآخر الكثير من فضائل القوم وتمّمها وكمّلها وارتفع بها، وباختصار لا ينبغي في اعتقادي أن نطلق أسماء أعلامنا على الأشياء الرديئة، كالحفاظات والمراحيض والمجاري، ومرابط الحمير والصراصير، فإنهم أشد حرمة علينا من ذلك، وأغلى شأناً، فكيف يعفر شرف عنترة وعبلة، وكل المعاني التراثية التي يمثلانها بهذه التسمية.؟ أرأيتم حفّاظات باسم هوميروس أو شكسبير أو هيجل أو فولتير أو طاغور؟ لا أعتقد أن شيئاً من ذلك كائن، أو ممكن أن يكون.!

● وأما العجب الثالث فإني أتجه به إلى إخواني في جريدة عكاظ الغراء، وهم الذين عرفنا غيرتهم على العربية والعروبة وخبرنا صدق انتمائهم للتراث في كثير من المناسبات والمواقف، بالإضافة إلى ما نعرفه عنهم بشكل شخصي.. كيف يمرق من تحت سنان رقابتهم مثل هذا الإعلان اللامنتمي.؟ وهم الحريصون - فيما أعلم - على أن لا تغويهم المكاسب الإعلانية وتحول بينهم وبين المواقف التراثية الأصيلة..

وبعد: فإنني على ثقة بأن أصحاب الإعلان، وكاتبه، وناشره، إن شاء الله لا يقصدون ما أوحت به الأخطاء التي وقعوا فيها، ولكن حسن النية لا يكفي في الإغضاء عن الأخطاء بل واجبنا أن نتناصح وينبه بعضنا بعضاً، فسفينتنا واحدة، وتوجُّهنا واحد، هو بناء هذا الوطن على أساس من العروبة والإسلام، وذلك لا يتم إلا على أساس احترامنا لماضينا بكل ما فيه من أشياء، وأموات وأحياء، ومن هنا جاء وجوب احترام المقابر، واحترام الموتى بذكر حسناتهم، وكما لا يجوز أن نعبث بعظام عنترة وعبلة وبني عبس جميعاً، وقيس عَيْلان أجمع، والعرب أَكْتع، فيما لو اكتشفنا مقابرهم، فإنه لا يجوز العبث بأسمائهم بإطلاقها على حفّاظات.. وأتمنى أن يسعى أصحاب الإعلان إلى تغيير اسم حفّاظهم، وأن لا تنشر صحفنا ما يمس تراثنا من قريب أو بعيد. وسنكون مسرورين مبتهجين لإطلاق بعض أسمائهم على روائح عطرية أو ملابس جميلة أو على بعض أدوات الزينة أو بعض الأماكن المبهجة المريحة، وباسم كل المحبين لشعر عنترة وبطولة عنترة ووفاء عبلة، وباسم كل الأوفياء للتراث نطالب بردّ الاعتبار لهما، بإزالة اسميهما من على (حفائظ الأطفال) وإطلاقها على شيء جميل، فهل يفعلون؟

* * *

المعلِّم المُفَرَّى

المفرّى اسم مفعول من قولهم فرّى الشيء (بالتضعيف) أي شقه بعنف، فهي إذن مبالغة فرَى (بالتخفيف) يَفريه فَرْياً (بفتح الفاء وسكون الراء). أما الفرِيُّ (بفتح الفاء وكسر الراء وتضعيف الياء) فهي الأمر العجيب، وفي التنزيل: ﴿**قالوا يا مريم لقد جئتِ شيئاً فَرِيًّا**﴾ أي عجيباً.

وهذه المادة بالمعنيين تصدق على المعلم، فالمعلم عجيب بكل شؤونه وأموره وأوضاعه، والمعلم مشقق الأكف، مقطع الأواصر والأواخي، منظور إليه أنه جملة معترضة سرعان ما تزول الحاجة إليها فتمتد لها الأيدي بالإزالة والإزاحة.

قالوا: إن العالم يخصص يوماً للمعلم، يسميه باسمه، وكذلك فعلنا نحن استحساناً وتقليداً، وهي لفتة جميلة لتكريم هذا الإنسان المفرَّى أو حتى المفترى عليه، أو بالعامية (المفترى فيه)، وجعله يحس بأنه شخص له قيمة، وأن الناس يحسون بما يقدمه لمجتمعه من خدمات.

يقال: إن دولة إسلامية نقلها عسكرها إلى العَلْمانية تحذلق أعضاء مجلس الوزراء فيها وقالوا: إن المعلمين يتمتعون بإجازة طويلة متميزين عن بقية العاملين في الدولة، وذلك هدر للمال والطاقات، فلابد من استغلال المعلمين في أعمال أخرى لقاء المرتب الذي يأخذونه في أثناء إجازتهم الصيفية، توجهوا بذلك لوزير المعارف، فطلب منهم أن يمهلوه إلى موعد الاجتماع التالي، وما كادوا يصدقونه حين أتاهم بالموافقة على اقتراحهم، ولكنهم فوجئوا حين اشترط عليهم أن يفتحوا مقابل ذلك أعداداً عديدة من المستشفيات بموظفيها ومعداتها، لمعالجة ما قد يصيب المعلمين من أمراض

جسمية ونفسية، من جراء حرمانهم من إجازتهم التي كانت توفر لهم الراحة اللازمة لنفوسهم وأبدانهم، ليستطيعوا بعدها مواصلة العمل في السنة التالية، وذلك لما يعانونه في أثناء أداء عملهم من متاعب ومشاق لا يعلم مداها إلا الله، وقارن لهم بين المبالغ المتوهم هدرها، والمبالغ المطلوب بذلها، لتأسيس المستشفيات المقترحة، فوجدوا أن ترك التحذلق وإبقاء الإجازة للمعلمين أخف عبئاً على خزينة الدولة، وأقل تكلفة.

عجيب أمر هؤلاء المعلمين، انظروا معي كيف حاول أن يسيء إليهم هؤلاء الأبناء العاقون الذين قفزوا إلى سدة الحكم، وبدلاً من أن يشكروا من كان سبباً في وصولهم إلى هذه المكانة ومن علمهم الحروف والكلمات وليس حرفاً واحداً، عمدوا إلى أذاهم واتضييق عليهم، وحاولوا النيل منهم في أرزاقهم، وإن أمة يهان فيها المعلمون لهي أمة تعاني من عقد المروق والعقوق.

إن البر يدعونا أن نذكر معلمينا جميعاً بكل خير، ونستغفر لهم بقدر ما علمونا، وهيأوا لنا فرصة ما نحن فيه من نعمة، نلقاهم بالوجه الطلق، ونقضي حوائجهم، ونوسع لهم في المجلس إلى غير ذلك من مظاهر التكريم والتبجيل، إن تكريم المعلم لا يكون في درع نقدمه له أو شهادات ذات خط جميل داخل إطار أو دون إطار، ولا يتمثل في خطبة أو قصيدة أو مقالة. إن الأمر يحتاج منا إلي وقفة جادة يسهم في الاشتراك فيها كل هؤلاء الذين في أعناقهم حق للمعلمين، وكلنا ذاك الرجل، من كبير وصغير، وأمير وغفير، لكي نرد لهم بعض ما لهم من حقوق، والمقترح الذي يمكن أن أقدمه بهذا الصدد يتلخص في إعطاء المعلم بطاقة باسم (بطاقة معلم على رأس العمل) يحصل منها على مجموعة من الخدمات والتسهيلات التي تضمن له ما يلي:

١ - خصم ٢٠٪ في وسائل النقل الجوي والبحري والبري، له ولمن يعولهم شرعاً، فالمعلم ليس أقل من موظف الخطوط.

٢ - إعطاءه الأولوية في الحجز في الموانئ الجوية والبحرية والبرية.

٣ – خصم ٢٠٪ في جميع الفنادق الكبرى بصفة خاصة داخل المملكة وخارجها، (أعني الفنادق التي لها فروع أو أصول بالمملكة، ولها امتداداتها في الخارج).

٤ – خصم ٢٠٪ من التكاليف الطبية بجميع أنواعها، بما في ذلك الفندقة، في المشافي الوطنية بالمملكة.

٥ – يعطى الأولوية في قبوله بالمستشفيات الكبيرة من مدنية وعسكرية، دونما حاجة إلى تحويل من أي جهة، مع الخصم ٢٠٪ إن كانت هناك تكاليف.

٦ – يعطى أولاده الأولوية في القبول بالجامعات بخصم ١٠٪ من درجات القبول.

٧ – تسهيل الدخول على جميع المسؤولين، وتوسيع الصدر لسماع شكاويه وطروحاته.

٨ – إعطاءه الأولوية في القروض التي تمنحها الدولة للمواطنين، وفي منح الأراضي وغيرها.

٩ – يضاف إلى ذلك كل ما فيه تكريم المعلم مما لم يحضرني الآن.

ويكون في تلك البطاقة خانة خاصة لمن قضوا أربعين سنة في الخدمة يستحق بموجبها المعلم خصومات فيما تقدم إلى حد ٥٠٪ كالإركاب والإقامة في الفنادق، والسؤال: من يدفع تلك الأعباء المالية؟ والجواب: فلتكن الدولة، أو أي تنظيم آخر يكوّنه المعلمون، مثل صندوق المعلم أو ما أشبه ذلك، ويكون تحت نظر وزارة المعارف أو أية جهة أخرى قادرة على النهوض بهذه المهمة، وفي اعتقادي أن أي مبلغ يقدّم في صورة خدمة للمعلم هو مبلغ مصروف في مكانه، وليس هدراً أو انتقاصاً، أو مصروفاً لا عائد له.

إننا نواجه المعلم – مع الأسف – بمجموعة من الممنوعات، ونقيد حركته داخل المدرسة وخارجها، ونكاد نلغي شخصيته أمام طلابه، في وقفته ولباسه وكلماته خفضاً وجهراً، والطالب يتباهى بأن معلمه لا يستطيع أن يصنع شيئاً إزاء استهتاره وإهماله وعدم قيامه بواجباته، فكل سيئاته منشورة، وكل حسناته مقبورة، ومطلوب

منه أن يكون قوياً، ويقوم بدور المؤثر التربوي والتعليمي، دون أن يمتلك وسيلة واحدة لتحقيق تلك المطلوبات، هو ضعيف مستضعف لا حول له ولا قوة، ممنوع عليه أن يوبخ الطالب، أو أن يتعامل معه بوعد أو وعيد، أو أن يكلفه بإعادة كتابة جملة عشر مرات للتأديب مثلاً، لو فعل ذلك للقي من العنت والأذى من بلاد برّة - من أمريكا وأوروبا وغيرها - ولاستهلكت تلك الفعلة من المسؤولين الكثير من الجهد والوقت، وتحولت إلى قضية الموسم.. أنا لا أقول: دعوا المعلم (يرمح) كما يريد، فهو بشر مثلنا يخطئ ويصيب، ولكن لا ينبغي أن (ندلّع) طلابنا كل هذا (التدليع)، فإن المبالغة في ذلك لا تقل خطورة عن إهمال الطالب وعدم النظر في شؤونه، وإنما نحن ننشد الاعتدال، ونطالب برد الاعتبار للمعلم.

ونقول مع الشاعر القديم:

إن المعلم والطبيب كلاهما لا يخلصان إذا هما لم يكرما

ولا شك أن المعلم لا يستحق هذا التكريم إلا إذا كان أهلاً للتكريم، وذلك بأداء الواجبات التي عليه علمياً وتربوياً، والخطأ الذي نقع فيه دائماً هو البدء بالمطالبة بالحقوق، قبل أداء الواجبات التي علينا، علماً بأن الواجبات التي علينا هي حقوق للآخرين، وهذا يعني أن الحقوق تصل لأصحابها من جميع الأطراف بأداء الجميع لواجباتهم، فإذا كنا قبل قليل أشرنا بطموح إلى بعض ما نزعم أنه حق للمعلم، فإننا لا ننسى المطالبة بحقوق الطلاب، أي بالواجبات التي على المعلمين، وأرجو أن تكون محل حديث مستقل إن شاء الله.

* * *

المؤتمرات العالمية والغياب اللامشروع[1]

قرأت في جريدة (الشرق الأوسط) العدد ٧٢٤٤/ الاثنين ١٩٩٨/٩/٢٨م/ خبراً مطولاً مفاده أن العاصمة الألمانية (بون) تشهد ابتداءً من الاثنين (تاريخ هذا العدد نفسه) مؤتمراً يعقده المستشرقون الألمان بالتعاون مع جامعة (فريدريش فلهام الألمانية) في (بون)، برعاية رئيس حكومة ولاية شمال الراين، التي تقع فيها العاصمة، يستمر إلى ١٩٩٨/١٠/٢م، ويحضره عدد كبير من المستشرقين الألمان وغيرهم من الأوروبيين وأساتذة الجامعات والعاملين في ميادين الثقافة والعلم والفلسفة واللغات والأديان في العالم العربي ودول آسيا وأفريقيا.

ثم تابعت قراءة أسماء المشتركين فيما يتصل باللغة العربية والدراسات الإسلامية بالذات وتوقعت أن أجد من بين هذه الأسماء من يمثل جامعاتنا ذات العلاقة كجامعة الإمام والجامعة الإسلامية في مجال الدراسات الإسلامية، وجامعة الملك سعود، والملك عبدالعزيز، وأم القرى في مجال الأدب العربي والدراسات اللغوية، ولكني لم أجد إلا أسماء عربية متناثرة هنا وهناك من مصر والمغرب ولبنان، علماً بأن قادة هذه الأمة يتصدرون لكل ما يهم شؤون الإسلام واللغة العربية، ويبذلون على مستوى الدولة والإنفاق الشخصي ما الله به عليم، وما نرجو أن يكتبه الله في سجل حسناتهم، فكيف تفوت جامعاتنا مثل هذه المناسبة التي تعتبر من أخص مسؤولياتهم في اعتقادي، فإن خدمتنا الحقيقية للإسلام والعربية لا تتمثل في الانطواء والاكتفاء بما لدينا، بل تتمثل بحق في معرفة ما عند الآخرين، والمحاورة

(١) نشرت بصحيفة (الرياض) ١٤١٩هـ.

معهم، وتقدمي ما لدينا وعرضه على الآخرين، حتى يكون لنا في كل قضية رأي، بل لابد أن تكون لجامعاتنا قنواتها البحثية والفكرية والتربوية والأدبية والعلائقية التي تصلها بالنبض الثقافي العالمي، وبخاصة ما يتصل بنا مباشرة، إنهم يعقدون المؤتمر إثر المؤتمر ليعرفونا ويعرفوا ما عندنا بطريقة أدق مما هو متوافر لديهم منذ زمن بعيد، لأنهم يؤمنون بتجدد الحياة، ويعرفون مدى ما يتركه ذلك التجدد من بصمات على جميع عناصر المعرفة والعلم، بينما نحن نبخل على أنفسنا حتى بالمشاركة والحضور، وفي جامعاتنا أقسام للاستشراق تخرّج الطلاب على مستوى البكالوريوس.! فأين هم من هذه المؤتمرات الإستشراقية التي تقام هنا وهناك في مختلف أنحاء العالم وبشتى اللغات.؟ في اعتقادي لكي نكون واقعيين ومعايشين لما يتم إنجازه من رصيد معرفي، لابد أن نسعى إلى الاشتراك في هذه المؤتمرات، ونقوم بترجمة وقائعها وكل ما يدور فيها من حوارات رئيسة أو هامشية، لنكون على وعي كامل بالحياة من حولنا، وليمكننا التعامل مع الآخرين، ولتؤدي هذه الأقسام والجامعات التي ترعاها، دَوْرها الذي أسست من أجله، وطمح المسؤولون إلى تحقيقه من خلالها.. إن أقل ما نطمح إليه جميعاً أن نكون متساوقين مع الغير، قادرين على مواجهته والتحاور معه، وتحديد موقعنا منه وموقعه منا، وهذا لا يتأتى إلا بالدرس والبحث المستمر، وحضور الندوات والمؤتمرات، ولن يتحقق إطلاقاً بالتقوقع والإنغلاق على مجموعة من المقررات والحقائق التي كثيراً ما يكون الزمن قد تخطاها، وتخطى معها أهليها..

وهناك وجه آخر للتفاعل مع هؤلاء المستشرقين ومَنْ وراءهم من الدول والأمم والشعوب، يتمثل في الشعور بوجوب قيام دراسات (استغرابية). وبهذه المناسبة يطيب لي أن أقترح على جامعاتنا أن تقوم بإنشاء أقسام استغرابية لا استشراقية، يكون الاستشراق جزءاً منها، فنحن قد يهمنا أن نعرف أنفسنا نحن - الشرقيين - في عيون الغربيين، ولكن يهمنا في المكان الأول أن نعرف الغربيين وثقافاتهم وعاداتهم ومجتمعاتهم ونواياهم وتصوراتهم لنا ولديننا وثقافتنا، كما نعرف نفسياتهم والمداخل والمخارج المتصلة بهم، ومواقعهم التاريخية والحاضرة منا ومن

قضايانا، مما يجعلهم أمامنا عراة من كل زيف، لنستطيع على أساس ذلك التصور وهذه المعرفة أن نخطط ونبرمج لعلاقتنا معهم في جميع المجالات وعلى جميع المستويات، على علم ومعرفة دقيقة. بعيداً عن الهوى والتشنجات والانفعالات المؤقتة، بحيث يكون لهذه الأقسام الاستغرابية مؤلفاتها ومجلاتها ومؤتمراتها وندواتها، وكل ما من شأنه أن يرقى بنا إلى المواقف العلمية المشرفة.

وقلت في نفسي هؤلاء يعقدون للقضايا الكبرى التي تتصل بحياتهم المؤتمر إثر المؤتمر، لأنهم يؤمنون أن النجاح في التكامل والتفاعل، وتبادل الخبرات، وتداول وجهات النظر في مختلف الأمور والشؤون، كما كان يفعل أسلافنا من أهل الحل والعقد، ممن يحق لهم النظر في تاريخنا العلمي. فلماذا لا نعيد لعلمنا وفكرنا ومعارفنا أمجادها من خلال الجامعات، بعقد المؤتمرات في التخصصات المختلفة، وعلى نطاق واسع، في إطار المحلية والعالمية، وبالطبع حسب الحاجة والإمكانات.. وحين أقول هذا لا أعني أنه لا يوجد شيء من ذلك في جامعاتنا البتة، فإن في بعض جامعاتنا محاولات مشكورة في هذا الصدد، كما أن لبعض الوزارات في هذا الشأن أياديَ بيضاء، ولكننا نطمح إلى المزيد، بل إلى أن تكون المملكة العربية السعودية رائدة في مختلف المجالات العلمية، كما تحققت لها بحمد الله الريادة في ميادين أخرى.

● **قف**.!

وقرأت في آخر الخبر ما يلي: (وبمناسبة انعقاد هذا المؤتر غصت واجهات مكتبات العاصمة الألمانية (بون) بالكتب والمطبوعات الألمانية والأجنبية التي تتناول الأدب والفكر العربي والإسلامي، والمطبوعات والكتب التي تصدرها دور النشر الألمانية، وكذلك العربية والأجنبية بعد ترجمتها إلى الألمانية).

فتساءلت مرة أخرى: أين نحن من هذه الكتب.؟ هل ترجمناها من الألمانية.؟ هل ترجمنا إليها.؟ أو نحن نكتفي بالمباهاة بما عندنا، وبوسم الآخرين بالحيف والظلم لأنهم لا ينصفوننا ولا يذكرون محاسننا.؟ إن الواجب يقتضينا أن نقدم لهم أنفسنا

ونسعى إليهم، بلغتهم ومنطق ثقافتهم وتكوينهم المعرفي، أن نكون على مستوى المسؤولية في مواجهة الحياة الفكرية المعاصرة، وليت جامعاتنا تتيح لأبنائها المشاركة في حدود الطوق والأولويات لحضور المؤتمرات والإفادة منها، وتهتم بالترجمة وشؤونها في حركة مدروسة، وعلى قدر الحاجة ومتطلبات حياتنا الفعلية.

* * *

الجواهر الثمينة في محاسن المدينة[1]

● أما المؤلف فهو محمد كِبْريت بن عبدالله الحسيني من أبناء المدينة المنورة الذين ولدوا بها ونشأوا فيها، وأخلصوا لها، وخدموا تاريخها وسجلوا فضائلها ومفاخرها. ولد سنة ١٠١٢ هجرية على ما ذكر المحبّي، وتوفي سنة ١٠٧٠، كان ذا ثقافة واسعة وعلم غزير، ظهر في ثنايا مؤلفاته، وبرز في علوم النقل والعقل، وبخاصة علوم العربية من نحو وصرف وبلاغة وأدب، كما كان على إلمام بعلم الفلك والزراعة، أخذ العلم من صفوة علماء عصره بالمدينة وخارجها، والتقى بعد ذلك بالعلماء في مصر والشام، ومن مشائخه: عبدالملك بن جمال الدين العصامي، ووجيه الدين عبدالرحمن بن عيسى العُمَري المُرْشِدي، وعبدالله بن ولي الحضرمي، ومحمد بن زين العابدين البكري، ومحمد مكي بن محمد ولي الدين المدني.

وترك مؤلفات كثيرة تشهد بعلمه وتنوع ثقافته، أحصيتُ منها ما يناهز اثني عشر كتاباً ذكرتُها في مقدمتي لتحقيق ديوان ا بن النحاس، وأوصلها الدكتور عائض الردادي إلى عشرين مؤلفاً، ما بين مطبوع ومخطوط. منها: ١ - رحلة الشتاء والصيف، ٢ - نصر من الله وفتح قريب، ٣ - الفصول السنية في الفلاحة المدنية، ٤ - رشح البال بشرح الحال، ٥ - الجواهر الثمينة، وهو الذي عنونا به هذا المقال.. إلخ.

● وأما الكتاب فإن صلتي به تبدأ منذ ما يناهز ثلاثين عاماً، وحين رأيت نسخة منه في مكتبة عارف حكمة ثم قمت بتصويرها، كما صوّرت نسخة تونس وآل

---

(١) نشرت بصحيفة (البلاد) ١٤١٩هـ.

هاشم وعدداً آخر من النسخ، بقصد تحقيق الكتاب، وشرعت في العمل بالفعل، وتناصف بين يدي، ثم شغلتني عنه مجموعة من المشاغل، وقبل ثلاث سنوات علمت من أخي الردادي أنه على وشك الانتهاء من تحقيقه، فباركت عمله لثقتي به، وتركت الاشتغال بالكتاب، فهو كتاب تحير بعضهم في نسبته إلى ميدانه، وذلك لتنوع ما فيه وتعدد موضوعاته، ونسبه آخرون كما نسبوا كل ال كتب الخاصة بفضائل المدينة إلى الجغرافيا أو التاريخ أو الحديث أو الأدب. غير أن الدكتور عائض الردادي في مقدمة تحقيقه للكتاب ص ٣٣ يقول: (والواقع أنه أعم من أن يكون كتاب تاريخ أو جغرافيا أو أدب بل هو كل ذلك وأكثر، فهو كتاب في فضائل المدينة، جمع فضائلها في الحديث، والتاريخ، والجغرافيا، والزراعة، والسكان، والفلك، وذكر محاسن كل مكان فيها من جميع الوجوه، وذكر محاسن كل زمان فيها من كل النواحي، وذكر محاسن أهلها في مختلف الأزمان، ولو قيل عنه: إنه كتاب في الاجتماع لصح ذلك، لما قدّمه المؤلف من وصف لمجتمع المدينة في زمانه، معاشاً، وتعاملاً، وتعدد أجناس، ومقيمين، ومجاورين، وغير ذلك مما فصله كبريت عن أهل المدينة في القرن الحادي عشر).

وقد عشق المسلمون المدينة المنورة، التي نورها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم منذ هجرته إليها، وبحياته فيها، وبوفاته فيها وضمها جسده الطاهر، فهي بهذا منوَّرة (بفتح الواو)، وهي أيضاً منوِّرة (بكسر الواو)، لانطلاق الفتوح منها، لجمع القرآن والسنة فيها، بل ولاكتمال الدين كله فيها، ولإنجاز كل عظيمة في رحابها الطاهرة، ثم لمأرز الإيمان إليها، ولخصائص أخرى خصها الله بها وخص أهلها وساكنيها ومن يموت فيها. هذا كله وغيره جعل قلوب المسلمين ترفرف عليها، وتهوي إليها، فخصوها بالكثير من شعر الحنين، وألفوا الكتب في محاسنها وفضائلها وتواريخها. فبلغت كتب الفضائل المؤلفة فيها عند الردادي واحداً وعشرين كتاباً. وهي عدد قليل جداً إذا ما قيس إلى المفترض أن يكون، ففضائل المدينة شتى، وفضلها على الناس كبير، فكان عليهم أن يردوا بعض ذلك الفضل، وأن يعبروا عن حبهم في نثر وشعر، وربما كان العشق المكين هو سبب صمتهم، فهم يرون أن كل ما سيكتبونه أقل مما يضمرون لها من حب، وأصغر بكثير من قدرها، أو أنه الحب الذي

يخرس الألسن ويقف الأقلام، فيلجأ فيه صاحبه إلى الذوبان في المحبوب، والتحالل معه في صمت ممتع، وهدوءٍ بديع.

● ولست أدري لِمَ أغفل أخي الدكتور الردادي ذكر كتاب (المرور بين العلمين في مفاخر الحرمين) لنور الدين الزَّرَنْدي، الذي طُبع منذ سنوات بتحقيقنا، فهو دون شك مما أُلِّف في فضل المدينة، ويزيده قيمة أن مؤلفه من المدينة، وبالمناسبة فقد غبت عن ذهنه مرة أخرى في تعليقه رقم (١) ص (٢٧) في إحالته إلى ترجمة الشاعر فتح الله بن النحاس الحلبي المدني، وهو يعلم أنني كتبت عنه كتابة ضافية في مقدمة تحقيقي لديوانه منذ سنوات. سامح الله أخي الردادي، فهكذا أنا دائماً حظي مع الأصدقاء.

● وقد أشار الردادي إلي منهج كِبْريت في كتابه (الجواهر الثمينة) هذا فقال: إنه قسم كتابه إلى مقدمة ومقالتين وخاتمة. (شرح في المقدمة سبب تأليفه عن المدينة)، (وخصص المقالة الأولى لمحاسن المدينة في المكان، وجعلها في أبواب شملت أكثر من ثلثي الكتاب، والمقالة الثانية لمحاسن المدينة في الزمان، فذكر ما يكون من مناسبات خلال شهور السنة العربية، بدءاً من شهر المحرم، مفصلاً ما يكون في كل شهر في المدينة. ثم أتبع ذلك فصول السنة الشمسية وما يكون في كل برج، ثم كتب تتميماً فيما أسعد الله به أهل المدينة، وقسمها إلى فئات. وختم كتابه بخاتمة فيما حصل لأهل المدينة من شرف الجوار، وذكر شمائلهم وما لهم من حق الرعاية). وقد ذكر الردادي مجموعة من حسنات المؤلف محمد كبريت كما ذكر بعض سلبياته، فمن حسناته أنه كان يدعم كل مروياته بأدلة وشواهد فالكتاب في عمومه يدور حول المحاسن الزمانية والمكانية للمدينة، ومحاسن أهلها، وذلك لا يثبت إلا بالأدلة الشرعية، ولذلك فهو يجتهد في سَوْق الأدلة، ودعم ما يورده بما يقويه ويعضده.

ومن سلبياته ظاهرة الاستطراد، الذي قد يكون أحياناً مختصراً مغتفراً، ويكون أحياناً أخرى مطولاً معيباً قال الردادي: (وقد لاحظ كبريت نفسه ذلك، وصرّح به، مبرّراً لذلك: (أن الشيء بالشيء يذكر بالاستطراد أو المناسبة)، وفي موضع آخر

حدد إطاراً لاستطراداته، وهو أن تدعو إليه الحاجة، ويكون من جنس ما قبله، فقال: (وقد طال الكلام وخرج عن سلك النظام:

ولربما ساق المحدِّث بعض ما ليس النديمُ إليه بالمحتاج

هذا وإن كان من قبيل الجمل المعترضة، فينبغي أن يكون من جنس حشو اللُّوزِيْنَج، فإن الحاجة إليه ماسة، وبمراعاة مثل ذلك سلامة الحاسة)، وأورد هذا النص أيضاً في رحلته معتذراً عن الاستطراد هناك)، انتهى كلام الردادي. قلت: ليس الاستطراد دائماً معيباً، لأنه من جهة هو من سمات عصر المؤلف، وهو مشتمل عنده على فوائد مهمة لا تتناقض مع موضوعه بل تثريه وتضيف إليه، فلا يكاد القارئ يحس بأنه خرج عن الموضوع الأساس أو ابتعد عنه، وعلى هذا الاعتبار يكون الاستطراد فضيلة لكِبْريت وميزة من مميزاته، ويكون أيضاً ظاهرة فنية تستحق الإكبار والتقدير.

● أما ظاهرة المجاورة التي عرض لها المحقق وضخمها بعض التضخيم حتى لكأنها أصبحت من المشاكل التاريخية الفاصلة، فإن عروض كبريت لها في تصوري لم يكن بالنحو المضخم، وإنما هو تقرير حال من وجهة نظر خاصة، لعلها نظرة رجل ركبته الديون وفشل في حياته الخاصة، وعقم فهو لا يلد، ولا ترغب فيه النساء، ونظرة عالم دخل عليه من ينافسه وبين قصوره أو ضحالة علمه، ولم يكن كذلك المجاورون ولا أهل المدينة في مختلف العصور، فقد كان المجاورون سبب ثراء وحركة وتفاعل وعطاء، كانوا أيضاً مصدراً لتجديد الدماء وفيضاً من العلم والعلماء، ولم يضق بهم غير ضعاف النفوس والأدعياء، وأصحاب المصالح الخاصة وربما المشبوهة، وكان أهل المدينة يحبون من هاجر إليهم، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وهكذا استقبل الأنصار المهاجرين، وهكذا كانت تتجدد دماء المدينة منذ عهد الفتوح والنّزوح بالناس من كل الأقطار الإسلامية، باديةً وحضراً، وعرباً وعجماً، وقد أراد ابن أُبَيّ الوقيعة بين المجاورين من المهاجرين، والمقيمين الأصليين،

من الأوس والخزرج (الأنصار) ﴿**لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾ وقال: (جوّع كلبك يتعبك)، ورشحت بعض أشعار حسان رضي الله عنه بشيء من ذاك نتيجة بقايا جاهلية فيه. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرأ بها بيده الشريفة وبشريعة الله، وبتأليف الله به بين أقوام ﴿**لو أنفقتَ ما في الأرض جميعاً ما ألّفتَ بين قلوبهم ولكنَّ الله ألف بينهم**﴾، فالضيق قد يكون ولكنه مؤقت، لا يعدو أن يكون نزغةً لا نزْعَة، وغلطةً لا فَرْطة. فالأمة الإسلامية تتساوى عند الله في الزمان والمكان والأقدار والأوزان، وفي مغادرة الدنيا بالأكفان، ولذلك لم تشغل نفسها بالصغائر، بل تقدمت وتحضرت وتفرغت للبناء والعمران، وكان المسلمون وعلماؤهم ينتقلون من مكان إلى مكان، فيفشل هنا وينجح هناك، ولم نسمع عن هذا الضيق إلا بقدر ما يكون بين الأخ وأخيه، فهؤلاء المشارقة ينبغون وترتفع أقدارهم في بلاد المغرب والأندلس، وهؤلاء المغاربة يشتهرون ويعزّون في مصر والشام والحجاز، وهؤلاء أبناء الحجاز يُرصّعون جباه بلاد بخارى وسمرقند وكل بلاد ما وراء النهرين. وهذه بلاد الأمريكان تعج بملايين المجاورين بها فلا تضيق بهم ولا يضيقون بها وتستمر بالجميع الحياة، لا ليست هناك مشكلة وإنما المشكلة في النفوس. وحبيبنا الردادي هو خير من عالج هذه المشكلة السطحية في كتابه عن الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري أحسن معالجة، وتناولها أجمل تناول، وبأسلوب حضاري رائع.

● وأما محقق الكتاب فهو الدكتور عائض بن بِنَيَّة بن سالم الردادي، المولود بمنطقة المدينة المنورة عام ١٣٦٩ هجرية، وصاحب المشاركات المتميزة في الإعلام عملاً وتأليفاً، والإسهامات اللافتة في التاريخ والأدب. ففي الدراسات الأدبية له:

١ – الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري.

٢ – شعر الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الثاني.

٣ – التدين والمجون في شعر شوقي.

٤ – ندوة الرفاعي.

وفي الإعلام له:

١ - من تجربة إذاعة المملكة العربية السعودية في برنامج التربية والطفولة والبث المباشر.

٢ - البث المباشر في الإذاعة المسموعة.

٣ - الإذاعة في الحج، ما لها وما عليها، وما تحتاج إليه.

وفي التاريخ له:

١ - الأسرة الطبرية المكية.

٢ - الجواهر الثمينة في محاسن المدينة (تحقيق).

وله كتابان فرغ من تحقيقهما ولهما صلة مباشرة بالجواهر الثمينة، وهما تحت الطبع، وهما:

١ - ذيل الانتصار لسيد الأبرار.

٢ - تَنزُّل السكينة على قناديل المدينة.

● اعتمد المحقق على أربع نسخ مخطوطة رئيسة من الكتاب، بعضها مكتوب في حياة المؤلف ومقابل على نسخته الخاصة به، وأهمها نسخة مكتبة رضا برمْبُور بالهند، كما استخدم إحدى عشرة نسخة أخرى مساعدة منها نسخة آل هاشم بالمدينة، ونسخة مجموعة الصافي بالمدينة أيضاً.

وانظر معي أي جهد بذله المحقق في الحصول على هذه النسخ، ثم فرزها وتصنيفها وإعدادها للاستخدام العلمي، ثم المقارنة بينها للوصول إلي النص النهائي الذي ترتضيه قواعد التحقيق، هذا بالإضافة إلى ضبطه الآيات القرآنية وتخريج الأحاديث وتعريف الأعلام والتعليق وصنع الفهارس التي باتت ضرورية في عصرنا الحديث للإفادة من أي تحقيق، ولعل من أهمها جميعاً في نظري فهرس الألفاظ اللغوية والحضارية والاصطلاحية (٢/٧٣٤) وقد استغرقت هذه الفهارس العامة مائة

وإحدى وتسعين صفحة (من ص ٦٢٤ إلى ٨١٥)، كما احتلت مائة وأربع عشرة صفحة (من ص ١ إلى ١١٤)، أي أن هذا الجهد الكبير الذي بذله المحقق تقديماً وفهرسة يشغل (٣٠٥) صفحة أي ثلاثة أثمان الكتاب الذي تم طبعه في مجلدين اثنين في (٨١٥) صفحة.

● ولقد أحسن المحقق الكريم في بيان عوّار النسخة المطبوعة للجواهر الثمينة بتحقيق الأخ أحمد سعيد سَلَم. فقد آن للمخلصين من علماء هذه الأمة والمسؤولين أن يوقفوا هؤلاء العابثين بالتراث عند حدهم، ويكشفوا عن جهلهم للناس، ويمنعوهم من العبث، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وكذلك ما فعله الآخر المدعو حسين شكري في كتاب نصيحة المشاور لابن فرحون، وما فعله أحمد بن سِلْم أيضاً في كتاب (نزهة الناظرين) للبرزنجي. وعابث آخر بتاريخ المدينة المنورة ظهر علينا بعد نشر هذا المقال بكتاب عن حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه، يكفي كل سطر فيه لمحاكمة هذا المؤلف علمياً، ذلكم هو المدعو: ماجد العامر، من الأردن الشقيق. غير أن للحق والتاريخ أذكر للأستاذ أحمد بن سِلْم كتاباً رائعاً من جمعه وتأليفه، سبق به غيره، وغدا مرجعاً للباحثين، وهو موسوعة الأدباء والكتّاب السعوديين، من أربعة مجلّدات، فلعل هذا يكفّر عن ذاك.

ولا يسعني في آخر هذا المقال إلا أن أقدم الشكر جزيلاً للمحقق الكريم، وأتمنّى له الاستمرار في تحقيق كتب أخرى عن المدينة بالذات، فإني من المغرمين بها المدلّهين، فحياك الله وبياك يا أخي العزيز عائض الردادي.

* * *

في روابي قباء[1]

● للفنان غازي علي أغنية شهيرة يبدؤها بقوله: (في ربوع المدينة، في روابي قباء)، كنا نتمنى أن يرزقنا الله أوتاراً صوتية كأوتاره، وصوتاً جهيراً كصوته، لنرددها معه صباحَ مساءَ. والروابي: جمع رابية، وهي كل ما ارتفع من الأرض، ويقال: أخَذه أخذةً رابية، أي شديدة زائدة.

● أما قُباء (ممدوداً) فكما قال ابن سِيدَه (في اللسان): (فموضعان، موضع بالمدينة، وموضع بين مكة والبصرة، يجوز صرفه وعدم صرفه، كما يجوز تذكيره وتأنيثه. قال: وأصل همزته واو، وذلك لوجود (ق ب و) لغوياً، وعدم وجود مادة (ق ب ي)).

● قلت: أما التي في طريق الحاج بين مكة والبصرة فإنها لا تهمنا الآن، لأنها ليست موضوع حديثنا، وأما التي قال: إنها بالمدينة، فهي في أصلها قرية زراعية جنوب المدينة، على بعد حوالي ستة أكيال منها، وبناؤها اليوم موصول بأبنية المدينة. والتي اختلفوا في تحديد بعدها عن المدينة، إنما قام اختلافهم على أساس مباني المدينة وضيقها في العصور المختلفة، ولذلك نجد مؤرخاً كالقزويني يحدد المسافة بثلاثة أميال، بينما يحددها محمد كبريت في (الجواهر الثمينة - تحقيق الردادي) بميلين، والميل البري كما هو معروف يساوي (١٦٠٩م). وقد كنت أود من الدكتور عايض أن يحدد لنا المسافة بالأكيال لا بالأميال، وهو الذي التزم في مقدمته بأن يحدث المصطلحات عند التعريف بالأماكن.

---

(١) نشرت بصحيفة (البلاد) ١٤١٩هـ.

● ومادة هذه الكلمة تدور حول الجمع والضم، فالقَبْوة انضمام ما بين الشفتين، ومنه القَباء من الثياب، اشتق من ذلك لاجتماع أطرافه، بحيث يصبح صالحاً لأن يُلبس. قال في اللسان: وأهل المدينة يقولون للضمة قَبْوة. وقد قَبا الحرفَ يَقْبُوه: إذا ضمه.

● والقَبا (بالفتح والقصر): ضرب من الشجر. أما القِبا (بالكسر والقصر) فهو قِبا القوس، وهو يعني من مقبض القوس إلى طرفها، أي نصفها.

ومما تقدم نستوحي أن هذه اللفظة في أوضاعها المختلفة تدل على الضم والجمع، وتوحي بأنها كانت مستقراً للناس ومتجمعاً للشجر، وإنها لكذلك، فقد كانت مستقرّاً لأهم قبائل الخزرج، ومتجمعاً لزراعة أهل المدينة، مع أختها العوالي، وبخاصة شجر النخيل، ولقد كانت كذلك إلى عهد قريب، لولا سطوة وحش العُمران عليها في العصر الحديث. وقد تملّك محمد كبريت نفسه في القرن الحادي عشر الهجري حديقة (سميحة) بالعوالي، وحديقة (الرملية) أو (الرُّميّلة) بقباء. ويغنّي الفنان عبدالعزيز شحاتة/ من شعر شاعر المدينة الكبير حسن مصطفى صيرفي:

يا نسيم الصبا رحيتك عطر غالي

ريحتك من قبا ولاّ زهور العوالي

قال كبريت: (قُباء بالضم، يُمد ويُقصر).

قلت: مفهومه أن فيها لغتين، والصواب المد، أما القصر، فهو شائع عند عامة أهل المدينة، ولا شيء هناك يمنعه، لأن القاعدة أن كل ممدود يجوز قصره اطراداً شعراً ونثراً، وإنما القليل قصر الممدود، وقيده بعضهم بالضرورة. وجعل كبريت عنوان مبحثه حول قباء هكذا: (باب في ذكر قبا، ومحاسن هاتيك الرُّبى). وهو عنوان مسجوع كما ترى، غير أن أخي عايض الردادي، أورده في تحقيقه بالمد، وأرجو أن يكون تطبيعاً، لأن المد يفسد السجعة التي أرادها المؤلف.

وقد أتاح لي أخي الدكتور عايض بإهدائه لي كتاب (الجواهر الثمينة) لمحمد

كبريت، الذي قام بتحقيقه مشكوراً، فرصة الاستمتاع بما ورد حول (قباء) من أشعار لطيفة، رائقة أحببت أن أشرك معي فيها القارئ الكريم، لعلها تقدم له بعض مرائي الجمال، وتحرك فيه الشوق إلى زيارة ربوع المدينة الطاهرة، والظفر بزيارة مسجدها الذي أسس على التقوى من أول يوم. قال كبريت فيها مستشهداً بشعر غيره:

بها ما تلَذُّ العينُ من حسن منظر ... وما ترتضيه النفسُ من شهواتها
زمرّدة خضراء، قد زينَ قُرطها ... بلؤلؤة بيضاءَ من زهراتها

وقد جاء في المحقق (ما يلَذُّ العينَ) ولعل الأنسب ما أثبتناه، وفي البيتين اقتباس من القرآن الكريم. ثم قال: (وأقول في ذلك، وإن لم أكن هنالك:

ما أطيبَ الأيامَ فيها تنقضي ... والعينُ قد قرّت بوصل حبيبها
ما العيش إلا في حماها، ليت لي ... مأوى، ولو في سفحها ورحيبها)

وربما قال هذين البيتين في أثناء ما كان بعيداً عن المدينة، في رحلته إلى مصر، والقسطنطينية والشام، ولذلك نجده يتمنى أن يكون له بها مأوى في سفحها أو رحيبها، ولو كان قالها وهو مقيم بالمدينة لما صلح له أن يتمنى ذلك، لأنه كان يمتلك في قباء - كما سبق - حديقة غناء من حدائقها هي حديقة (الرملية) أو (الرُّمَيْلة). ويلاحظ أن عاطفة الحب قوية في البيتين، بدأت بأسلوب التعجب، وانتهت بأسلوب القصر.

وقال فيها أيضاً بادئاً بأسلوب التعجب بقصد الإثارة، وطلباً للتأثير في المتلقي:

فيا حسْنَ هاتيك الرياض، وطيبَها ... فكم قد حوت حسناً يجلّ عن الحدّ
ولاسيما تلك السواني فإنها ... تجدّد حزن المدنَف الفردِ
أطارحُها شجوي، وصارت كأنما ... تطارح شجواها بمثل الذي أُبدي
وما بين هاتيك النخيل مَنازةٌ ... تُجدّد ما قد فات من سالف العهد
وفي سفح ذاك الجِزْع أيّ كواكبَ ... تلوح وتبدو من قريب ومن بُعْدِ

سقى سفحَها وبْلٌ من الغيث هاطلٌ وحيّا حماها بالعبير وبالنَّدّ
فكم قد نعمنا في ظلال رياضها يعيش هنيء في أمان وفي سعد
فمن لي بها مَعْ من أودّ دُنوَّه ومن لي بها في غير بلوى ولا جَهْد

● المفردات: السواني: جمع سانية، وهي الدلو وأدواته تُنْصب على المَسْنويّة، ثم تجره الماشية ذاهبة وراجعة، (والمسْنَويّة: البئر البعيدة الغور، التي لا يستقَى منها إلا بالسانية من الإبل ونحوها، ثم تطورت السانية إلى الناعورة: وهي دولاب ذو دلاء أو نحوها يدور بدفع الماء أو جر الماشية، فيخرج الماء من البئر أو النهر إلى الحقل، جَمْعُها نواعير. وللنواعير والسواني أصوات جميلة محببة إلى النفس، تغنى بها الشعراء كثيراً. ثم تطورت الناعورة إلى المكائن التي نراها اليوم ساحبة للمياه بأنابيبها ومواطيرها.

الواله: الذاهب العقل من شدة الوجد. المدنَف: المريض المشرف على الموت.

المنازه: جمع مَنْزه، وهو: الموضع البعيد عن فساد الهواء، المزدان بالنبات، كالمتنزَّه. أما قول بعضهم: (المنتزه) فخطأ مرفوض. الجَزْع: منعطف الوادي ووسطه.

● وقد علق المحقق على هذه الأبيات بقوله: (ذكرها المؤلف في رحلته (رحلة الشتاء والصيف/١٠٨) ضمن أشعار في وصف النيل، وأورد هناك بدلاً من الأبيات ٤، ٥، ٦ أبياتاً ثلاثة في وصف النيل).

● قلت: لعل هذا مما يؤكد أن هذه الأبيات لكبريت، ولذا هو يعطي لنفسه حق التصرف فيها، ينقلها من مناسبة إلى أخرى بعد التغيير فيها، وإذا فعل هذا كبريت في الوصف، فقد كان يفعله البحتري قديماً في المدح، وأعرف شعراء معاصرين يفعلون هذا ولا يرونه عيباً، أما أنا فإنني أرى هذا الفعل يفقد الشاعر احترام نفسه واحترام علاقاته، ويحط من قيمة الشعر، فيفرّغه من المشاعر ويحوله مجرد مِرْط أو عباءة نرتديها متى شئنا للزينة، ثم نخلعها أيضاً وقت ما نشاء، ولعمري إن هذا لإهانة للشعر والشعراء.! إننا نبحث عن قُباء داخل نفس كبريت، وعن ارتباطه بها،

وعن وجودها الإنساني جُوّاه، لا عن المساحيق والألوان المستعارة، التي يحتاجها عادة الممثلون على خشبة المسرح.

● قال كبريت: وأنشد لنفسه الشيخ أبو عبدالله الفيّومي (هو شهاب الدين أحمد من شعراء مكة في القرن العاشر، رحل إلى مصر، وربما استطون الفيّوم/ الجواهر الثمينة ١/١٥٤):

لله يوم في قُبَا قد مرّ لي ... في جمع أحباب وبَسْطٍ زائدِ
وتمتعتْ في روضة أحداقُنا ... بحدائق (تُسقى بماء واحد)

وقال العفيف التلسماني (هو سليمان بن علي بن عبدالله الكومي - من قبيلة كومة بالجزائر - وليس الكوفي، كما جاء في المحقق، التلمساني - نسبة إلي مدينة تلمسان - عفيف الدين، متصوف على طريقة أبي عربي، سكن دمشق ومات فيها، له ديوان مخطوط، وابنه الشاب الظريف التلمساني أشعر منه وديوانه مطبوع):

يا سائق العيس نحو (كاظمة ... بلّغ سلامي للساكنين (قبا)
وقل: قضى ذلك المشُوقُ بكم ... وما قضى من وصالكم أرَبا

إن (كاظمة) في طريق الحج العراقي البصري، فهل (قُبا) الواردة في هذين البيتين هي التي أشار إليها ابن سيده في اللسان حين قال: إنها موضع بين مكة والبصرة.؟ إذا كان الأمر كذلك فإن ذكرها لا يكون إلا للرمز إلى الأماكن المقدسة وساكنيها، بذكر الأماكن الواقعة في الطريق المؤدية إليها، وذلك على حد قول المجنون:

أمرُّ على الديار ديار ليلى ... أقبل ذا الجدارَ وذا الجدارَا
وما حب الديار سكنَّ قلبي ... ولكنْ حب من سكن الديارا

● وهناك ثلاث قصائد سماها كبريت (سَحَريات الحدائق)، ربما لتركيزها، على زمن السَّحَر وجماله في تلك الحدائق، ولم ينسبها لقائليها، ولعلها له، من ذلك:

ما نلتُ ليلة وصلي طيِّبَ السَّمَرِ ... حتى مررتِ بنا، يا نسمةَ السَّحَرِ
لقد أتيتِ على ما كان في خَلَدي ... وجئتِ يا عذبةَ المحْيَا على قدَر
لله ليلة أنس بات مُعتَنِقي ... فيها السرورُ ينادي طلعةَ القمر
ذاك الذي أوتي القرآن معجزةً ... واختُصَّ بالمدح في الآيات والسُّور
لولاه ما فاز بالفخر الجميل (قُبا) ... وخُصَّ بالذكر في التنْزِيل والخبر
أكرِمْ به مسجداً ظلَّ الفخار به ... فنال فيه الندامى أطيبَ السهر
والروضُ قد لعبت أيدي النسيم به ... ومالت القُضْب والأغصانُ بالثمر
والعذبُ قد راق، والساقي يطوف به ... على الجداول في روض من الزَّهر
والطير قد رقصتْ في وكْرِها طرباً ... أغنتْ برنتها عن نغمة الوتر
يُهنيكَ يا قلبُ هذا الوصلُ، وابتهجي ... يا نفسُ، واغتنمي في صحة العمر
وأنت يا قِبَةَ الإسلام، لا برحت ... روحي فداك تقي من سائر الغِيَر
وأنت يا ليلة الأنس التي لطفت ... لقد حللتِ محل السمع والبصر
ما أطيب العيشَ لولا عينُ حاسِدِهِ ... ما أطولَ الليل لولا فرحةُ الظَّفر
الليل ما بين أهل الوصل مختصرٌ ... لو طال ما طال، منسوبٌ إلى القِصَر

● ينادي طلعة القمر: المقصود استحضاره لطلعة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مقدمه في هجرته المباركة إلى قباء، ولعلها (يناجي)، لا ينادي.

قبا: سبق أن قلنا: إنه يمد ويقصر، ويذكر ويؤنث. قِبَة الإسلام (بكسر القاف وفتح الباء مخففة) عضلته وليست (قُبّة) كما جاء في التحقيق.

● إن تعلق الشاعر بقباء هنا على أساس ديني روحاني بالإضافة إلى جمال الطبيعة، وهو شيء يعطي للأبيات خصوصية المناسبة، ويمنع نقلها إلى غيرها، ويجعلها قُبائية خالصة.

● والقصيدة الثانية رائية أيضاً وهي:

نشر الريحُ ما طوى كِمُّ زهْرِ ... فزكا عَرْفُ ما شذا كلُّ نشرِ
وتغنَّت سواجعُ الأيك فيها ... وكذا الدوح هزَّةُ صوتُ قمري

في رياض بالجَزْع تزهو وتزْهَى قد بدا في كِمامها نشرُ زهر
وكذا المُلْقَحاتُ جادت وأبدت يا نديمي من طلعها خَيْرَ بُسْر
يستوي في المصيف عند استواها كلُّ ضيفٍ لها، وعبدٍ وحُر
ما ألذَّ الحياةَ فيها وأحلى خطراتي ما بين أثل وسدر
ونديمٍ من الصفا، ومُدامٍ من وداد يروق من صفو صَدْر
ومديرٍ من الوَفا كأسَ حُبٍّ مَعَ طيبٍ يفوق أطيبَ عطر
ومغَنٍّ من الغنا، وسماعٍ من لسان الثنا بحمد وشكر
وأمانٍ من الرقيب وقربٍ من وقارٍ، وبُعْدِ ما كان يُزري
هذه عِيشةُ الكرام، وفيها فاقبلوا يا أولي الصبابة عُذري
واسألوا إن بلغتموها أماناً من صروف الردى ومن سوء غَدْر

كِمّ الزهر: غلافه وهو بكسر الكاف، وما جاء من ضمها في المحقَّق تطبيع، لأنها بالضم تعني الرُّدن. العَرْف: الرائحة الطيبة. شذا: فعل ماض، مضارعه يشذُو، من قولهم: شذا المسكُ، إذا قويت رائحته وانتشرت. الجَزْع: سبق شرحه. الكِمام: جمع كِمْ، وتجمع أيضاً على أكمام ومنه قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿**والنخلُ ذاتُ الأكمام**﴾. المُلْقحات: النخل. في البيت السادس سقط من المحقق كلمة (ما) في الشرط الثاني، التي يحتاجها المعنى والوزن.

● وقبائية القصيدة واضحة في جميع مفاصلها، فقد رسم لها لوحة حسية من الأطيار والأشجار، ومن مجلس أنس وقور. والقصيدة الثالثة هي:

إذا غرد القمري بكيتُ، وإن بكى أموت، وأفنى إن تغنَّى مع السَّحَرْ
وإن سجعتْ فوق الغصون سواجع أطارت فؤادي حيث كانت من الشَّجَرْ
وإن صوّتت بين الأراك بلابل بُليتُ بأنواع الشجون وبالفكَر
وإن هب نشر الروض زاد بي الهوى وكنتُ متى هب النسيم على خطر
أبى العيشُ صفواً والمحبةُ راحةً وإني بها طولَ الحياة على حذَرْ
رعى الله أهلَ الجَزْع لو علموا الذي أُصِبتُ به لم يُغفلوني من النظَر

وكنت بهم في طيبِ عيش ولذة ونلت بهم كلَّ الأماني مع الظفر
فيا قلب، صبراً علَّ أحظى بوصلهمْ وأسلم في باقي الزمان من الغِيَرْ

القمري: ضرب من الحمام البري مطوق حسن الصوت، جمعه قُمْر، وأنثاه قمريّةٌ، وجمعها قماري. وهو معروف في المدينة بعامة.

● هذا وقد ألف العلماء في فضائل قُباء مجموعة من الكتب منها:

١ - (جواهر الأنباء في فضاء قباء)، لإبراهيم الوَصابي.

٢ - (حُسن النّبا في فضل مسجد قبا) لمحمد بن علي بن علاّن الصديقي.

٣ - (زهر الربا في فضل مسجد قبا) للصديقي أيضاً.

٤ - (الحدائق الغوالي في قباء والعوالي) للكازروني.

يقول كبريت: (وبالجملة فإنها رياض رق أديمها، وراق نسيمها، ونمّ طيبها، وترنم عندليبها، وتحركت عيدانها، وتمايلت أغصانها) إلى آخر ما قال.

بقي أن نقول: إن قباء مرتبطة بأحداث إسلامية عظيمة، ووقائع جاهلية أيضاً مهمة، فحبذا الحفاظ على ما بقي بها من آثار لها عمقها العُروبي والإسلامي ودلالاتها التاريخية والشرعية، وفي مقدمتها مسجدها المبارك الذي شملته تجديدات خادم الحرمين الشريفين، فصار من أهم المساجد في المدينة المنورة مظهراً ومخبراً.

* * *

خواطر على خواطر الخطراوي(1)

د. عائض الردادي

منذ أن علم الأستاذ الدكتور محمد العيد الخطراوي باشتغالي بتحقيق كتاب (الجواهر الثمينة في محاسن المدينة) لمحمد كبريت، وهو دائم الاتصال بي والمتابعة، فما قابلته أو هاتفته إلا سألني عما أنجزت منه، وعن إتمام تحقيقه. ولا أستغرب ذلك منه فهو قد عنى بتاريخ المدينة وأدبها تأليفاً وتحقيقاً ونشراً، ولا أبالغ أن قلت إنه قد صرف جل جهده في سنيه الأخيرة إلى ذلك. مع عنايته فيما نشر بالنشر العلمي فيما هو في إمكان الباحثين مبتعداً عن تعجل المتعجبين أو استكثار المستكثرين من التأليف أو طالبي الوجاهة أو إثبات الوجود أو غير ذلك مما يلحظه من يتابع ما صدر عن هذه البلدة الطيبة من مؤلفات.

وقد سعدت بما كتبه الدكتور الخطراوي عن كتاب الجواهر الثمينة في جريدة البلاد في عددها ١٥٤٤١ يوم ١٤١٩/٦/٢٤هـ ولم أستغرب مبادرته لقراءة الكتاب الذي وصله منذ أيام، فما ذكرته سابقاً من اهتمامه به كان دافعاً له للمبادرة إلى قراءته ومن ثم الكتابة عنه. ومصدر سعادتي بما كتبه الدكتور الخطراوي له سببان: أولهما ما يشعر به الباحث من سرور عندما يقرأ كلمة تقدر جهده في زمن اختلط فيه الحابل بالنابل وبخاصة عندما تصدر من كاتب يقدر كلمته ولا يلقي الكلام جزافاً من مثل الدكتور الخطراوي الذي اطلع على ما نشر مؤخراً عن تاريخ المدينة وأرقه

ما أرقني مما سآتي على ذكره فيما بعد. وأكون مغالطاً إن كنت أزعم أن الباحث لا يسر عندما يقرأ كتابة منصفة عن عمله. وثاني السببين هو الروح العلمية التي كتب بها الدكتور وكم كنت سعيداً لو أكثر من الملاحظات على عملي في الكتاب. فأنا وغيري بحاجة إلى تلك الملاحظات لا إلى تدبيج المديح الذي لست بحاجة إليه والدكتور الخطراوي أرفع منه. فالكتابة تكون إبداء للمحاسن في غير مبالغة أو مجاملة وتوجيه للمآخذ في غير تحامل أو مجانفة.

ومع كل هذا الذي أثار في نفسي التقدير لما كتبه الدكتور فإنني سأعلق على بعض ما أورده. ولعل هذا المنهج الذي نهجه الدكتور يشيع في نقد كتابنا فنتخلص من المدح الباذخ أو الذم القادح اللذين يصدران عن عين رضا أو عين سخط.

والتعليق على ما سطره الدكتور الخطراوي هو دافعي للكتابة لا انشراحي بما كتبه؛ لأنه الأصل في عمل الباحث أن يكون قريباً من الكمال، تكثر فيه الحسنات، وتقل فيه العثرات وإن كنت - كما قلت في المقدمة (١/٥) «ليس لي أن أدعي الكمال وحسبي أن أكون قد اقتربت منه، وبذلت ما استطعت ولعل الكثير من محبي العلم يمدونني بما لهم من ملاحظات».

لقد عتب علي الدكتور فيما كتبه مرتين حين قال: (ولست أدري لم أغفل أخي الدكتور الردادي ذكر كتاب المرور بين العلمين في مفاخرة الحرمين لنور الدين الزرندي الذي طبع من سنوات بتحقيقنا، فهو دون شك مما ألف في فضل المدينة، ويزيده قيمة أن مؤلفه من المدينة، وبالمناسبة فقد غبت عن ذهنه مرة أخرى في تعليقه رقم (١) ص ٢٧ في إحالته في ترجمة الشاعر فتح الله بن النحاس الحلبي المدني وهو يعلم أنني كتبت عنه كتابة ضافية في مقدمة تحقيقي لديوانه منذ سنوات، سامح الله أخي الردادي، فهكذا حظي مع الأصدقاء).

أما كتاب المرور بين العلمين فلم أغفله بل استفدت منه بمطابقة النص الذي نقله منه كبريت على النص المطبوع بتحقيق الدكتور الخطراوي (١/٣٢٣) وأشرت إلى جهده هناك واستفدت منه ثم ذكرته في فهرس مصادر ومراجع التحقيق برقم ١٢٧

ص ٧٦٧ ولم أذكره ص ٣٢ عندما كتبت عن فضائل المدينة لأنني لست بصدد سرد كل ما ألف عن فضائل المدينة بل مثلت ببعض الكتب العامة في فضائلها مرتبة ترتيباً تاريخياً لأدلل على عناية المسلمين بالتأليف في فضائل المدينة منذ وقت مبكر حتى وقتنا الحاضر وأحلت في الهامش على مصادر ومراجع لمن أراد المزيد، وقد ذكر د. عبدالله عسيلان ٤٥ كتاباً في كتابه (المدينة في آثار المؤلفين) وما ذكرته منها ٢١ كتاباً للتدليل لا للاستقصاء، يضاف إلى ذلك أن كتاب المرور بين العلمين يدخل في نوع آخر من التأليف عن المدينة وهو كتب المفاضلة ومثله كتاب الحدائق الغالية في قباء والعالية وهي وإن كانت أقرب لكتب الفضائل لكنها تتميز عنها أو هي فرع منها.

أما ما أشار إليه من عدم إحالتي إلى ديوان ابن النحاس الذي حققه عندما عرفت بابن النحاس ص ٢٧ فلم يغب عن ذهني جهده ولكنني اتخذت لنفسي منهجاً عند الحاجة للتعريف ببعض الأعلام وهو أن أحيل على مصدر مكتفياً بمصدر واحد. بعداً عن الإطالة، ولو أردت أن أذكر كل من ترجم لابن النحاس أو نشر ديوانه لتضخمت تعليقاتي وذلك ما حرصت على البعد عنه، وهو لا يغض من جهد الدكتور وهو موضع تقديري وتقدير كل من سيتصدى لدراسة ابن النحاس.

وتطرق الدكتور لكثرة استطرادات كبريت وخروجه عن منهجه الذي حدده في مقدمته وهو الاقتصاد على محاسن المدينة المكانية والزمانية (وقد شرحت ذلك مفصلاً ص ٣٩) وعدها فضيلة لكبريت وميزة من ميزاته وظاهرة فنية تستحق الإكبار. ولا خلاف بيننا في ذلك فأنا أتفق معه بالرغم من كثرة اعتذار كبريت عن خروجه على منهجه وأن فعله ذلك من قبيل الجمل المعترضة. ففي بعض استطراداته من الفوائد ما حوى معلومات نفيسة.

وتطرق الدكتور إلى ظاهرة المجاورة فقال (أما ظاهرة المجاورة التي عرض لها المحقق وضخمها بعض التضخيم... وحبيبنا الردادي هو خير من عالج هذه المشكلة السطحية في كتابه عن الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري أحسن

معالجة، وتناولها أجمل تناول وبأسلوب حضاري رائع) وهنا لي تعليق على كلامه، فحين كتبت عنها في كتاب الشعر الحجازي درستها من ناحية ثقافية وذكرت إثراءها للحياة الثقافية في الحجاز وعددتها واحداً من أسباب انتعاش الثقافة فيه في القرن السابع وما بعده. وذكرت لما لكبار المجاورين من آثار محمودة لا يتسع المجال هنا لسردها. وقد أشرت هناك إلى أن هذا الأثر الإيجابي قد صاحبه أثر سلبي على أسباب العيش في ضوء كثرة المجاورين وقلة الموارد الاقتصادية. وهذا أمر معروف منذ أن كان عمر رضي الله عنه يأمر من ينادي بعد الحج (يا أهل الشام شامكم ويا أهل اليمن يمنكم).

أما ما كتبه في مقدمة الجواهر الثمينة فقد قلت ص ٤٢ أنني سأتناول من حال مجتمع المدينة زمن المؤلف ما له صلة بكتاب الجواهر الثمينة وهو ظاهرة تذمر السكان من كثرة المجاورين ومضايقتهم لهم في سبل العيش دون غيره؛ لأن ذلك هو ما أدى بكبريت لتأليف كتابه هذا وأشرت إلى أن ذلك لم يكن وليداً فقد فصل ابن فرحون (ت ٧٦٩هـ) في كتابه نصيحة المشاور ما كان في زمانه من اختلاف شديد حول الأرزاق مما يجعلنا نشك أحياناً في بعض ما ذكره من أحداث، وأشرت أن هذا الأمر قد تطور بعد كبريت إلى حروب ودماء مكتفياً بالإشارة للمصادر لمن رغب الاستزادة فموضوعي مقصور على ما يتعلق بكبريت وما شرحه في كتابه. مما كان يحصل من تجاوز من الكتبة والقضاة وشيوخ الحرم (الأغوات) عند توزيع التفرقة السلطانية (الحنطة) وأنه كان يعطي لكل فرد في نهاية الشهر حصة مقدارها ثلاثة أمداد مدنية ثم صار يعطي للرجل الواحد ستين حصة بالوجاهة وغيرها، وأنه لا سبيل إلى كتابة اسم المولود الجديد لضعفاء المدينة ليأخذ حصته ثم ما حصل في الأسماء من تزييف حيث كانت الأسماء ستة آلاف ثم زيفت إلى عشرين ألفاً (الجواهر الثمينة ص ٣٠٠).

وكبريت عدَّ المجاورة من محاسن المدينة لكنه نقل التذمر مما حصل من مجاوري زمانه وقد تناقل عنه ذلك أكثر من مؤلف (ذكرتها ص ٤٨) وعلق على ما أورده ابن فرحون من دعوة لموالاة المجاورين وخدمتهم وقضاء حوائجهم فقال: (قلت: الموجب لذلك عفة من كان يرد عليهم وما اشتملوا عليه من حسن السيرة... لا كأيامنا

التي لا يرد علينا إلا المنهوم الذي لفظته آفاقه. وتجافته رفاقه فلا يلهث حتى ينازع أهلها فيما بأيديهم... ص/ ٦١٢) وقد دفع ذلك كبريت أن يضع منهجاً للمجاورة فقال: (ينبغي لمن أراد المجاورة بالمدينة المنورة أن يكون لين الأعطاف، هين الانعطاف، حافظاً لحرمة مكانها، محافظاً على مراعاة سكانها، يشاركهم في أنديتهم لا في أغذيتهم، ويزاحمهم في أوقاتهم لا في أقواتهم، ويكتسب من أخلاقهم لا من أرزاقهم، ويقتبس من برهم (بكسر الباء) لا من برهم (بضم الباء) ويرغب في حبهم (بضم الحاء) لا في حبهم (بفتح الحاء)... ص/ ٦١٤).

وقد صنف كبريت بناء على هذا اللهاث وراء حطام الدنيا أهل المدينة في زمانه إلى الفئات التالية:

١ - قوم من أهاليها كأنهم لآليها.

٢ - منهم من رضي بالمقيل في خمائل الخمول.

٣ - منهم المحسن المؤثر على نفسه على ضيق الحال.

٤ - منهم من يكتسب وتكون به الخصاصة التامة والفاقة العامة، فلا تراه يشكو مضرته، ولا يقبل من أحد منته.

٥ - منهم المبتلى بأسنة الألسنة (ومن هؤلاء كبريت).

٦ - منهم من لحظه الطالع السعيد فجمع له بين الحسنتين (٤ و٥).

٧ - منهم من يرى ركوب البريد في طلب الثريد، وفيهم من هو أثبت في الدار من الجدار وأطفل من الليل على النهار (وهؤلاء الذين عناهم بما كتب).

ومما ساعد بعض سكان المدينة على الاستيلاء على الأرزاق دون غيرهم ما ذكره العياشي في رحلته من تعدد الحكام بها وما جره اختلافهم من متاعب لسكان المدينة. وقد أراد كبريت معالجة هذا الانفلات في الإدارة فقصد عاصمة الخلافة عام ١٠٣٩هـ ولكنه باء بالإخفاق وألف في ذلك رحلته (رحلة الشتاء والصيف) ثم أراد أن يقدم شكواه مكتوبة فضمنها كتابه هذا (الجواهر الثمينة) وأهداه لقاضي مصر حينما زار المدينة عله يوصل شكواه.

وكبريت كتب ما كتب عن مجتمع المدينة في زمانه والأسى بين عينيه ولهذا ختم كلامه بقوله ص/٦١٣: (وبالجملة فإن أهل المدينة المنورة بعد إلحاقهم الأسية هم أقرب الأمة إلى التجاوز والسماح... فتباً لمن ثلب لهم عرضاً، وبعداً لمن أضمر لهم بغضاً) وقال ص/ ٦١٤ (ينبغي لطالب سكنى المدينة ألا يضيق على المحتاجين بسكنى الأربطة. والمزاحمة على الصدقات. ولا يسعى في منع معروف، وكما يقال:

ياليت من يمنع المعروف يُمنعه حتى يذوق رجال مثل ما صنعوا)

وقد أحس كبريت بقسوة ما باح به قلمه عن أهل المدينة في زمانه فكرس خاتمة كتابه للاعتذار وإبراز ما لأهل المدينة من حقوق فقال ص/ ٦١٧: (إنهم حظوا بشرف المجاورة وثبت لهم حق الجوار، وإن عظمت إساءتهم فلا يسلب منهم اسم الجار) وقال ص/ ٦١٨: (ومن محاسن المدينة، وإن عظمت إساءتهم فلا يسلب منهم اسم الجار) وقال ص/ ٦١٨: (ومن محاسن المدينة أن حديث أهلها وذكر شمائلهم مما يرقص رؤوس الحكماء طرباً، ويحرك نفوس العلماء عجباً) ونقل عن ابن حجر قوله: (ينبغي أن ينظر إلى أهل المدينة بعين التعظيم ورعاية التكريم، ولا يبحث عن بواطنهم ولا عن ظواهرهم...) وقول ابن حجر أيضاً/ ٦١٩ (وصرف ما يتصدق به إلى أهل المدينة أولى على أي حالة كانوا، وذلك لأن شرف الجوار الثابت لهم أوجب الإعراض عن مساوئهم والنظر إلى حرمتهم، وما شرفوا به من شرف ذلك الجوار).

وهكذا يتضح مما سبق أنني لم أبدِ رأياً، ولم أدرس المجاورة، وبالتالي لم أضخمها كما أشار الدكتور الفاضل، بل عرضت كلام كبريت الذي كان سبباً في تأليفه للكتاب مدعماً لآرائه بنصوصه، وقد اعتدت أن أبعد العاطفة فيما أكتب، ولولا ذلك لما رضيت عن كثير مما ذكره كبريت عن أهل المدينة وإن كان يصف أهل زمانه لا أهل زماني، وقد أصبحت المجاورة تاريخاً وإن كانت بحاجة لدراسة من باحث يتناولها من جميع جوانبها التاريخية والثقافية والدينية فقد كانت ظاهرة مهمة في القرون الماضية، وللإنصاف فإن كبريت لم يرد العباد ولا العلماء وإنما أراد من وصفهم في البند السابع ممن ضيقوا على المحتاجين، وزاحموا على الصدقات

وخانوا أمانة المسؤولية، وأبعدوا الحب (بضم الحاء) وأقبلوا على الحب (بفتح الحاء) وركبوا البريد في طلب الثريد، وقد قلت في المقدمة ص/٢ إن مما شدني إلى كبريت وكتابه اعتداده بنفسه وإكرامه لها عن الذل والمهانة وحبه للمدينة وأهلها حباً تدفعه المصلحة العامة لا الخاصة وتنوره الفكري إلى حد ما... وأضيف هنا صدقه وعدم سيطرة العاطفة عليه بالرغم مما في كتابه من حب جارف للمدينة وأهلها ولو لم يكن ذا نفس أبية لأكل بالباطل كما أكل غيره، وله من الوجاهة الاجتماعية ما يمكنه من ذلك، أو لسكت كما سكت غيره وترك القوي يأكل الضعيف في أحب البقاع إلى الله.

وبقيت نقطة لابد أن أشير إليها وهي إنفاقي مع الدكتور الخطراوي في ما ذكره في آخر مقاله من أنه آن الأوان للمخلصين أن يوقفوا عبث بعض العابثين بتراث المدينة ويمنعوهم من النشر المشوه لتاريخ المدينة، وقد كان أكثر مني صدعاً بالحق، فيما كتبته في مقدمة الكتاب ص/ ٨١ بعنوان (حول نشر كتب تاريخ المدينة) وأؤكد ما قلته هناك، وهو أن تاريخ المدينة أمانة في أعناقنا، ومن كمال حب المدينة أن ينشر تاريخها نشراً علمياً، فهذا أمر يؤرق كل محب لها حين يرى من لا دراية له يتصدى لأمر لا يحسنه.

* * *

الزُّلَلِي والإعجاز العلمي في القرآن والسنة[1]

توسعت العلوم في العصر الحديث توسعاً عظيماً، وتطورت الاختراعات تطوراً مذهلاً، واستطاع الإنسان من خلال ذلك أن يعرف التركيبات الدقيقة لبعض موجودات الكون، ويدرك كيفية تكونها وتخلقها، ويكتشف العلاقات التي تحكمها فيدوّن كثيراً من الحقائق العلمية الباهرة، مما اعتبره فتحاً عظيماً، وإعجازاً علمياً يدل على القدرات الكامنة داخل العقل البشري، ونتج عن ذلك بعض التأليه للطاقة والعقل، والانفصال عن الجوانب الإيمانية، وأحدث في العالم الإسلامي رجة عنيفة كاد يطيش لها عقل الحليم، غير أن الله قيض فئة من عباده المؤمنين لمقابلة تلك الرجة بوقفات إيمانية راسخة، ودرس عميق للكتاب والسنة، بحيث استطاع أولئك الدارسون أن يستنبطوا منهما ما جاء فيهما من إشارات لافتة وإيضاحات باهرة في كثير من مجالات العلم، حول الكثير من الكائنات الحية وغير الحية، سبقت أحاديث هؤلاء المكتشفين، وعقدت الندوات والمؤتمرات لمعالجة موضوع تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، كالمؤتمر العالمي الأول المنعقد في (إسلام أباد) بباكستان ٢٥ – ٢٨ صفر ١٤٠٨هـ هجرية، والذي نشرت مباحثه رابطةُ العالم الإسلامي بمكة المكرمة في كتاب جامع.

● وبهذه المناسبة يطيب لي أن أطرح وجهة نظر لي صغيرة حول مصطلح الإعجاز، لأن القرآن الكريم منزل للتعبد والإعجاز، أما ما ورد من ذلك في الأحاديث النبوية المطهرة، فأوثر تسميته بأعلام النبوة كما كان يسميه القدماء، للتفريق بينها

---

(١) نشرت بصحيفة (البلاد) ١٤١٩هـ.

وبين القرآن الكريم، إلا أن يكون إطلاق كلمة الإعجاز على الحديث من باب التغليب فقط.

● ولقد ظهرت كتب معاصرة طرحت موضوعات عديدة من أوجه الإعجاز القرآني والحديثي، منها هذا الكتاب الذي نحن بصدده، (وجوه متنوعة من الإعجاز العلمي في القرآن والسنة)، لصاحبه الدكتور عبدالبديع حمزة زُلّليّ (بضم الزّاي) الذي أفضل علي بنسخة منه تتمثل في الجزء الأول، الذي سوف يليه الجزء الثاني قريباً إن شاء الله.

يقع هذا الجزء في (٢٧٦) صفحة، مضافاً إليها قائمتي المراجع العربية والإنجليزية إلى (ص ٢٨٥).

● والسؤال هو: هل نزل القرآن الكريم وجاءت الأحاديث النبوية لأداء مهمة علمية، فنبحث فيها عن النظريات والحقائق العلمية الواردة في الكيمياء والفيزياء والجيولوجيا، أو نزل لمهمة أكبر من ذلك؟ فإن أقواماً جزموا ببعض الدلالات القرآنية والحديثية في هذا الشأن، وربطوها بنتائج المعامل والمختبرات وأخضعوها لفهم البشر المحدود، ثم جاءت آليات حديثة وأجهزة أدق من سابقتها، فنقضت ذلك أو بعضه، فأدى ذلك إلى نقض الدلالات القرآنية والحديثية، وذلك أمر خطير، يشوش على العامة وبعض الخاصة، لذا فإن المناسب في تصوري أن ننأى بالكتاب والسنة عن هذه الأفهام، وينبغي أن لا نزج بالثابت في المتحول، وبكلام الله ورسوله ضمن المقولات البشرية، إن القرآن الكريم في اعتقادي إنما نزل للتوجيه، ولتنوير العقل وتنوير الفكر، ومن ثم لمنح الإنسان الطاقة الروحية السلوكية التي يتعامل بها مع مفردات الكون، حدد القرآن موقع الإنسان في هذا الوجود ببيان علاقته بربه، وبالناس والكون والحياة، وفتّق له المناهج والطرق والوسائل، وهداه النجدين ثم ترك له الخيار. لم ينزل القرآن بنظريات علمية، ولكنه أكد على ضرورة العلم، وجعل التفكر عبادة، ودفع إلى التبصر في النفس وفي كل آفاق الحياة، وأشار إلى بعض الحقائق العلمية في سياق عرضه للقضية الإيمانية الكبرى، لأنه يرى أن القوة المادية يجب أن تكون محكومة بالقوة الروحية الإيمانية، وإلا تحولت إلى وسيلة إفساد وتدمير.

● وفي بداية العصر الحديث وضع الشيخ طنطاوي جوهري ما سماه تفسيراً علمياً للقرآن الكريم مرتكزاً على العلوم المعاصرة، ففشل أيما فشل، وأقحم القرآن فيما لم يتنزّل له، وجزم بدلالات قرآنية علمية، تبين بعد حين بطلانُها.. وهذا هو عين ما نحذّر منه وننبه إلى خطورته.

● وقد أخرج الإمام الترمذي في (باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه) أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار).

وقد أشار المؤلف الزللي إلى هذا الجانب، ولكنه عاد فأورد الآيات الداعية إلى التدبر والتفكر في ملكوت الله ومخلوقاته وذلك كقوله تعالى: **﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقتْ، وإلى السماء كيف رُفعتْ، وإلى الجبال كيف نُصبتْ، وإلى الأرض كيف سُطِحت﴾**. وقوله تعالى: **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾**، وغيرها من الآيات الكثيرة.

● وحاول الزللي أن يقوم بالتوفيق بين النصوص الدالة على التحذير من الجرأة على كتاب الله وسنة نبيه بالتفسيرات التي قد تكون بعيدة عن المقاصد الشرعية، وبين النصوص الدالة على وجوب التفكر والتدبر.

وجاء الكتاب في بابين رئيسين، تحدث في الباب الأول عن تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة وذلك من (ص ٢٩ - ٥٢) أما الباب الثاني فقسمه إلى ثلاثة فصول، تحدث في الفصل الأول عن الإعجاز في ترتيب الألفاظ والكلمات في القرآن والحديث، وتناول فيه ثلاث مسائل: الأولى عن الإعجاز في ترتيب الفواكه قبل اللحوم وغيرها من المأكولات، في القرآن الكريم ودلالته العلمية، حيث ورد هذا الترتيب في القرآن الكريم في أربع عشرة آية. أو نقول: إنها ركزت على الفواكه. يقول المؤلف: (معظمنا يعكس في حياته اليومية ترتيب أكل الفواكه. فقد اعتدنا أن نتناول الفاكهة عند آخر الأكل)، ثم يقول: (والدراسات العلمية والأبحاث التجريبية أظهرت لنا حقائق تفرض علينا أن نغير من الترتيب الذي اعتدنا عليه، وأن نجعل الفاكهة هي الطعام الرئيس، ويأتي من بعدها أنواع الطعام الأخرى).

● والمسألة الثانية عن الإعجاز في ترتيب أنواع العسل في القرآن الكريم. وذلك حين قال تعالى: ﴿**وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذُلُلاً، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، إن في ذلك لآيةً لقوم يتفكرون**﴾ – النحل ٦٨ – ٦٩/ فقد رتبت الآيتان بين الألفاظ على النحو التالي: (الجبال – الشجر – مما يعرشون – الأكل من الثمرات المختلفة والمتنوعة – سلوك السبل والطرق – خروج العسل، وهو الشراب المختلف ألوانه، والذي فيه شفاء للناس).

● والمسألة الثالثة من الإعجاز في ترتيب ألفاظ الماء والثلج والبرَد (بفتح الراء) في الأحاديث النبوية، فقد ورد في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو بين التكبيرة والقراءة بقوله: (اللهم باعد بين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقّني من الخطايا كما ينقّى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرَد).

يقول الزللي: نجد أن الحديث الشريف قد قدم الغسل بالماء أولاً، ثم أتى بالثلج ثانياً، وأخيراً بالبرد، ونجد أن هذا الترتيب يتفق بصورة رائعة ومدهشة مع الواقع إذ يأتي ترتيب عمليات غسل الهواء بالماء أولاً، ثم يليه الثلج، ثم البرد.. إلخ/

● أما الفصل الثاني فقد تحدث فيه عن الإعجاز في الأمثلة والتشبيهات، إذ أن القرآن الكريم اعتمد في تعليمه وتوجيهه كثيراً على ضرب الأمثلة والإحالة عليها ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون**﴾، في هذه الأمثلة والتشبيهات إشارات إلى حقائق علمية وأمور لم يعلم بها البشر قبل الإسلام، ومن ذلك ما جاء في ضرب المثل بالماء النازل من السماء، حيث جاءت مجموعة من الآيات لا تقل عن السبع في هذا الصدد منها قوله تعالى: ﴿**واضرب لهم مَثَل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً**﴾ الكهف/ الآية ٤٥/ حيث جاءت الآيات في سياقات مختلفة، بترتيب مختلف في حركة الماء وآثار إنزاله بما يتناسب مع ذلك السياق، وبما يعطي زخماً من

الدلالات العلمية ذات الآثار العديدة في تركيب مكونات الكون، فقد تحدث في الآية الأولى (يونس ٢٤) عن الإتاحة والإمساك في التربة، وفي الثانية (الكهف ٤٥) تحدث عن الأسيد الذي يتنزّل من السماء مع الماء، فيهلك الحرث والنسل. وتحدث في الثالثة (الزمر ٢١) عن ظاهرتي الترسيب والاهتزاز بوساطة حبيبات التربة، والاحتجاز بوساطة المواد العضوية. وفي الآية الرابعة (الأنعام ٩٩) تحدث عن نمو الجنين النباتي وتحوله إلى نبات بالغ، وعمن يغذي هذا النبات الصغير عند فطامه، وعن مصانع الغذاء التي تتخلق في النبات عند فطامه، ويبين أن الحقائق العلمية تنسجم تماماً مع هذه الآية الكريمة. وفي الآية الخامسة (الحديد ٢٠) تحدث عن تهيج النبات واصفراره، وصبغات اليخضور، وتيبُّس النبات وتهشمه. وتحدث في الآية السادسة (البقرة ١٦٤) عن علاقة الليل والنهار بجريان الفلك في البحر، ونسيم البر والبحر، وعن علاقة الليل والنهار بنزول الماء من السماء ونمو النباتات وازدهارها. ثم تحدث عن الدواب المبثوثة في الأرض، وتصريف الرياح والسحاب المسخر. وفي الآية السابعة (الجاثية ٥) تحدث بقريب من هذا أيضاً.

قال الدكتور حسن باحفظي مقدم الكتاب: (ثم تحدث في هذا الفصل أيضاً عن مَثل (بفتح الميم) الماء في الأحاديث النبوية الشريفة وعلاقته بإزالة أدران وأوساخ الجسد وامتصاص الحرارة وفي هذه النقطة ذكر عدة استخدامات للماء، فذكر اللف بالكمادات الباردة، والحمام البارد، ومغطس الماء البارد، والتبريد في حالة ضرب الشمس، وشرح الفرق بين ألفاظ الأحاديث التي تتحدث عن معالجة الحمى بالماء البارد (أطفئوها، أبردوها، نحّوها).

● وجاء ا لفصل الثالث بعنوان (الإعجاز في توجيه الضمير)، كتوجيهه تعالى الضمير أو الخطاب إلى أنثى النحل وإلى أنثى العنكبوت، وتحدث باستفاضة عن حياة النحل وعالم العناكب بما يظهره قدرة الخالق، ويكشف عن الإشارات العلمية المعجزة الواردة في النصوص، والسابقة لكل المكتشفات الحديثة.

وقبل أن أختم مقالي أود أن أعود إلى الإشادة بهذا الكتاب وموضوعه

وبالجهود التي بذلها فيه مؤلفه، وأجدها فرصة لأحيي فيه هذه الطاقة البحثية، متمنياً أن يظهر إلى الوجود في حياتنا أثر البحوث العلمية الجامعية، وألا يكتفي أساتذة الجامعات بالحصول على العمل ووضع شهاداتهم في براويز، فإن وطنهم في حاجة ماسة إلى جهودهم العلمية وطاقاتهم الفكرية، ليسهموا في مسيرة البناء والتشييد، وفي انتظار صدور الجزء الثاني إن شاء الله.



أبو حفص السُّلمي الشاعر[1]

هو عمر بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عمر السُّلمي. نسبة إلى بني سُليم، استقر أجداده بالأندلس في جزيرة (شَقُورة)، وولد هو بأَغْمات بالمغرب الأقصى سنة ٥٣٠ هجرية، وأغماتُ هو البلد الذي مات فيه المعتمد بن عباد سجيناً، ثم سكن فاس، وتخرج في علوم الشريعة والعربية على يد مشايخها، وقد كانت فاس في عصره من الحواضر العلمية الإسلامية، كما هو شأنها على مر التاريخ، وبخاصة بعد إنشاء جامع القرويين فيها. ونبغ في الفقه والأدب. فأما نبوغه في الفقه فقد هيأه لتولي القضاء في تلمسان، ثم خلف والده على قضاء فاس بالإضافة إلى خطابة المسجد الجامع فيها، ولكنه تعرض لوشاية الحساد من منافسيه ومزاحميه، فنُقل للعمل في قضاء أشبيلية إلى أن مات سنة ٦٠٣.

وقد اشتهر في قضائه بالعدل في الأحكام، والصبر على المتخاصمين، وعدم الضيق ببسط حججهم، كما كان معروفاً بالظرف وسرعة البديهة، كالشعبيّ وغيره من بعض علماء الأمة المعتبرين، وكان كثير الاهتمام بمأكله وملبسه ومسكنه، محبباً إليه الطيب والنساء، تشم رائحة الطيب منه على بُعد، وإذا غُسلت ثيابه لا يكاد يفارقها، وكان منزله كأنه الجنة، ويكتب شعراً غزلياً اشتهرت بعض مقطعاته، وموشحاته عند المغنين، وذلك كقوله:

(حُسّانةٌ) رخيمهْ عانقتُ منها البانَهْ
والنَّقَى الرجراجْ واشوقي لحُسّانَهْ!

(١) نشرت بصحيفة (البلاد) ١٤١٩هـ.

حُسَّانة:: اسم امرأة. ولغزله وانتشار شعره بين الناس بالغناء، وقف ضده بعض العلماء من أقرانه، فأرسلوا إلى المنصور يطعنون فيه وفي صلاحيته للإمامة والقضاء (المنصور: هو أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن المنصور بالله، الخليفة الموحِّدي. بويع له بمرّاكش بعد وفاة أبيه سنة ٥٨٠، وتوفي بمدينة سَلاً عام ٥٩٥ هجرية)، ووافق الشكوى حادث آخر حصل من أحد أقربائه، استغله أعداؤه ضده، وهو أن ابن أخ له غصب امرأة للدخول إلى منزله واعتدى عليها، (وشهِد بذلك عند أبي موسى بن رُمَّانة - حافظ فاس - جماعةٌ، فأمر بإحضار المذكور بعد صلاة الصبح وضرَب عنقه، وطلع القاضي ليتكلم فيه، وقد بلغه أنه متعفِّف، فقيل له في الطريق: إنه قد فات الأمر، فرجع).

وكتب فيه الحافظ إلى المنصور، وأعلمه بما حصل، ونقل له إجماع فقهاء أهل فاس على تأخير الشيخ أبي حفص السلمي عن الإمامة والخطابة، وتولية غيره، حتى يصل الإذن من السلطان بإقرار من عينوه أو تعويضه بغيره. فاستلحق السلطان أبا حفص وأحسن وفادته، وولاه قضاء أشبيلية كما أشرنا قبل قليل.

وانظر إلى أي مدى كان يتصرف الفقهاء في دولة الموحدين في أقطار الأندلس وبلاد المغرب، مما عجل بسقوط دولتهم. إذ كيف يجرؤ الفقيه ابن رمانة، مهما كان شأنه أنيتدخل في شؤون الحكم ويصدر الأحكام وينفذها دون رجوع للقاضي أو حاكم مدينة فاس المعين من الدولة، إن هذا لأمر عجاب.! لقد كان على السلطان أن يعاقبه بما يشاء، ليستتب الأمن، ويأمن الناس على أرواحهم، كان على هذا الشيخ أن ينكر المنكر ويرفع ذلك لأولي الأمر، لا أن يتولى تغييره بنفسه بالقتل، ولو ترك ذلك لكل أحد لعمت الفوضى وغدا كل الناس حاكمين.! وصارت الأمور كما يقول أهل الشام (كلّ مين إيدُو إِيلُو). إن هذا الشيخ حفظ الأحكام لكنه لا يعرف كيف ينفذها ويجريها، ولعل ذلك ما جعل المنصور يعدل عنه في القضاء، فيعين أبا حفص ولا يعينه، ولكن حمقه يحركه ليفضح سوء تصرفاته بتدخله فيما ليس له، نعوذ بالله أن نكون من الجاهلين.

● وأما أدب قاضينا أبي حفْص السُّلمي فقد تجلى في ذوقه الرفيع في جميع شؤون حياته، وفي أشعاره الرقيقة الرائعة، وقد شهد القرآن للشعراء بأنهم يقولون ما لا يفعلون، كما أن من حق المرء أن يتغزل في زوجه وملك يمينه أو يتخيل ما يشاء.

ومن أغزال شيخنا قوله:

همُ نظروا لواحظَها، فهاموا ... وتشربُ عقلَ شاربها المُدامُ
يخاف الناسُ مقلتَها سواها ... أيذعَرُ قلبَ حامله الحسامُ؟
سما طرفي إليها وهو باكٍ ... وتحت الشمس ينسكب الغمامُ
وأذكر قدّها فأنوح وجدًا ... على الأغصان تَنْتدب الحمام
وأعقبَ بينُها في الصد غمًّا ... إذا غَرُبتْ ذُكَاءُ أتى الظلامُ

ومن شعره المشتهر في عصره بين الشرق والغرب قصيدته الميمية التي منها:

لها ردف تعلّق من لَطيفٍ ... وذاك الرِّدفُ لي ولها ظَلُوم
يُعذِّبني إذا فكّرتُ فيه ... ويتعبها إذا رامت تقوم

وفيها يقول:

أعيذكِ يا سُلَيْمى من (سُلَيْمٍ) ... قتلتِ فتاهمُ وهو الزعيمُ
أماتَكِ طالبٌ بِتِرات قتلي ... إذا قتل الغرام فلا غريم

ومنها:

إذا أعرضت تسودّ الأماني ... وإن أقبلت تبيضُّ الهمومُ

وكانت تجمعه بعض المجالس مع شعراء عصره، فيتناشدون الأشعار، وربما استجازوا لبعضهم تنشيطاً للقرائح، ومن ذلك مجلسه مع أبي بكر بن ميمون وأبي العباس أحمد بن عبدالسلام الكورائي، أو القُورائي، وقيل الجراوي. حيث قال الكورائي:

مازلتُ أضرب بالقنا المنآدِ ... حلَقَ الدروع، وأنفُسَ الحسّادِ

فقال ابن ميمون:

وحسبتُ أنّي لا أُراعُ لحادثٍ ... حتى بُليتُ بسطوة الأحقاد

فقال أبو حفص:

من لم يبت والبينُ يصدع قلبه ... لم يدر كيف تفتّتُ الأكباد.!

وكان الكورائي هذا شاعراً كثير الهجاء، وتحرش بأبي حفص ذات مرة، لكنه لم يجاره في هجائه وإنما رد عليه بلطف، قال الكورائي:

نبغتْ عمرةُ بنتُ ابنِ عُمَرْ ... هذه، فاعتبروا إحدى العبَرْ
قل لها عنّي إذا ما جئتها ... قولةً تتركُ صدْعًا في الحجَرْ:
هبْك كالخنساء في أشعاره ... أو كليلي، هل تجارين الذكر.؟

فإجابه ابن حفص:

نهانيَ حلمي، فما أَظلمُ ... وعزُّ مكاني، فما أظلَمُ
ولابدْ من حاسد قلبهُ ... بنور مآثرنا مُظلِمِ
يغانا الحسودُ، ولسنا كما ... يقول، ولكن كما يَعلَمُ

وخرج في صباه مع شيخه أبي ذر الخُشَني النحويّ، شارح سيرة ابن هشام في نزهة برية مسائية، فأثرت الشمس في وجهه وكان وسيماً، فقال الشيخ:

وسمتْك الشمس يا عمرُ ... وسمةً بالحسن تُعتَبَر

فقال أبو حفص على البديهة:

علمتْ قدر الذي صنعتْ ... فانثنتْ صفراءَ تعتذرُ

ولشاعرنا السُّلمي مدائح في المنصور ووالده، فمن مدائحه في الوالد (الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن) قصيدته التي آخرها:

يا سامعين أماديحَ الإمام ألا ... فاجثُوا على رُكبِ الإعظام أو قوموا

حيث قام جميع من في المجلس.

ومن مدائحه في المنصور بالله قصيدته التي هنأه فيها بانتصاره في موقعة الأرَك بالأندلس (الأرك: حصن منيع كان لأدفونش صاحب قشتالة، وكانت الدائرة في الموقعة على الصليبيين الحاقدين، وذلك سنة ٥٩١ هجرية)، يقول أبو حفص:

أطاعتْك الذوابلُ والشّفارُ ... ولبّى أمرَك الفلَكُ المُدار

ببشرى مثل ما ابتهجت رياض ... وسَعْدٍ مثل ما وضح النهار

وفتْحٍ مثل ما انفتحت كِمامٌ ... وشُقّت عن صدور مَهًا صِدار

وآمالٍ كما مُدّت ظِلال ... وأفعالٍ كما مُدّتْ بحار

وأعلام بنصرك خافقاتٌ ... لها في كل جوّ مُستطار

ليُهنِئَ أرضَ أندلس بُدورٌ ... من السُّرّاء ليس لها سِرَار

وهكذا كان أبو حفص قاضياً عادلاً، وفقيهاً عالماً، وذكياً حاضر البديهة، وغزلاً عاشقاً، وشاعراً حماسياً، يتغنى بانتصارات المسلمين، ويشيد بمفاخر السلاطين المجاهدين.

* * *

فؤاد إسماعيل شاكر[1]

هو شاعر، وصحافي من الدرجة الأولى، ذلك أنه بدأ اشتغاله بالصحافة منذ حوالي سنة ١٩٣٠م، وتسلم رئاسة تحرير (صوت الحجاز) عام ١٩٣١م لمدة سنة واحدة، ثم رأس تحرير عدة صحف على فترات مختلفة كجريدة (أم القرى)، وجريدة (البلاد السعودية)، فكان الصِّحافي المثقف إذا ما كتب مقالة أو احتفى بمناسبة، والإخباري الدقيق إذا ما حرر خبراً أو أشرف على تحريره، مما جعل له بصمة مميزة وأسلوباً خاصاً بين زملائه، كان من نتائجه كتاب (الصحفي - أو - كيف تكون صحفياً؟) الذي طبع سنة ١٩٣٢م. (لاحظ: أن الصواب: صِحافي، لا صَحَفي).

وبلغ عدد مؤلفاته ثمانية عشر كتاباً، منها: (غزل الشعراء بين الحقيقة والخيال) المطبوع سنة ١٩٣٤م، و(أدب القرآن) سنة ١٩٣٧م، و(رحلات في ميادين العمل والجهاد) سنة ١٩٥٤م.

اشترك في كثير من المؤتمرات الأدبية والسياسية ممثلاً لبلاده المملكة العربية السعودية، ولنستمع إليه في إحدى حفلات البعثات السعودية بدار كلية الآداب بمصر، وهو يصدح بقوله:

باسم الحجاز، وباسم العلم والأدب
هتفتُ بالشعر في كلية الأدب

(١) نشرت بمجلة (الدارة) العددان ٣ و٤ - السنة ٢٤ - ١٤١٩هـ.

هـــنـــا تمـــثّـــل مـــجـــدُ الـــضـــاد مُـــؤتـــلـــقـــاً
كـــأنّـــه الـــشـــمـــس لـــم تـــحـــجـــب ولـــم تـــغـــب
هـــنـــا تمـــثـــلـــت الـــفـــصـــحـــى، ولا عـــجـــبٌ
إذا أطـــلـــت عـــلـــى الـــتـــاريـــخ والحـــقـــب
هـــنـــا تـــعـــانـــقـــت الـــفـــصـــحـــى مـــؤيـــدة
فـــيـــه، أواصـــرهـــا بـــالـــودّ والـــقُـــرب

ذلكم هو الشاعر فؤاد إسماعيل شاكر (١٣٢٣ - ١٣٩٢هـ).

وديوانه الذي بين يدي الآن هو (وحي الفؤاد)(١)، ولعلنا نلاحظ بادئ ذي بدء من مجانسته بين اسمه واسم الديوان، مدى اعتزازه بشعره، واعتقاده مسبقاً أنه ممثل له، ناقل عنه أفكاره وأحاسيسه بكل أمانة وصدق، والديوان على كل حال يضم زهاء أربع مائة صفحة، ومما يؤكد فكرة الاعتزاز هذه عند شاعرنا اهتمامه بتجميع التقريظات النثرية والشعرية لشعره، والإخوانيات التي كتبها عنه زملاؤه أو أرسلوها إليه في المناسبات المختلفة، ومركزه الصحافي والوظيفي كان يهيِّئ له الكثير من هذه الإخوانيات، ليس هذا تمهيداً للغض من قيمة شعره، فهو من الشعراء الرواد بلا ريب، من حيث ولوج رياض الشعر والأدب وتعاطيهما في وقت مبكر على الأقل، ومن هؤلاء الذين تبادل معهم المجاملات الشعراء: محمد سعيد دفتردار شاعر المدينة المنورة، والسيد حسن القاياتي، عضو المجمع اللغوي بمصر، والدكتور زكي المحاسني، وأبو تراب الظاهري، وإذا تذكرنا أنه بدأ كفاحه الصحافي والأدبي منذ عام ١٩٣٠م علمنا له مكانته وسلمنا بريادته وتقدمته.

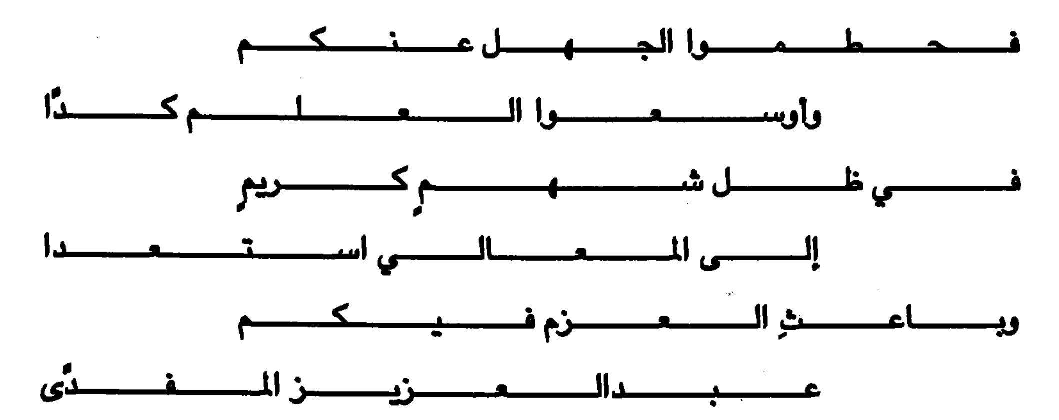
يقول كاتب مقدمة الديوان الأستاذ محمد سعيد العامودي: (في هذا الديوان نلتقي مع شاعر يحرص على أن ينثر من ذكرياتنا، وأن يستلهم من ماضينا ومن حاضرنا ومن كل حدث مثير: كل ما يستحث العزائم ويدفع إلى النهوض).

وما قاله الأستاذ العامودي هو بحث يمثل الجزء الأكبر من الديوان، فلم يدع

مناسبة وطنية أو تاريخية، عربية أو إسلامية، إلا اهتبلها وكتب فيها، فأجاد الوصف، وأحسن الرصف، وحرك الهمم والأفهام.

يقول في الاحتفال الثاني الذي أقيم بمناسبة ذكرى جلوس جلالة الملك عبدالعزيز - رحمه الله - وشهده كثير من الكبراء ورجال الدولة والأعيان ورجال السلك السياسي العربي والأوروبي، برئاسة الأمير فيصل نائب جلالة الملك يومذاك، وذلك سنة ١٩٣٠م يقول:

يا صاحب العيد مهلاً
قد طاب عهدك عهدا
عيدٌ أطل بوجه
يرف في الناس سعدا
يضوع ريًّا شذاه
مسك، ويأرج ندًّا
حمدت يومي وإني
سأوسع الدهر حمدا
ذممت أمسي، وأمسي
قد كان يحمل إدًّا
شبيبة العُرب أهلا
بكم جلالاً وجدًّا
أُوحوا نجومًا، وروحوا
في لبة المجد عقدا
نسجتمُ للمعالي
مناسج الفخر بُردا



فحطموا الجهل عنكم وأوسعوا العلم كدًّا

في ظل شهمٍ كريمٍ إلى المعالي استعدا

وباعثِ العزم فيكم عبدالعزيز المفدّى

فهو إذن قد رافق مرحلة التكوين الجاد لهذه المملكة، والكفاح البطولي الرائع في مجال الفكر والسياسة، الذي اختطه الملك عبدالعزيز، وأرسى أركانه بعبقريته الفذة وفكره المستنير، فكانت نتائجه هذه العهود الزاهرة التي نتفيأ ظلالها اليوم ونعيش أمنها واستقرارها، ومن هنا كان شعره وثائق أدبية وتاريخية مهمة لفترة أكثر أهمية من تاريخ مملكتنا الحبيبة، لا يستغني عنها مؤرخو الأدب ولا أصحاب التاريخ العام[٢].

وسيكون حديثنا في هذا المقال عن شعره الذي كتبه في أثناء حكم الملك عبدالعزيز – رحمه الله –، وقد تتبعته في ديوانه فوجدته عبارة عن ستين قصيدة، تبلغ أبياتها (١٦٤٠) بيتاً، بداية من صفحة ١٧ بقصيدة (ذكرى الجلوس الملكي الثاني) وانتهاءً بصفحة ١٣٣ بقصيدة (وقفة صامتة) مما يعني أننا نستطيع أن نصنع منها ديوان شعر مستقل، قد نسميه (الفؤاديات رقم ١)، أو (ألحان)، أو نحو ذلك، تقديراً لعهدها أو موضوعها، وتمييزاً لفترتها عن بقية الفترات، ورغم أن هذه القصائد تدور حول محور واحد هو شخصية الملك عبدالعزيز ومنجزاته، فإنه يمكن تقسيمها على النحو الآتي:

الموضوع	عدد القصائد	الصفحة
١ – ذكرى الجلوس	٢	١٧، ٦٤
٢ – انتصارات ووطنيات	١٣	٢٣، ٢٨، ٣٣، ٣٨، ٤١، ٤٥، ٤٨، ٦٥، ٦٧، ٩٢، ٩٣، ١١٤. ١٢٠
٣ – تكريم الحجيج	٩	٢١، ٢٥، ٣١، ٣٣، ٣٦، ٤٣، ٥٣، ٥٧،
	٢٠	٥٩
٤ – بين يدي الأمير فيصل بن عبدالعزيز نائب جلالة الملك عبدالعزيز على الحجاز	١٠	٧٥، ٧٧، ٧٩، ٨١، ٨٣، ٨٥، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٦
٥ – مناسبات ملكية عامة	١١	٥١، ٥٥، ٦٠، ٦٢، ٦٩، ٧٣، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٨
٦ – موضوعات عمومية		١٠٣، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٨، ١١٠، ١١٢، ١١٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٢

وبالرجوع إلى تواريخ هذه القصائد نجد أنها مكتوبة ما بين سنة ١٣٤٩هـ وسنة ١٣٧٣هـ وهذا ما قلناه قبل قليل، من أنها مكتوبة جميعها في عهد الملك عبدالعزيز.

قصائد القسم الأول – (ذكرى الجلوس):

هما قصيدتان، ألقيت الأولى بوادي فاطمة، أمام رجال السلك الدبلوماسي، بحضرة الأمير فيصل نيابة عن أبيه، ولذلك تشكلت وفقاً لهذه النقاط، حيث برزت شخصية الحجاز ونجد، وقد كان الملك عبدالعزيز يسمى آنذاك: (ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها):

قيل: الحجاز ونجد

فقلت: جددت عهدا

أولئك القوم قومي

من طاولوا الناس مجدا

وقارن بين الماضي والحاضر المشرق، ليقنع الدبلوماسيين الحاضرين باعتزاز الأمة بموطنها ومليكها فقال:

في دجوة الظلام نمشي

وظلمة الجهد نَرْدَى

حتى تبدل عهدي

وعاد أنضر عهدا

وعاد ما كان صابا

بأنعُم الله شهدا

وآب ليلي نهارًا

وآب يومي سعدا

حمدت يومي وإني

سأوسع الدهر حمدا

وخاطب صاحب العيد فقال:

يا صاحب العيد مهلاً

قد طاب عهدك عهدا

يا صاحب العيد مرحى

أوسعت شعبك رفدا

لم يشهد الغُرب مَلْكا

أبرَّ منك وأندى

ولا أعــــــــــــزّ جــــــــــــــلالاً

ولا أجـــــــــــلّ وأجــــــــــــدى

كما خاطب راعي الحفل الأمير فيصل فقال:

يـــــا فـــيـــصـــل الحـــق اذكـــرْ

تَـــنـــي الحـــســـام الـــفـــرنـــدا

وكـــيـــف راح مـــضـــاءً

وكـــيـــف أرهـــف حـــدّا

ثم دعا إلى العلم والتآخي ونبذ الجهل، وهي أمور أحسّ بها المثقفون، وعمل من أجلها الملك عبدالعزيز طوال حياته:

يـــا صـــفـــوة الـــعـــرب أهـــلاً

بـمـــكـــم شـــيـــوخًـــا ومُـــرْدا

لُـــوحُـــوا نجـــومـــاً، وروحـــوا

فـــي لـــبـــة المجـــد عـــقـــدا

فـــي ظـــل مـــن أيـــنـــع الـــعـــلـــ

ـــمُ فـــي عـــهـــده، وأعـــدّا

ويـــاعـــث الـــعـــزّ فـــيـــكـــم

عـــبـــدالـــعـــزيـــز المـــفـــدّى

وألقيت الثانية بين يدي الملك عبدالعزيز نفسه، في الحفل الذي أقيم على ظهر اليخت الملكي: (المحروسة) بمناسبة عيد الجلوس الواحد والعشرين، وكان جلالته في طريقه إلى القاهرة، لزيارة الملك فاروق، ملك مصر، فجاءت أيضاً صدى لهذا الواقع وترجماناً له، ونشرت في جريدة (أم القرى) سنة ١٣٦٥هـ، فهو يتودد إلى العيد ليقبل:

أقـــبـــل فـــديـــتـــك فـــي الأيـــام يـــا عـــيـــد

واســـطـــع فـــنـــجـــمـــك فـــي الآفـــاق تـــصـــعـــيـــد

ويرى الاحتفال به فوق اليخت منةً على البحر يحق له أن يتيه بها ويفاخر كما فاخرت من قبله البيد:

والـــيـــوم تحـــتـــفـــل الأمـــواج راقـــصـــةً

تـــيـــهًـــا، كـــمـــا احـــتـــفـــلـــت مـــن قـــبـــلـــهـــا الـــبـــيـــد

وأشار في آخر القصيدة إلى تعلق الشعب بمليكه المسافر فقال:

لو استطاعت مشت في البحر مملكة

لـــهـــا بـــحـــبـــك فـــي الآفـــاق تـــأيـــيـــد

ويلاحظ أن القصيدتين أطلقتا على هذه المناسبة كلمة (العيد) وهي كلمة لا تعدو أن تكون شعرية، وإلا فإن للمسلمين عيدين لا غير، كما يلاحظ أن القصيدة الثانية آثرت الاختصار.

قصائد القسم الثاني - (انتصارات ووطنيات):

هي ثلاث عشرة قصيدة، يمكن تفريغ أفكارها الرئيسة مع الإشارة إلى صفحاتها وذكر مناسباتها وتواريخها ومطالعها، وذكر أجزاء منها إذا دعت الحاجة، وذلك فيما يلي:

٢٣ - قيلت تحية للمؤتمر الوطني الأول الذي انعقد في المحرم عام ١٣٥٠هـ/١٩٣١م بوادي منى برئاسة الملك عبدالعزيز، وتناول فيها (صورة الملك عبدالعزيز - مقارنة بين الأمس واليوم) ومطلعها:

الـــلـــه أكـــبـــر أي يـــوم أنـــظـــر

هـــذا المحـــصّـــب بـــالمـــنـــى يـــتـــبـــخـــتـــر

إلى أن يقول:

ملك صنائعه الجميلة جمة كالزهر في تعدادها أو أكثر

أفديه من ملك يذود بنفسه عن دينه وبلاده، ما ينكر

ويقول:

طلع الإمام بها، وأقبل كالمنى بسّامة، وهّاجة تتنضّر

والناس تجثم حوله وقلوبهم ترنو إليه تجلة، وتكبّر

٢٨ - ألقيت بين يدي جلالته تحية لقضائه على حادثة ابن رفادة، بتاريخ ١٣٥١هـ/١٩٣٣م وتناولت: (توبيخ البغاة من موتورين ومخدوعين - استنهاضه الهمم لحماية بيت الله - الدعوة إلى شد أزر الملك عبدالعزيز والالتفاف حوله - امتداحه الأمة لوقوفها صفاً واحدًا ضد البغي والبغاة، وبخاصة أهل الحجاز ونجد) ومطلعها:

خذ ما يقول الجرازُ العضْب من كلم فالسيف أعدل في الجُلّى من القلم

إلى أن يقول:

قل للبغاة: تطلعتم إلى فلك النجم أدنى إليكم منه في الحلم

٣٣ - ألقيت بين يدي جلالته بمناسبة بعض الحوادث الحربية مع بعض

الجارات، في المأدبة التي أقيمت تكريمًا للحجاج، سنة ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م، وتناولت: (امتداحه من منطلق عروبي - إبراز شخصيته الإسلامية - تهديد المتحرشين وتنبيههم إلى خطورة أفعالهم - امتداحه بالرأي والشجاعة - تهنئته بالنصر - المفاخرة بجلالته قائداً ووليّاً للأمر)، ومطلعها:

أغمد السيف، وانتحيه القرابا
أنت بالعدل قد ملكت الرقابا
(سيِّد العُرب) في الجزيرة أوسعـ
ـت بني الضاد رفعة وانتسابا
كل فضل رددته (لبني العُر
ب) فأعليت منهمُ الأحسابا
لم يطأطئ من رأسه (عربيٌّ)
بعد (عبدالعزيز) أو يتغابى

٣٨ - ألقيت بين يدي جلالته سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٦م بعد حادث الاعتداء الآثم الذي وقع على جلالته في أثناء طوافه بالبيت الحرام وتناولت: (الدعاء للملك بالسلامة الدائمة - والإشادة برعايته الدائمة للبيت الحرام - حسن معاملته لأوليائه وأعدائه - اهتمامه بنشر العلم بين أبناء شعبه - إعلان الحب والولاء لجلالته)، ومطلعها:

سلمتَ للبيت والإسلام والعرب
وبمت خدنًا لتلك السبعة الشُهب

٤١ - ألقيت بين يدي جلالته في حفلة الاستقبال الكبرى بالقصر الملكي بمكة، سنة ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م، وتناولت: (الترحيب والتعبير عن الفرحة باللقاء - التذكير بأياديه على الحجيج - إبراز شخصيته الدينية - الإشادة بالوحدة العربية والتأكيد عليها وعلى إيجابياتها، ومطلعها:

بـــرؤيـــاك قـــرت فـــي الـــعـــيـــون الـــنـــواظـــر
ودقـــت بـــأكـــنـــاف الـــريـــوع الـــبـــشـــائـــر

وفي حديثه عن الوحدة العربية يقول:

فـــيـــا واحـــداً فـــي قـــومـــه وزمـــانـــه
يـــبـــادر صـــوت الـــحـــق حـــين يـــبـــادر
دعـــوت إلـــى الـــرحـــمـــن دعـــوة مـــخـــلـــص
وقـــلـــبـــك بـــالإيـــمـــان بـــالـــلـــه عـــامـــر
مـــشـــى (الـــعُـــرب) يـــســـعـــون الـــغـــداة لـــوحـــدة
بـــهـــا الـــشـــمـــل مَـــحْـــمِـــي الـــعـــريـــن، مـــوازر
وأنـــت لـــهـــم قـــطـــب الـــرحـــى فـــي مـــكـــانـــة
تـــشـــيـــر إلـــيـــهـــا فـــي الـــنـــفـــوس الخـــواطـــر
وأنـــت إمـــام المـــســـلـــمـــين ومـــرجـــع
بـــه لأمـــور المـــســـلـــمـــين المـــصـــائـــر
فـــمـــن كـــالـــن يـــبـــغـــي (وحـــدة عـــربـــيـــة)
فـــأنـــت إلـــى الـــتـــوحـــيـــد داعٍ وذاكـــر

٤٥ - ألقيت بين جلالته في حفل الاستقبال الكبير الذي أقيم سنة ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م بمناسبة عودته من رحلته التاريخية السياسية، التي التقى فيها بالرئيس روزفلت، والمستر تشرشل، والملك فاروق، وتناولت: (استقبال الشعب لجلالته - بيان دوره العربي والإسلامي - الإشادة بالرحلة ومعطياتها)، ومطلعها:

انـــظـــر إلـــى الـــشـــعـــب إذ يـــدنـــو ويـــقـــتـــرب
كـــأنـــمـــا هـــو مـــوج الـــبـــحـــر يـــصـــطـــخـــب

إلى أن يقول:

يـــا واحـــد الـــعُـــرب والإســلام) فــي زمــن

يــعــتــز فــيــه بــك (الإســلام والــعَــرب)

أنــت الــزعــيــم لأهــل الــضــاد قــاطــبــةً

وأنــت قــائــدهــم، والمجــد، والأرب

ويقول عن الرحلة:

مــولاي قــد ســطــر الــتــاريــخ مــغــتــبــطًــا

بــالأمــس ســيــرة مــجــد كــلــهــا عــجــب

فــي رحــلــة قــامــت الــدنــيــا لــبــهــجــتــهــا

لــهــا المجــادة والإطــنــاب والــرغــب

وأنــت بــالــنُّــجــح مــوكــول ومــرتــهــن

وكــل ســعــيــك بــالــتــوفــيــق مــصــطــحــب

لــقــد قــضــى الــلــه أن يــعــلــيــك مــرتــبــةً

لا يــبــلــغــنّ ذراهــا فــي الــورى نــســب

٤٨ - ألقيت بين يدي جلالته سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م في حفل حاشد حول القضية الفلسطينية، تناولت (تحية اللقاء - الدور العربي لجلالته - الحركة اليهودية ومخازيها في فلسطين، موقف جلالته المشرف - الدعاء له بالتوفيق - الإشادة بمواقفه العربية والإسلامية)، ومطلعها:

بــك ابــتــهــجــت بــيــن الــنــفــوس الخــواطــر

وقــرت بمــرآك الــنُّــهــى والــنــواظــر

حتى يقول:

أمولاي، إن (العُربَ) ألقت قيادها
إليك، وكل شاخص لك ناظر

فما قلّدتك (العُربُ) إلا زعامة
وما شخصت إلا إليك البصائر

وما أنت إلا (العُربُ) حيث تجمعوا
وما (العرب) إلا أنت حيث تبادر

٦٥ - ألقيت بين يدي جلالته في مأدبة العشاء الكبرى التي أقامها له الملك فاروق بقصر الزعفران، عند زيارته لمصر سنة ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م، وتناولت: (نَقْله تحية أهل الحرمين ونجد إلى فاروق - نقله تحية الملك عبدالعزيز - الاستبشار بلقاء العاهلين - دعوة فاروق للحج وزيارة المملكة)، ومطلعها:

تحية من جوار البيت تأتلق
كأنما هي من إصباحه فلق

حتى يقول:

يا صاحب النيل، إن البيت مرتقب
يراك في ركبه للحج تنطلق

يرعى حماه مليك، سيد - يقظ
دستوره الدين والتوحيد والخُلق

(عبدالعزيز) مليك كلما ذُكرت
صفاته هب من أرجائها العبق

٦٧ - ألقيت بين يدي جلالته بحضور الملك فاروق، في اجتماعهما التاريخي الأول في (رضوى)، وذلك في صفر من سنة ١٣٦٤هـ/ يناير ١٩٤٥م، تناولت

(الترحيب الحار بالضيف، الذي مده الشاعر حتى إلى عناصر الطبيعة – بيان الوشائج بين العاهلين والشعبين – لقاؤهما لقاء لكل العرب والمسلمين) ومطلعها:

انظر الشمس أشرقت في ضحاها

وتلاها من نورها ما تلاها

حتى يقول:

مرحبًا مرحبًا بسيِّدِ مصر

وبفاروقهَا، وراعي حماها

٩٢ – ألقيت بين يدي الأمير محمد بن عبدالعزيز، الذي كان قادمًا إلى مكة في طريقه إلى صنعاء في سفارة سياسية، وذلك في صفر سنة ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م، وتناولت: (الترحيب بالأمير – التفاؤل العربي بسفره إلى صنعاء – تحميله التحايا الأخوية من الشعب السعودي إلى الشعب اليمني الشقيق)، ومطلعها:

قدمت، فهذا الشعب بالبشر يخفق

يرفُّ عليه اليمن منك، ويشرق

حتى يقول:

فبلغ إلى الشعب الشقيق تحية

تعبِّر عن صدق الوداد وتعبق

فأنت رسول الخير ما بين أمة

ووحدتنا بالله والدين تَعْلَق

وأنت ابن ذياك المليك وشبله

وأنت أبوك العبقري الموفَّق

٩٣ – ألقيت أيضاً بين يدي سمو الأمير محمد بن عبدالعزيز حين عودته من

رحلته إلى اليمن، في حفل أقيم بهذه المناسبة، في ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ وتناولت: (الإشادة بحسن سفارته - الإشادة بسموه - امتداح المليك)، ومطلعها:

أقبلت وضاح الجبين

كالليث يخطر في العرين

١١٤ - قيلت في اجتماع جلالته مع الملك فاروق في سفوح جبل رضوى، في شهر صفر ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م، وتناولت: (وصف الرحلة الملكية إلى رضوى ومشاهد الطبيعة الجامدة والحية فيها - منظر النجم الملكي - إسباغ الأهمية التاريخية على جبل رضوى، لاجتماع العاهلين فيه)، ومطلعها:

طوينا إليك البيد حين نسير

وفي الصدر منا لوعة وزفير

١٢٠ - ألقيت بين يدي نائب جلالته العام ووزير خارجيته الأمير فيصل بن عبدالعزيز، في حفل توديع سموه إلى لندن، لحضور مؤتمر فلسطين، سنة ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م، وتناولت: (الإشادة بجهود فيصل السياسية نيابة عن والده، على المستوى العربي والإسلامي - الحديث عن فلسطين - التشوق لعودته)، ومطلعها:

سر للجهاد، وأنه فيه مُظفَّر

من ينصر الله الكريم سينصر

قصائد القسم الثالث - (تكريم الحجيج):

هي تسع قصائد، يمكن التعامل معها كسابقتها على النحو الآتي:

٢١ - ألقيت بين يدي جلالته بالقصر الملكي في حفل تكريم الحجيج سنة ١٣٥٠هـ/١٩٣١م، وتناولت: (حمايته سبل الحج - خدمته العرب - الذب عن عقيدة التوحيدي - العدالة - تأسيسه الحكومة الإسلامية - اهتمامه بقضايا العرب والمسلمين، ومطلعها:

هتف الحجيج، وأشرق الحرمان

وهفت على كنف القلوب أمان

٢٥ - ألقيت أيضاً بين يدي جلالته في حفل تكريم الحجاج بمنى سنة ١٣٤٩هـ، وتناولت: ·شخصية الحجاز ونجد وتآزرهما - مقارنة بين الأمس واليوم - الإشادة بالأمن ونشر العلم وتطبيق الشريعة - مهاجمته مثيري الفتن)، ومطلعها:

هذا الحجاز وتلكمُ نجد

كالشامَتَيْن حواهما خد

وفيها يقول:

يا ناشر الأمن في بلد

الأمن مطلب أهله الفرد

يا رافعًا للعلم الوية

كانت حواها قبلك الوهد

يا حارس الإسلام من ضعة

كادت تروح عليه أو تعدو

٣١ - ألقيت بين يدي جلالته بالقصر الملكي بمكة، لتكريم الحجاج، سنة ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م، وتناولت (وصف مشهد الحجيج - الإشادة بالدولة العربية الإسلامية في النموذج السعودي - الدعاء للملك) ومطلعها:

هتف الحجيج ضحى بكل مكان

فتهللت لهتافه الحرَمَانِ

٣٦ - ألقيت بين يدي جلالته بمكة، في القصر الملكي لتكريم الحجيج سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٦م، وتناولت: (الإشادة بالملك وتوطيده السلم - شخصيته العربية الإسلامية - المفاخرة به - إقرار العرب له بالتميز) ومطلعها:

قــــرٌ فـــي غــــمـــــده الحـــســـــام الـــــفــــرنـــــد

(ســــيــــد الـــــعُـــــرب)، إن عــــيـــشــــك رغـــــد

٤٣ - ألقيت بين يدي جلالته للغرض نفسه في حج عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٧م وتناولت: (تقرير مجموعة من الصفات تحلى بها الملك - امتداح الكلمة التي ألقاها جلالته في الحجاج - وصف الحجاج - علو قدر جلالته في الدول الأخرى - حكمة بالشريعة وتحقيقه العدل - الإشادة بجوانبه العسكرية)، ومطلعها:

انــــهــــض إلـــى الـــبــيــت وارفـــع فـــوقـــه الــعــلـــمـــا

واســـــأل هـــــنـــــالــــك عــــمـــن أمّـــن الحـــرمــــا؟

حتى يقول:

مـــــولاي يـــــهـــــنـــــيـــــك مـــــا أبـــــدعـــــت مـــــن كـــــلـــــم

هـــــي الــــلآلـــئ، لـــــكـــــن صـــــغـــــتـــــهـــــا كـــــلـــــمـــــا

كـــــأنـــــمـــــا جـــــئـــــت بـــــالأزهـــــار يـــــانـــــعـــــة

نـــــثـــــرتـــــهـــــا بـــــبـــــديـــــع الـــــقـــــول فـــــانـــــتـــــظـــــمـــــا

ويختمها بقوله:

وســــســـــتَ بـــــالخـــــيـــــر شـــــعـــــبًـــــا لا يـــــرى مـــــلـــــكًـــــا

ســـــواك بَـــــدّلـــــه مـــــن بُـــــؤســـــه نـــــعـــــمـــــا

قـــــد اعـــــتـــــصـــــمـــــت بـــــحـــــبـــــل الـــــلـــــه مـــــتـــــصـــــلاً

ولـــــم يـــــخـــــب مـــــن بـــــذاك المـــــلـــــجـــــأ اعـــــتـــــصـــــمـــــا

٥٣ - ألقيت بين يدي جلالته للغرض نفسه سنة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٩م، وتناولت: (الإشادة بتحكيم الشريعة وتحقيق الأمن - الإشادة بجلالته وبما يقدمه لرعيته وللحجاج - مقارنة بين الأمس واليوم)، ومطلعها:

بلد أمن، وبيت أمان

وم‍ليك دستوره القرآن

٥٧ - ألقيت بين يدي جلالته للغرض نفسه في حج سنة ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م، وتناولت: (الإشادة بالأمن - مقارنة بين الأمس واليوم - الإشادة بشخصية الملك - مخاطبة الحجيج والدعاء لجلالته) ومطلعها:

حرم آمن ورب غفور

وملیك بسعيه مشكور

ونلاحظ أن ملطعها مشابه لمطلع سابقتها.

٥٩ - ألقيت بين يدي جلالته للغرض نفسه، في حج عام ١٣٥٩هـ/١٩٤١م، وتناولت: (الإشادة برعاية جلالته لبيت الله الحرام - الإشادة بجلالته من حيث تحكيم الشريعة، وتحقيق العدل) ومطلعها:

أيها المسلمون هذا العيان

هو للصدق والهدى برهان

حتى يقول:

بلد آمن وبيت أمان

ومليك دستوره القرآن

ويلاحظ أن هذا البيت كان مطلع قصيدته لعام ١٣٥٧هـ ص ٥٣.

قصائد القسم الرابع:

وهي عشرون قصيدة جميعها بين يدي الأمير فيصل نائب جلالته على الحجاز.

٧٥ - ألقيت استقبالاً لسموه بالطائف سنة ١٣٦١هـ/١٩٤١م، وكان المطهر ينهمر ساعة إلقائها، وتناولت: (الربط بين جود المطر وجود الفيصل وأبيه - امتداح الملك عبدالعزيز وإعلان الولاء المستمر له - امتداح الفيصل) ومطلعها:

أرأيتمُ غيث السماء قد فاض منهلّ السخاء

متتابع القطرات لا ينفك موصول الرجاء

٧٧ - ألقيت بين يدي سموه للغرض نفسه في حج عام ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م، وتناولت: (عواطف الحب من الشعب - الربط بين الابن والأب - العودة لإبداء عواطف الحب - إعلان الولاء للملك عن طريق مخاطبته وتعداد محاسنه - الدعاء للملك)، ومطلعها:

بسمت نحوك المنى والخواطر واشرأبت إلى لقاك النواظر

٧٩ - ألقيت بين يدي سموه في الحفل الذي أقيم في بستان الزاهر بمكة، احتفاءً بعودته من رحلته إلى أمريكا، للنضال في قضية فلسطين، سنة ١٣٦٣هـ/ ١٩٤٣م، وتناولت: (إبداء الشوق له حينما كان غائباً - الإشادة بسفارته من أجل فلسطين - الآمال المعقودة على سفارته عربياً - استمداد الفيصل من أبيه)، ومطلعها:

أقبِلْ يزيّن مفرقيك الغار واسطع عليك من الهدى أنوار

حتى يقول:

مولاي إنك في سفارة أمة لك من أبيك منارة وشعار

٨١ - ألقيت بين يدي سموه بمنى تكريماً للحجاج، نيابة عن والده، حج عام ١٣٦٠هـ/١٩٤٠م، وتناولت: (تطلع الناس لعبدالعزيز، ورضاهم بنيابته عنه - الحديث عن الحجاج - الثناء على الملك عبدالعزيز - الإشادة بأعماله في الداخل والخارج)، ومطلعها:

تهاداك فجر العيد ترنو كواكبه

إليك وأنت ابن المليك ونائبه

٨٣ - ألقيت بين يدي سموه بالطائف في استقباله قادمًا من الرياض سنة ١٣٥٩/١٩٤٠م، وتناولت: (إبداء الشوق - الترحيب وإبداء البهجة بقدومه)، ومطلعها:

أمة شاقها إليك الحنين

مثلما شاقك الحمى والعرين

فهي بالحب للأمير تباهي

وهي للعرش بالولاء تدين

٨٥ - ألقيت بين يدي سموه في حفل استقباله بجرول بمكة، عائداً من أمريكا سنة ١٣٦٩هـ/١٩٤٩م، وتناولت: (إبداء الشوق له إبان غيابه - الفرح بمقدمه - الإشادة بسفارته من أجل فلسطين - بيان تكالب الأعداء على العرب والمسلمين - الدعوة إلى مقابلة العداء بالعداء والقوة بالقوة)، ومطلعها:

شمائل المجد في برديك تأتلق

وروعة الحق فيما أنت تستبق

ومنها:

مضيت كاسمك في الأقوام منصلتًا

وكنت بالحق في الآفاق تنطلق

نبراسنا الفذ فيما أنت تهدفه
(عبدالعزيز) وحسبي أنه فَلَق

٨٧ – تحية توديع لسموه عند مغادرته مطار القاهرة في شوال سنة ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م، إلى أمريكا، لحضور جلسة الأمم المتحدة، وهي قصيدة قصيرة، اشتملت عل: (الدعاء له بالسلامة – الإشادة به وبجلالة الملك)، ومطلعها:

سر في السلامة والسلام
واركب على متن الغمام

٨٨ – ألقيت بين يدي سموه بمناسبة توزيع الشهادات الدراسية على المتخرجين في المعهد العلمي السعودي بمكة سنة ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م، وتناولت: (الإشادة بالمعهد، وبدور العلم، وبدور الفيصل والدولة بصفة عامة في ذلك)، ومطلعها:

معهد العلم يحتفي بنصيره
فإذا العلم مشرق من أميره

٨٩ – ألقيت بين يدي سموه حين قدومه من الرياض إلى الطائف في طريقه إلى أمريكا للجهاد في قضية فلسطين سنة ١٣٦٤هـ/١٩٤٤م، وتناولت (اللقاء والتوديع – الإشادة بالرحلة وموضوعها وحسن سفارته)، ومطلعها:

مطالع يُمن في مُحيّاك تُشرق
فأيّان ما تغدو فأنت مُوفق

٩٥ – ألقيت بين يدي الأمير عبدالله الفيصل (فهي فيصلية أيضاً) في المهرجان الكبير الذي أقيم بأعلى مكة بالأبطح، احتفالاً بوضع الحجر الأساس للسد السعودي الكبير سنة ١٣٦١هـ/١٩٤٢م، تناولت: (الإشادة بالملك عبدالعزيز – امتداح الأمير عبدالله والحديث عن السد – الإشادة مرة أخرى بالملك)، ومطلعها:

سجّل الدهر في ثنايا سطوره
سيرة تزدهي بأحرف نوره

٩٦ – مقطّعَتان، القيت الأولى بالطائف في حفل تسمية الأمير محمد الفيصل في رجب سنة ١٣٥٦هـ، وألقيت الثانية في حفل تسمية الأمير خالد الفيصل في المحرم سنة ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م.

٩٩ – ألقيت بين يدي سموه في حفل تسمية ولده عبدالرحمن، في رجب سنة ١٣٦٠هـ/١٩٤١م.

١٠٠ – ألقيت بين يدي سموه في حفل تسمية مولود له آخر، شوال ١٣٦٠هـ/١٩٤٣م.

١٠١ – ألقيت بين يدي سموه في حفل تسمية ولده بندر بالطائف سنة ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م.

١٠٢ – ألقيت بين يدي سموه في حفل تسمية حفيده خالد بن عبدالله الفيصل بالطائف.

١٢٠ – سبق الحديث عنها ضمن قصائد القسم الثاني.

١٢٢ – ألقيت بين يدي سموه بمناسبة عودته من أمريكا من أجل فلسطين، المحرم سنة ١٣٦٤هـ/١٩٤٤م، وتناولت: (الفرحة برجوعه – الحديث عن جهوده التي بذلها من أجل القضية – الإشادة بجهود الملك عبدالعزيز، وحسن توجيهه لأبنائه)، ومطلعها:

انظر الشعب زاحفًا في احتشاده
يتهادى في نشوة من رشاده

١٢٦ – ألقيت بين يدي سموه في الاحتفال الرسمي بعيد الفطر المبارك وهو نائب عن أبيه سنة ١٣٦٠هـ/١٩٤١م وتناولت: (الفرحة بالعيد وبوجوده بينهم –

بعض معاني العيد - ذكر بعض المواقف المجيدة لسموه وبخاصة مشاركاته في الدفاع عن القضية الفلسطينية - تبني عبدالعزيز للقضايا العربية)، ومطلعها:

أطـل عـلـيـنـا الـعـيـد والـغـيـث ممـطـر

فـــوافـــاه عـــيـــد مـــن لـــقـــائـــك أزهـــر

ومـا الـعـيـد إلا حـيـنـمـا كـنـت مـشـرقًـا

يـطـل عـلـيـنـا مـن سـنـائـك نـيـر

قصائد القسم الخامس - (مناسبات ملكية عامة):

وهي عشر قصائد على النحو الآتي:

٥٢ - ألقيت بين يدي جلالته بالقصر الملكي بمكة، ليلة سفره إلى الرياض في المحرم ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م، وتناولت: (إبداء عواطف الأسى على رحيله - الإشارة إلى دور فيصل في النيابة عن جلالته - بيان أن جلالته منصور ومبارك)، مطلعها:

يـأبـى لـسـان يـفـصـح الـقـول منـطـق

لــدن هــجــعــة فــيــهــا الــرحــيــل يــؤرق

٥٥ - ألقيت بين يدي جلالته في منزل أمين العاصمة الأستاذ عباس قطان، في حفل تكريمي لجلالته، في شوال سنة ١٣٥٦/٩١٣٧م، وتناولت: (شخصية جلالته المتميزة - حمايته للدين - ولاء الشعب - الترحيب بجلالته باسم المضيف)، ومطلعها:

سـارت بـذكـراك الـسـن الـركـبـان

فـسـرى مـسـيـر الـشـمـس فـي الـدوران

حتى يقول:

شـرفـت يـا مـولاي مـنـزل مـخـلـص

فـي حـبـه وولائـه مـتـفـان

نطقت جوارحه بحبك، فانثنى
يشدو به في السر والإعلان
هو صورة من حب أمتك التي
أكرمتها بالعطف والإحسان

٦٠ - ألقيت بين يدي جلالته في عيد الفطر في شوال سنة ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م بالقصر الملكي بمكة، وتناولت: (التهنئة بالعيد - اعتمار جلالته - التأكيد على الولاء والإخلاص)، ومطلعها:

عيد أطلَّ، وأنت منه المطلع
فكأنه أفق وشمس تطلع

٦٢ - ألقيت بين يدي جلالته في حفلة استقباله بالقصر الملكي بمكة سنة ١٣٥٨/ ١٩٤٠م، وتناولت: (الفرحة بلقائه - جوانب شخصيته الإسلامية والعربية)، ومطلعها:

قدمت وستر الله حولك مسبلُ
كأنك صوب الغيث إذ هو مرسل

٦٩ - ألقيت بين يدي جلالته في روضة الخفس، قرب الخرج سنة ١٣٦٠هـ/١٩٤١م، وتناولت: (نجد والتاريخ - طبيعة نجد - امتلاكه لها - الحديث عن مخيم الخفس - الدعاء للملك)، ومطلعها:

أجل هذه نجد فسائل ربى نجد
عن العرب الأمجاد من سالف العهد

وعن مخيم الخفس قال:

ولما بدا المخيام للركب أشرقت
خيام تفوق الأنجم الزهر في العد

فطارت نفوس الركب شوقًا وطالما
قضت ليلها في الوجد والشوق والسهد

إلى ملك قد أيد الله عرشه
فثبت من أركانه راسخ الطود

تناهى إلى (عبدالعزيز) ولاؤها
بأوسع ما ضمت نفوس من الود

فيا سائلي عن نجد، أو عن رياضها
فديتك، هذا بعض ما في ربى نجد

٧٣ – ألقيت بين يدي جلالته بمناسبة قدومه من الرياض إلى مكة المكرمة سنة ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م، وتناولت: (الفرحة بالقدوم – المقارنة بين جود الغيث وجود اليد – إخلاص المحبة للمليك – الدعاء له)، مطلعها:

تسابق ومض البرق بالبشر يخفق
فلم ندر أيّ البرق أمضى وأسبق

٩١ – ألقيت بين يدي الأمير منصور بن عبدالعزيز، حين أسند له والده منصب وزير الدفاع بالمملكة، سنة ١٣٦٤هـ/١٩٤٤م، وهي مقطوعة قصيرة تعبر عن مشاركته في الفرحة، ومطلعها:

بمثلك تزدهي رتب المعالي
وزير المشرفية والعوالي

٩٢ – سبق تناولها في قصائد القسم الثاني.

٩٣ – سبق تناولها في قصائد القسم الثاني.

٩٨ – ألقيت بين يدي جلالته في مزرعة الخرج سنة ١٣٦٠هـ/١٩٤١م،

وتناولت: (الحديث عن طبيعة الخرج - الإشادة بما حققه جلالته من أمن وتقدم زراعي)، ومطلعها:

هــــذا هـــو (الخـــرج)، فـــاســـأل صـدق مـــخـــبـــره

عـــن قـــدرة الـــلـــه فـــي تجـــمـــيـــل مـــنـــظـــره

قصائد القسم السادس - (موضوعات عمومية):

هي إحدى عشرة قصيدة على النحو الآتي:

١٠٣ - قيلت في وصف مصيف الطائف، وتعرض فيها لمظاهر الطبيعة من وديان وخمائل وشعاب وأماكن أخرى مثل: وج، ونهار، ولية، والسداد، وحوايا، والهدى، وكرا؛ ومطلعها:

مـــصـــيـــفـــنـــا الـــرائـــع الجـــمـــيـــل

وجـــوّه المـــشـــرق الـــعـــلـــيـــل

ويختمها بقوله:

ذاك هـــو (الـــطـــائـــف) المـــنـــدّى

طـــوافُ قـــلـــبـــي بـــه يـــطـــول

مـــبـــاهـــج الحـــســـن فـــي ريـــاه

الـــلـــيـــل، والـــفـــجـــر، والأصـــيـــل

١٠٥ - ألقيت في حفل تكريم لأول فريق كشافة عربي يزور المملكة سنة ١٣٥٧هـ/١٩٣٩م، ومطلعها:

حـــفـــلَ الـــغـــابُ بـــأشـــبـــال الـــعـــريـــن

فـــانـــزلـــوا ســـاحـــتـــه مـــســـتـــبـــشـــريـــن

١٠٧ - ألقيت في حفل تأسيس أول دار للأيتام بمكة المكرمة سنة ١٣٥٧هـ/١٩٢٩م، ومطلعها:

خير بيت في الناس بيت اليتيم
ذاك من منطق الرسول الكريم

١٠٨ - ألقيت في حفل خيري أقيم بمكة المكرمة تحت رعاية الأستاذ حمد السليمان، وكيل وزارة المالية السعودية، للحث على مساعدة الفقراء، سنة ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م، ومطلعها:

مشت وهي في أسمالها تتعثر
فتاة عليها عفة الطهر مئزر
تسائلني في ذلة وتفجُّع
ومدمعها من قلبها يتفجر

١١٠ - قيلت في افتتاح الأمير فيصل بن عبدالعزيز الإذاعة اللاسلكية نيابة عن والده في وسم الحج ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م، ومطلعها:

حديثنا عن القرون الخوالي
ما الذي كان يا هضاب الجبال

١١٢ - ألقيت في الاحتفال الرسمي الكبير الذي أقيم بمدينة جدة بمناسبة اجتلاب الماء لها من وادي فاطمة، كان ذلك من حسنات جلالة الملك عبدالعزيز - رحمه الله -، ومن الأحداث المهمة في حياة جدة، ومطلعها:

أقبلت بالحياة أمُّ الحياة
تتهادى على جبين الغداة

حتى يقول:

يوم كنا والبحر ملح أجاج

نتشد الماء منه عذب الفرات

نسأل البحر وهو يضحك منا

قطرات، تترى من القطرات

ويختمها بقوله:

عاش (عبدالعزيز) للدين والدنـ

ـيا مليكًا مؤيد العزمات

١١٧ - قيلت في السيل التاريخي الذي غمر مكة يوم الأربعاء ٦ صفر سنة ١٣٦٠هـ/١٩٤١م، إثر مطر غزير، حيث استحال المسجد الحرام إلى بحيرة، وقامت الحكومة والأهالي بتطهير المجد في ليلة واحدة، وأقيمت حفلة تكريمية بهذه المناسبة، بفندق مكة، ألقيت بها هذه القصيدة، ومطلعها:

قَدَرُ الرجال بكفة الأقدار

لم يعله إلا القدير الباري

ومنها:

أرأيت (مكة) والشعاب ومن بها

في حادث لم يأت في الأدهار

١٢٩ - قيلت في (الشرائع) في ليلة مقمرة، وهي مكان يبعد عن مكة ٢٥ كيلاً في طريق الطائف القديم، وكان يعرف تاريخياً باسم (وادي حنين)، وهو الذي حدثت به غزوة حنين المعروفة، ومطلعها:

أقبل الفجر ساحبًا أنياله

أي معنى تفيض منه الجلاله؟

١٣٠ - ألقيت في حفل أقيم لتحية أول بعثة سعودية عائدة من دراسة الطيران في أوروبا، وذلك سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٥م، ومطلعها:

يا نسوراً مشت تباري الغماما
ركزوا في سمائها الأعلاما

١٣٢ - قيلت بمناسبة زيارة الشاعر لجزيرتي دارين وتاروت بشرقي المملكة العربية السعودية وهما من الجزر ذات التاريخ الممتد إلى ما قبل الإسلام ومطلعها:

وقفت على (دارين) أشدو وأنشد
وأصداؤها في خاطري تتردد
وأبصر (تاروت) القريبة تزدهي
بتاريخها في العيد يدنو ويبعد

وبعد هذا الاستعراض الأمين في مفرداته، والسريع في أبياته نستطيع أن نقرر أن الدارس لشعر فؤاد شاكر يجده شعراً تقليدياً لا منزع فيه للتجديد، شكلاً ومضموناً، فمدائحه للملك عبدالعزيز على كثرتها لم تتعد الأسلوب الذي كان ينهجه شعراء المديح المشهورون في تاريخ الأدب العربي، سواءً في الأفكار أم الأخيلة أم الصور اللفظية، مع قصور واضح عن بلوغ شأوهم.

وهنا أحب أن أشير إلى ناحية مهمة شغل بها كثير من أدعياء التجديد في العالم العربي اليوم أقلامهم في قضية شعر المديح، فقد عدوه نوعاً من الملق والنفاق الاجتماعي، وسلبوه كل قيمة أدبية، وعدُّوه نمطاً من التعبير يحط من شأن قائليه، وبناءً على رأيهم هذا نالوا من شاعرية كثير من الشعراء القدماء والمعاصرين، وهذا الاتجاه في رأينا يحتاج إلى كثير من المراجعة والتثبت وحسن التقدير.

فليس من المنطق في شيء أن نلوم من تغنى بالبطولة والأبطال، ومن أشاد بالكرم والكرماء، وليس من الرأي أو الحكمة أن نذم من سجل لذوي المناقب مناقبهم، وشجع الفضيلة وأهل الفضائل والمكرمات، إعجاباً بهم وبما تحلوا به من صفات،

وما أتوه من أعمال جليلة تثبت دعائم الخير والعدل، وتسمو بهم وبأمتهم وقبيلتهم.. إن العكس هو الصحيح! نعم نحن نوافقهم في ذلك المدح المداجي الذي تحركه الرغبة أو الرهبة، ولا يصدر من قلوب قائليه، ذلك لما فيه من تزييف للحقائق وافتئات على الحق والتاريخ.

أما مدح المستأهلين للمدح فهو فن من القول شريف «وهو موجود في جميع الآداب العالمية، ومنها آداب الأوروبيين الذين تتلمذ على أيديهم هؤلاء الأدعياء، فالصدق في التعبير وحده إذن هو محك الفن الرفيع، بغض النظر عن كونه مديحاً أو غيره، لأن التصنع والتكلف يقع في المديح كما يقع في الوصف أو الغزل أو الرثاء، أو في أي فن أدبي آخر، ويقع في الشعر كما يقع في النثر»(٣).

وممن يلتقي معنا ونلتقي به من النقاد في هذا الشأن، الناقد الدكتور محمود الربيعي، ومما جاء عنه في ذلك قوله: (فدارسو شعر المديح يقعون منذ البداية في أسر فكرة ساذجة في فهم الشعر، تربط بين شعر المديح وبين التسول، وطلب العطاء، وبذل النفس، والتخلي عن الكرامة، والتكسب بالفن، وما إلى ذلك من النعوت العتيقة التي تسللت إلى قاموس النقد الأدبي، وهي ليست نقدية ولا أدبية، وأخذت ظلماً مكان مصطلحات أخرى نقدية كان لابد أن تحدد وتستعمل، وهي تلك المصطلحات المستقاة من العكوف على هذا الفن نفسه.

وإذ يقع دارسو شعر المديح فريسة هذه النعوت المنفرة، ينفرن من شعر المديح ويبذلون الجهد كله في محاولة البحث عن الأسباب التي تدمغه، وتجعل منه عاراً على الشعر العربي كله، لكننا ينبغي أن ننبه إلى أن المدح معنى من المعاني، وهذا المعنى إذا وضع في أسلوب شعري أصبح شيئاً مختلفاً عما كان عليه قبل أن يوضع في هذا الأسلوب، والنار التي نراها في لوحة فنية جيدة تختلف عن النار الحقيقية في أنها برد وسلام على النفوس التي تتلقى عطاء الفن بعد أن شكل مادته الأصلية تشكيلاً جديداً، وتعالى عن المعاني المختلطة بأحاسيسنا المنطقية المعتادة التي تربط بين النار والإحراق)(٤).

وهنا يطل علينا سؤال ملح، يعرض نفسه: ما مدى تطابق الواقع الشعري في قصيدة فؤاد شاكر مع الواقع الخارجي لحياة الملك عبدالعزيز ومآثره على اعتبار أن التعبير الشعري إنما يأتي بعد الانفعال بالواقع الخارجي، لنقله من واقع مادي حسي إلى واقع شعري فني مثير.

إن موازنة يسيرة بين مناسبات القصائد وواقعها الشعري تجعلنا نؤكد أن شاعرية فؤاد شاكر لم تكن على مستوى تلك الأحداث والمناسبات، وأنه لم يستطع أن يتعمقها أو يستوحيها؛ بل عبّر عنها تعبيراً سطحياً مباشراً، وتعامل معها تعامل المسجل والمؤرخ والناقل. وهذه أشياء كلها غير الشعر، بالإضافة إلى أن في حياة الملك عبدالعزيز مواقف أخرى خصبة يمكن استثمارها شعرياً، ولكن أين الشعراء؟ وبرغم أن شاعرنا أراد أن يتلبس في بعض قصائده جلباب بعض الشعراء العباسيين، فإنه أخفق حتى في الاحتذاء، وذلك كقصيدته في المؤتمر الوطني الأول بمنى عام ١٩٣١م التي يقول فيها:

الله أكبر أي يوم أنظر؟
هذا المحصّب بالمنى يتبختر

رفّت عليه جلالة وضّاءة
يزهو بنضرتها الجديب ويزهر

طلع الإمام بها، وأقبل كالمنى
بسّامة، وهّاجة، تتنضّر

والناس تجثم حوله وقلوبهم
ترنو إليه تجلّة وتكبّر

فإننا نلحظ فيها روح البحتري يتوثب، ويذكرنا بقصيدته في مدح الخليفة العباسي المتوكل في يوم العيد أيضاً، وعلى البحر نفسه والقافية نفسها، والتي منها:

ذكروا بطلعتك النبي فهلّلوا
لما طلعت على الجموع وكبروا

وافتن فيك الناظرون، فإصبع
يومي إليك بها، وعين تنظر

وقد نجد في بعض أشعاره ظلالاً لشعر الكبار من معاصريه، كشوقي والرصافي وحافظ إبراهيم، ومن ذلك قصيدته التي قالها بمناسبة تأسيس دار الأيتام بمكة عام ١٣٥٧هـ، والتي منها:

خير بيت في الناس بيت اليتيم
ذاك من منطق الرسول الكريم

وأبر الإحسان ما كان لله
خفيّاً ينال عطف اليتيم

وقصيدته: (الراحمون يرحمهم الرحمن) التي كتبها في حفل خيري لمساعدة الفقراء والمحتاجين سنة ١٣٩٢هـ والتي منها:

مشت وهي في أسمالها تتعثر
فتاة عليها عفة الطهر مئزر

تسائلني في ذلة وتفجع
ومدمعها من قبلها يتفجر

ومن حولها طفل وأم وطفلة
وشيخ على أعطافه يتكسر

إذا سترت وجهًا حييًا ببرقع
تبدى به الفقر الذي ليس يُستر

تقول: أهذا عَمْرَك اللهَ ما ترى
من العري يكسونا، فهل أنت مبصر
أتبصر جسمًا رقّ عنه نحوله
ودقّ عن الرؤيا فما ثمّ يُنظر!
يراوحها قرّ الشتاء ببرده
ويلفحها حر الهجير ويصهر

فالتأثر ظاهر بحافظ، ثم بالرصافي بالذات في قصيدته: (اليتيم وأمه) التي منها أخذ الشاعر الصورة الواردة في البيت السادس، مع تحوير أساء إلى جمالها ونقص عن إدراكها، يقول الرصافي:

وجسماً نحيلاً أنهكته همومه
فكادت تراه العين بعض توهم

وقال فؤاد شاكر:

أتبصر جسمًا رق عنه نحوله
ودق عن الرؤيا فما ثم ينظر

ولست أدري كيف يرق النحول عن الجسم؟ وكيف أباح لنفسه المبالغة في قوله: (فما ثم ينظر)، أما الرصافي فقد جعل الجسم نحيلاً بسبب الهموم المتراكمة عليه، ولم يقل لم يعد ينظر، لأن ذلك كذب، والكذب يزري بالشعر ويحط من مقامه، وإنما أتى بكلمة (كاد) التي تفهم المقاربة، وتؤدي المعنى قوياً، وتوضح صورة الهزال، على حد قوله تعالى: **﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسها نار﴾** فعبّر عن مراده، وسلم من المبالغة والاضطراب.

وقد كنا نود أن يثبت هذا الشاعر شاعريته من خلال شعره الذاتي من غزل ووصف للطبيعة ونحو ذلك، ولكنه فيما يبدو كان يتحرج من الغزل إلا ما جاء متناثراً

هنا وهناك في موضوعات أخرى، ولم يستطع في وصفه للطبيعة إلا أن يكون تقليدياً حتى النخاع، كما في وصفه لمصيف الطائف المأنوس، واسترسلت في تصفح ديوانه، على أمل أن أجد ما يدل على تنامي شاعريته بحكم الزمن والخبرة الفنية، فوجدته كما هو، لم يتغير قيد شعره، فعلمت أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، وأنه برغم هذا الديوان الكبير لم يرق في شعره إلى مصاف أقرانه وزملائه من الشعراء الذين عاصروه؛ بل ظلت صياغته في حاجة إلى حسن السبك وقوة البناء وجمال التصوير، ومع ذلك فهو كما قلت في أول كلمتي: شاعر له شرف الرواد وفضل السابقين والشهادة على عصره، ولئن بطَّأت به أدواته الفنية فقد أسرعت به شجاعته وإخلاصه وصدقه في القول!

الهوامش:

(١) **وحي الفؤاد** ط ٣ سنة ١٣٧٨هـ منشورات مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر - على نفقة الشربتلي.

(٢) انظر شعراء من **أرض عبقر** ٦٣/١ للدكتور محمد العيد الخطراوي منشوات نادي المدينة المنورة الأدبي سنة ١٣٩٨هـ.

(٣) **شعراء من أرض عبقر** ٦٨/١ - ٧٠.

(٤) **قراءة الشعر** للدكتور محمود الربيعي، ص ٩.

* * *

أعْشَى همْدان وامرأته الأولى[1]

الشعراء الأعْشَون في العرب أكثر من واحد، وأعشانا هذا هو: عبدالرحمن بن عبدالله بن الحارث الهَمْداني. شاعر كوفي أموي، كان أحد الفقهاء القرّاء، ثم ترك ذلك إلى الشعر، وهو زوج أخت الشعبي الفقيه، كما أن أخته زوجة الشعبي، شارك في حروب الدولة الأموية ووقع في أسر الدَّيلم، ثم فرَّ من الأسر بمساعدة ابنة ملكهم. وكان بعد ذلك ممن خرج على الأمويين مع ابن الأشعث، فأسره الحَجَّاج، وقتله صَبْرًا، وذلك سنة ٨٣هـ.

ذكر أبو الفرج (الأغاني ٦/٥١ ثقافة) أن الأعشى كان متزوّجاً بامرأة من قومه تُدْعى أمّ الجلال، وهي - كما قلنا - أخت الشعبي (هو عامر بن شراحيل الهمْداني، من أفقه التابعين، مات سنة ١٠٣هـ). طالت مدة أم الجلال عند الأعشى، فملّها وقلاها، فخطب عليها امرأة أخرى من قومه أيضاً، تدعى (جَزْلة) لم ترض أن تتزوجه حتى يطلق أم الجلال، فطلقها، ثم عبّر عن تجربته معها شعراً فقال:

تقادمَ ودُّك أمَّ الجلالِ ... فطاشت نبالُك عند النضال

وطال لزومُك لي حقبةً ... فرثَّتْ قوى الحبل بعد الوصال

وكان الفؤاد بها معجَباً ... فقد أصبح اليوم من ذاك سال

---

(١) نشرت بجريدة (الجزيرة) ٣/٣/١٤٢٢هـ.

فهو لم يندم على طلاقها كما فعل الفرزدق مع زوجته نوار، ولم يبغضها، وإنما هو طول العشرة والملل منها، وقد كبرت سنُّها، ولم تعد قادرة على شغل فؤاده ومَلْء حياته:

صحَا، لا مسيئاً، ولا ظالماً ولكن سلا سلوةً في جمال
ورُضتِ خلائقنا كلَّها ورُضنا خلائقكم كلَّ حال

ثم أشار إلى خلاف حصل بينهما لم يفصح عنه، وإنما اكتفى بالإشارة إليه:

فأعيَيْتنا في الذي بيننا تسومينني كلَّ أمر عُضال
وقد تأمرين بقطع الصديق وكان الصديق لنا غير قالٍ
وإتيان ما قد تجنَّبْتُه وليداً، ولمتُ عليه رجالي
أفاليومَ أركبُه بعدما علا الشيبُ منِّي صميم القذال

هناك مجموعة من الخلافات ضاق بها الشاعر، ورفض أن يتحملها من هذه الزوجة:

لعمرُ أبيك لقد خلْتِني ضعيفَ القوى، أو شديد المِحال
هلمِّي اسألي نائلاً فانظري ألحرمُكِ الخيرَ عند السؤال؟
ألم تعلمي أنني مُعْرِقٌ نماني إلى المجد عمي وخالي؟
فبعضَ العتاب، فلا تهلكي فلا لك في ذاك خيرٌ، ولا لي

ثم يتحرر الشاعر من كاف الخطاب بعد أن لزمها ثلاثة عشر بيتاً، وينتقل إلى هاء الغائب، كأنما هو يمثّل بذلك حالته في عيشه معها، وتحمّل بعض مواقفها المسيئة له، ثم تحرره منها بالطلاق ثلاثاً، فيقول:

فلمَّا بدا لي منها البذا ءُ، صبَّحتُها بثلاثٍ عجالِ
ثلاثاً خرجن جميعاً بها فخلَّينها ذات بيت ومال
إلى أهلها غير مخلوعةٍ وما مسَّها عندنا من نكال
فأمستْ تحنّ حنين اللِّقا ح، من جزَعٍ إثْر من لا يبالي

ثم يعود إلى مخاطبتها ليصارحها بعدم استعداده لردّها إلى عصمته، وأنه غير نادم على طلاقها:

فحنّي حنينك، واستيقني بأنّا اطّرحناك ذاتَ الشمال
وأن لا رجوع، فلا تُكذّبينَ ما حنّت النُّيب إثْر الفِصال
ولا تحسبيني بأني ندِمتُ كلاّ وخالِقنا ذي الجلال.!

فقالت له: بئس والله بعلُ الحرة، وقرين الزوجة المسلمة أنت.! ويحك.! أعدَدتَ طول الصحبة والحرمة ذنباً تسبني وتهجوني به.؟ ثم دعت عليه أن يبغّضه الله إلى زوجته التي اختارها، وفارقته إلى أهلها. واستجاب الله دعاءها، فحين دخل بجزْلة = زوجته الجديدة - لم يحظَ عندها بالقبول، وفرِكتْهُ وكرهته، واشتد شغفه بها، ولم تمهله الأيام، فسرعان ما خرج مع ابن الأشعث، فأسره الحجاج وقتله. وصوّر حاله معها قبل خروجه في قصيدة وجهها إليها ضمنها شكواه منها وعتابه لها وثوْرتَهُ عليها، ويبدو أن صاحبنا كان شخصية قلقة، يعجبه التغيير، فلا يثبت على حال، فقد قلنا: إنه كان من الفقهاء القرّاء في زمانه، ولعل هذا ما رشحه عند الشعبي حين زوّجه أخته أم الجلال، ولكنه سرعان ما ترك الفقه والقراءات وحياة العلم والعلماء ليتعلق بالشعر وما يتبعه من لهو وغناء، وليقطع صلته بماضيه، فرّط في زوجته أم الجلال فيما فرّط، حيث طلقها، وعمد إلى الزواج بغيرها، وربما كان اندفاعه إلى الخروج على بني أمية مع الأشعث ما يؤكد ما ذهبنا إليه من أنه كان شخصية قلقة لا تثبت على موقف، ولا تطيب له حياة.

* * *

أعشى همْدان وامرأته الثانية[1]

أشرنا في مقال سابق، إلى أن أعشى همْدان دفعه الملل من زوجته وعشيرة عمره، إلى أن يطلقها، ويتزوج من أخرى همْدانية أيضاً اسمها (جَزْلة)، لم يرزَق معها الراحة، ولم يظفر منها بالانسجام، فقال فيها القصيدة التالية، من بحر (الرَّمَل):

حيِّيا (جزْلةَ) منِّي بالسلام ... درةَ البحر، ومصباح الظلام
لا تصدِّي بعد وُدٍّ ثابتٍ ... واسمعي يا أمَّ عيسَى من كلامي:
إن تدومي لي فوصْلي دائمٌ ... أو تهمِّي لي بهجْرٍ أو صِرام
أو تكوني مثل برقٍ خُلَّبٍ ... خادعٍ يلمع في عُرض الغمام
أو كتخييل سرابٍ مُعرِضٍ ... بفلاةٍ، أو طُروق في المنام
فاعلمي إن كنتِ لمَّا تعلمي ... ومتى ما تفعلي ذاك تُلامي

فهو يعدها بدوام الوصل إن دام وصلُها، ويضعها موضع اللوم إن كانت مخادعة، كالبرق الخلّب والسراب اللامع بالصحراء، والطيف الزائر. ثم هو يذكّرها الوعود التي وعدته بها، والتي لا يليق بها خفرها ولا تجاهلها أو تناسيها، فيقول:

بعدَ ما كان الذي كان فلا ... تُتبعي الإحسان إلا بالتمام
لا تَتناسيْ كلَّ ما أعطيتني ... من عهودٍ ومواثيق عظام
واذكري الوعد الذي واعدْتني ... ليلةَ النصف من الشهر الحرام

---

(١) نشرت بجريدة (الجزيرة) ٢/٤/١٤٢٢هـ.

فلئن بدّلتِ أو خسْتِ بنا   وتجرأت على أمٍّ صَمَام
لا تبالين إذن من بعدها   أبداً تركَكِ صلاةٍ أو صيام

(خاس فلانٌ العهدَ، خَسْياً، وخَسَياناً: نقضه وخانه، ويقال أيضاً: خاس بالعهد، وفيه، أي أعطاه أنقصَ مما وعده به. الصَّمام: علَمٌ على الغدر والخيانة، والداهية الشديدة الصمَّاء)، ثم يلتمس منها أن تراجع وصلها له، وأن لا تستمر في طِماحها، أي كرهها له، ويطالبها بأن تذكر فيه عيباً واحداً يستحق أن تكرهه لأجله، محترساً لنفسه بأنه خال من العيوب، ومن شأن الكاره أن يرى عيباً ما ليس بعيب، ورغم ذلك فهو مستعد للتخلي عما لا تريده منه:

راجعي الوصل، وردّي نظرةً   لا تَلجّي في طماح وأثام
وإذا أنكرت مني شيمةً   ولقد ينكَرُ ما ليس بِذام
فاذكريها لي أزُل عنها، ولا   تُسْفحي عينيك بالدمع السَّجام
وأرى حَبْلك رثّاً خَلَقاً   وحبالي جُدُداً، غيرَ رمام

ثم ينتقل إلى ضمير الغائب في سبعة أبيات هي خاتمة هذه القصيدة بعد أن اعتمد على الخطاب في الأبيات السابقة المكونة من خمسة عشر بيتاً، وهذا يعني أن نسبة غيابها تمثّل الثلث، مما يدل على شدة حضورها في ذهنه، وعظم إحساسه بفقدها، وهو يصرّح بسبب إعراضها عنه، وهو الشيب وكبر السّن، وضعف القوى، وذلك أمر يتكرر كثيراً فثي علاقة المرأة بالرجل في الحياة الاجتماعية:

عجِبتْ (جزلةُ) مني أن رأت   لِمتي حُفّت بشيبٍ كالثّغام
ورأت جسمي علاه كَبْرةٌ   وصروفَ الدهر قد أبلتْ عظامي
وصَلِيتُ الحر حتى تركتْ   جسدي نِضوًا كأشلاء اللجام

هكذا وصف نفسه بكل صدق، ثم وصف زوجته بالفتوة، وبياض اللون، وطول الشعر، وجمال الضحكة، فهي كاملة بأوصافها، مدلّة بشبابها:

وهـي بـيـضـاءُ عـلـى مـنـكِـبـهـا   فَـطَـطٌ جَـعْـدٌ، ومـيّـالٌ سُـخَـام
وإذا تـضـحـك تُـبـدي حَـبـبًـا   كرُضاب المسكِ في الراح المُدام
كـمـلـتْ مـا بـين قـرنٍ، فـإلـى   موضع الخَلْخال منها، والخِدام
فـأراهـا الـيـومَ لـي قـد أحـدثـتْ   خُلُقًا ليس على العهد القُدام

(الثّغام: نبت جبلي إذا يبس ابيضّ، فيشبّه به الشيب عادة. أشلاء اللجام: حدائده بلا سيور. القَطَط: الشعر القصير. السُّخام: الشعر الليّن الحسن. الخِدام: الخلاخيل).

وكنا نتوقع أن يعقد مقارنة بينها وبين أم الجلال، زوجته الأولى، تلك الزوجة الوفية التي حاولت أن تفي له وتتمسك به، إلي اللحظات الأخيرة من علاقتها الزوجية به، ولكنه لم يفعل، وكأن صدمته بزوجته الثانية لم تكن كافية لتردّه إلى التفكير في أيام حياته الأولى، ونحن لا نستطيع أن نلوم زجته الثانية، ونطالبها بقبول الحياة معه برغم الفوارق القائمة بينهما، وإنما كنا نود أن لو صارحته بموقفها قبل الارتباط بها، وبخاصة أن الروايات تؤكد أنها زينت له تلك العلاقة، ولم تطلب منه سوى التخلي عن زوجته الأولى، وقد فعل.! وكما تشابهت القصيدتان في الارتكاز على ضميري الخطاب والغيبة فنياً، فإنهما تشابها في حرف الرويّ وسبقه بحرف الألف، إذ اللام والميم متشابهتان، والألف في مثل هذا ليست روياً، ولكن يجب التزامها مع الروي، يضاف إلى أن حرف الروي جاء مكسوراً في القصيدتين، ولعل ذلك نابع من إحساس يتشابه موقفه مع الزوجتين، أو بتشابه النتائج.

* * *

جرير في رحاب المدينة المنورة[1]

قال أبو الفرج الأصفهاني (الأغاني ٤/٣٩٤): قدم جرير المدينة، فأتاه ابن هَرْمة، وابن أُذَيْنة، وهما من شعرائها البارزين في العصر الأموي، فأنشداه، وجلسا منه مجلس المعترفين له بالتفوق، وهما يتطلعان إلي المفاضلة بينهما، فقال جرير: القرشي أشعرهما، والعربي أفصحهما، (القرشي هو إبراهيم بن هَرْمة/ ت ١٧٠).

وذكر أيضاً مرويّاً بسنده عن حماد، عن أبيه (الأغاني ١, ٢٩٣) أن جريراً قدم المدينة، أو مكة، فجلس مع قوم، فجعلوا يعرضون غناءً لمغنّين مختلفين لإمتاعه من جهة، وتحكيمه فيما يسمع أيضاً، حتى غنوه لابن سُريج، فطرب، وقال: هذا أحسن ما أسمعتموني من الغناء كله، قالوا: وكيف قلت ذاك يا أبا حَزْرة.؟ قال: مَخْرج كل ما أسمعتموني من الغناء هو من الرأس، ومَخْرَجُ هذا من الصدر. فهو يفاضل بين المغنين كما يفاضل بين الشعراء، ولا يكتفي بمجرد الثأر والانطباع والانفعال، بل هو يعلل لما يقول، فكأنه يود أن يشاركه غيره في الاقتناع بوجهة نظره.

وذكر أبو الفرج أيضاً (الأغاني ١/٨٥) مروياً عن عبدالله بن مَسْلمة بن أسلم قال: لقيتُ جريراً فقلت له: يا أبا حَزْرة، إن شعرك رُفع إلى المدينة، وأنا أحبّ أن تسمعني منه شيئاً، فقال: إنكم يا أهل المدينة يُعجبكم النسيب، وإن أنسبَ الناس: المخزومي، يعني ابن أبي ربيعة.

ومن أخبار جرير في المدينة ما ذكره أبو الفرج أيضاً، (الأغاني ١, ٧٦) مروياً

---

(١) نشرت بجريدة (الجزيرة) ٩/٤/١٤٢٢هـ.

بسنده عن إسحاق بن يحيى بن طلحة قال: قدم جرير بن الخطفي المدينة، ونحن يومئذ شباب نطلب الشعر، فاحتشدنا له ومعنا أشعب - وكأنهم يهيئونه لأمسية شعرية كما نفعل نحن الآن، قال: فبينا نحن عنده إذ قام لحاجة، وأقمنا لم نبرح، وجاء الأحوص بن محمد الشاعر، من قُباء على حمار، فقال: أين هذا؟ فقلنا: ويحك، لا تَعرِض له، وانصرِفْ يا أحوص! فانصرَفَ، فجاء جرير، فلم يكن أحد بأسرع من أن أقبل الأحوص عليه، فقال: السلام عليك يا جرير، قال جرير: وعليك السلام، فقال الأحوص: يا ابن الخطفي، الفرزدق أشرف منك وأشعر، قال جرير: من هذا أخزاه الله. قلنا: الأحوص بن محمد بن عاصم بن ثابت بن أبي الأقْلَح، فقال: نعم، هذا الحبيث ابن الطيب، أأنت القائل:

يقرّ بعيني ما يقرّ بعينها وأحسن شيء ما به العين قرّتِ

قال: نعم، قال: فإنه يقرّ بعينها كذا وكذا، أفيقر ذلك بعينك؟

فانصرف الأحوص، ولم يلبث أن أرسل إلى جرير تمراً وفاكهة، اتقاء لشر لسانه، فإنه خاف أن يهجوه، ثم أقبل هؤلاء الشباب على جرير يسألون عن الشعر والشعراء، وأشعبُ عند الباب، وجرير في مؤخرة البيت، فألَحَّ عليه أشعب يسأله فقال جرير: والله إني لأراك أقبحهم وجهاً، وأراك ألامهم حسباً، فقد أبْرمْتني منذ اليوم، قال أشعب: إني والله أنفعهم وخيرهم لك، فانتبه جرير، وقال: ويحك كيف ذاك.؟ قال: إني أملِّح شعرك، وأجيد مقاطعه، ومبادئه، قال: قل، ويحك، فاندفع أشعب، ونادى بلحن ابن سريج في شعر جرير:

يا أختَ ناجيةَ، السلام عليكمُ قبل الرحيل، وقبل عذْل العُذَّلِ
لو كنتُ أعلم أن آخر عهدكم يوم الرحيل، فعلتُ ما لم أفعلِ

فطرب جرير أيّما طرب، وجعل يزحف نحوه حتى ألصق بركبته رُكبته، وقال: لعمري لقد صدقت، إنك لأنفعهم لي، لقد حسّنت شعري وأجدته، وزيّنته، أحسنتَ والله، ثم وصله وكساه، وقال بعض من في المجلس لجرير: فكيف لو سمعت واضع هذا اللحن؟ قال: أوَإن له واضعاً غير هذا.؟ فقلنا: نعم، قال: فأين هو؟ قلنا: بمكة،

فقال: لستُ بمفارق حجازكم حتى أبلغه، فمضى، ومضى من معه جماعة ممن يرغب في طلب الشعر، وكنت فيهم، فأتيناه جميعاً، فإذا هو في فتية من قريش كأنهم المها، مع ظَرفٍ كثير، فأدنونا، وسألوا عن الحاجة، فأخبرناهم الخبر، فرحبوا بجرير وأدنوه وسُرّوا بمكانه، وأعظَمَ عُبيد بن سُريج موضع جرير، وقال له: سل ما تريد جُعلت فداءك، قال أريد أن تغني لي لحناً سمعته بالمدينة أزعجني إليك، قال: وما هو؟ قال:

يا أختَ ناجيةَ، السلام عليكمُ ... قبل الرحيل، وقبل عذْل العُذّلِ

فغنّاه، فقال جرير: لله دركم يا أهل مكة، ماذا أُعطيتم، والله لو أن نازعاً نزع إليكم ليقيم بين أظهركم ليسمع هذا صباحَ مساءَ، لكان أعظم الناس حظّاً في حياته، فكيف ومع هذا بيت الله الحرام، ووجوهكم الحسان، ورقة ألسنتكم، وحسن شارتكم، وكثرة فوائدكم.؟

وتفتقر البيئة الحجازية ويقل ما بيد الناس من أموال، بعد أن تجافتها الخلافة، وجفاها بعض خلفاء بني أمية وتمر بسنة محل، فعزّ على جرير أن تفتقر، وتحمّل مسؤولية إبلاغ الخليفة عمر بن عبدالعزيز، وصور بعد ما كان، فقال:

كم من ضرير أميرَ المؤمن لدى ... أهل الحجاز، دهاهُ البؤس والضررُ
أصابت السَّنةُ الشَّهباءُ ما ملكتْ ... يعينُه، فحناه الجهد والكِبرُ
ومن قطيع الحشا عاشت مخبّأةً ... ما كانت الشمسُ تلقاها ولا القمر
لما اجتلتْها صروفُ الدهر كارهةً ... قامتْ تنادي بأعلى الصوت يا عمر.!

(العقد الفريد لابن عبد ربّه ٢/٨٤)، وهكذا كان جرير رحمه الله مدنيًا بعواطفه وطبعه، وبتعلقه الشديد بالمدينة وأهلها، وكان أهل المدينة يبادلونه حبّاً بحبّ ويتلقّفونه في كل زيارة بالتكريم.

* * *

همزية شوقي النبوية[1]

للشاعر أحمد شوقي همزيات أُخَر، أطولهن نفَسًا تلك المعنونة: (كبار الحوادث في وادي النيل) التي مطلعها:

همَتِ الفُلْك، واحتواها الماءُ وحداها بمن تُقلّ الرجاء

ثم همزيته النبوية هذه، والعلاقة بين هاتين الهمزيتين واضحة جداً، فالأولى سجلت تاريخ مصر الطويل، ومواقفها الأصيلة على مر الزمان، وبيان دورها في التاريخ، والهمزية الثانية في مدح الرسول صلى اله عليه وسلم، والتأكيد على شخصية مصر الإسلامية، والإشادة بالفكر الإسلامي، ودوره الحضاري، ومطلعها:

وُلد الهدى، فالكائنات ضياءُ وفمُ الزمان تبسُّمٌ وثناءُ

ومديح الرسول صلي الله عليه وسلم على رويّ الهمزة قديم، وأشهرُهُ همزية البُوصيري التي مطلعها:

كيف ترقى رقيُّك الأنبياءُ يا سماءً ما طاولتْها سماءُ

والتي لقيت لدى الناس قبولاً واسعاً، وتحولت إلى نشيد تردّده الحناجر، وتشدو به الشفاه معلنة حبها وتعلقها بحبيبها محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله، ونظراً لأهمية موضوعها، وسلاسة عباراتها، وروعة عواطفها، توالى الشعراء عليها يقلدونها ويعارضونها، ويسعون إلى احتذائها، فهي من القصائد ذات التأثير في

---

(١) نشرت بجريدة (الجزيرة) ١٤٢٢/٣/١٠هـ.

تاريخ شعرنا العربي، وهي في ذلك مثل (بانت سعادُ)، وميمية البوصيري المعروفة بالبردة:

أمن تذكّر جيرانٍ بذي سلَمِ　　　مزجت دمعاً جرى من مقلة بدمِ

التي عارضها شعراء كثيرون، ومنهم أحمد شوقي، فقال:

ريمٌ على القاع بين البان والعلَمِ　　　أحلّ سفك دمي في الأشهر الحُرُمِ

وإذا حظيت قصيدتا البوصيري بحب العامة، وبخاصة المتصوّفة، فإن قصيدتي شوقي لقيتا الحظوة عند المنشدين والمغنين وبخاصة سيدة الغناء العربي المعاصرة السيدة أم كلثوم، وتشترك القصائد الأربع بالغلو في بعض الأبيات كنا نود أن لو خلت منها. وقد أوجدت المعارضات في هذا الباب فرصة أمام الدارسين في عقد الموازنات بين القصائد المختلفة، لعل من أهمها ما فعله زكي مبارك في كتابه (المدائح النبوية): وما فعله الصديق الأستاذ الدكتور محمد سعد بن حسين، تحت العنوان نفسه، ولشوقي مدائح أخرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم غير هذه الهمزية، لذلك قال هنا:

لي في مديحك يا رسول عرائسٌ　　　تُيِّمْن فيك، وشاقهُنّ جلاءُ
هن الحسان، فإن قبلتَ تكرُّماً　　　فمهورُهن شفاعةٌ حسناءُ
أنت الذي نظَمَ البريةَ دينُه　　　ماذا يقول وينظم الشعراء؟

وهو يتقرّب إلى الله بمدح نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ويعلم أن حبه مطلب ديني، بحيث لا يتم إيمان المرء إلا إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليه من ماله وولده ومن نفسه التي بين جنبيه. يقول شوقي في مدحته الأخرى:

أبا الزهراء قد جاوزتُ قدري　　　بمدحك، بيد أن لي انتسابا
مدحتُ المالكين فزدتُ قدراً　　　وحين مدحتك اجتزتُ السحابا

وحين نتأمل هذه الهمزية نجدها مرتبة على النحو التالي:

مقدمة من سبعة أبيات، منها:

ولد الهدى، فالكائنات ضياء ... وفم الزمان تبسُّم وثناءُ
الروح والملأ الملائك حوله ... للدين والدنيا به بُشَراء
والوحيُ يقطر سلسلاً من سلسل ... واللوح والقلمُ البديع رُواء

ويتحدث بعد ذلك عن بيت النبوة، فهو صلى الله عليه وسلم خيارٌ من خيار، لهذا تباشرت الأملاك حين ظهوره، وفاحت به الأرجاء شرقاً ومغرباً، يقول شوقي:

بك بشَّر الله السماء فزُينتْ ... وتضوعت مسكًا بك الغبراء
وبدا محيّاك الذي قسماتُه ... حقٌ، وغرّتُه هدى وحياء
وعليه من نور النبوّة رونق ... ومن الخليل وهَدْيه سيماءُ

وأشار إلى بعض الظواهر الكونية الإعجازية التي رافقت ولادته صلى الله عليه وسلم، كاهتزاز شُرفات إيوان كسرى، وجفاف بحيرة ساوة. وقال عن يتمه الذي كان مفخرة من مفاخره:

نعم اليتيم بدتْ مخايلُ فضله ... واليتمُ رزق بعضُه، وذكاءُ

ثم تحدث عن أخلاقه الطاهرة في عدد من الأبيات بدأ أربعة عشر منها بإذا الشرطية، وذلك في رغبة من الشاعر في الإيجاز وتقوية الدلالة الناجمة من وجوب تحقق الجواب إذا تحقق الشرط، منها:

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا ... منها، وما يتعشّق الكُبراء
وإذا صحبْتَ رأى الوفاءَ مجسَّمًا ... في بردك الأصحابُ والخلطاء
وإذا أخذت العهد، أو أعطيته ... فجميع عهدك ذمّة ووفاءُ
في كل نفْس من سُطاك مهابةٌ ... ولكل نفس في نَداك رجاء

ثم يمتدح أمّيّة الرسول، ويشيد ببلاغة القرآن الكريم والحديث النبوي، من ذلك قوله:

يا أيها الأميّ، حسبُك رتبةً في العلم أن دانت بك العلماء
الذكرُ آيةُ ربك الكبرى التي فيها لباغي المعجزات غَناء
أما حديثك في العقول فَمَشْرَعٌ والعلم والحِكَمُ الغوالي الماءُ
جرتِ الفصاحةُ من ينابيع النُّهَى من دَوْحه، وتفجّر الإنشاء

وتحدث فيما تحدّث عن الإسراء والمعراج، فخلط بينما، أو اعتقد أنه عبر عنهما تعبيراً قرآنياً، وليس الأمر كذلك فهما معجزتان متميزٌ أحدهما عن الآخر، وإن تواليا في الوقوع، يقول شوقي:

يا أيها المُسرَى به شرفاً إلى ما لا تنال الشمس والجوزاءُ
يتساءلون - وأنت أطهر هيكل -: بالروح أم بالهيكل الإسراء؟
بهما سموتَ مطهَّرَين، كلاهما نورٌ، وريحانيَّةٌ، وبهاء

ثم أشار إلى غزواته، وإلي عظَم الدعوة التي نشرتْها، وحملتها إلى الكون، وبرّت بها الإنسانية جمعاء، ويختمها بقوله:

ظلموا شريعتَك التي نلنا بها ما لم ينلْ من (رومةَ) الفقهاء
مشتِ الحضارة في سناها، واهتدى في الدين والدنيا بها السعداء
صلّى عليك الله ما صحب الدجى حادٍ وحنّت بالفَلا وجِناءُ

أقول لكم الحق، إن الذي شدني إلى الكتابة عن هذه القصيدة موضوعها المتصل بذكرى ميلاده صلى الله عليه وسلم، ونحن نحتفي بها بطريقة إيمانية بعيدة عن الغلو، محكومة بالحب المقرون بالاقتداء، وحسن الاتّباع، في عصر يوصم فيه كل مقتد أو مكثرٍ الصلاةَ على النبي صلى الله عليه وسلم، بالأصولية والروح المعادية لقومه وبني وطنه، ومن باب أولى أن يوصم بعدم الإنسانية، ومهاجمة حقوق الإنسان وخنق الروح الديموقطراية، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

القيام والوقوف في الشوقيات[1]

(١)

تستوقفك ظواهر فنية عديدة وأنت تقرأ الشوقيات تحس بأنها جديرة بالتوقف عندها، ومحاولة الكشف عما عسى أن يكون وراءها من دلالة، من ذلك استعمال الشاعر للفعلين: (قام - وقف) في مطلع قصائده، أو في أحد مفاصلها، وأول ما يلقانا في هذا الصدد قصيدته: (مصر تجدد مجدها ١/١٠٢):

قم، حيِّ هذي النيِّراتِ	**حيِّ الحسان الخيِّراتِ**
واخفض جبينك هيبةً	**للخُرَّد المتخفِّراتِ**
زَيْنِ المقاصد والحجا	**ل، وزين محراب الصلاة**
هذا مقام الأمهاتِ	**فهل قدرْتَ الأمهات**

فهو يواجه فعل الأمر (قم) مجرّداً من نفسه أحداً يوجه له هذا الفعل، ليكون بعد ذلك صالحاً لكل من يقرأ هذه القصيدة، ولكلّ المصريين، مطابقاً بينه وبين الفعل: (اخفض) في البيت الثاني: وقد ألقيتْ هذه القصيدة في جمع حافل من السيدات المصريات، بمسرح حديقة الأزبكية بالقاهرة، ونلتقي معه في مطلع قصيدة (على سفح الأهرام ١/١١٣):

---

(١) نشرت بجريدة (الجزيرة) ١٤٢٢/٤/٦هـ.

قف، ناج أهرام الجلال، وناد هل من بناتك مجلسٌ أو ناد
نشكو، ونفزع فيه بين عيونهم إن الأبوّة مفزع الأولاد
ونبثُّهم عبث الهوى بتراثهم من كل مُلقٍ للهوى بقياد

ويقول فيها مخاطباً (أمين الريحاني)، وهو الذي أقيم له الحفل بمناسبة زيارته لمصر:

إيه (أمينُ لستَ كلَّ محجَّبٍ في الحسن من أثر العقول، وبادِ
قم قبِّل الأحجار والأيدي التي أخذتْ لها عهداً من الآباد
وخذ النبوغَ عن الكنانةِ، إنها عهدُ الشموس، ومسقط الأرآد

[الأحجار: أحجار الأهرامات. الأرآد: جمع رأْد: والمراد الضحى].

ويختم بقوله:

إن الذي ملأ اللغاتِ محاسنًا جعل الجمال وسرّه في الضاد

ونلحظ تشابهاً بين مطلعي القصيدتين متمثلاً في ورود ثلاثة أفعال أمرية: (الأولى: قم - حيِّ - حيِّ أيضاً)، والثانية، (قف - ناج - نادِ)، ولعل ذلك جاء لإضفاء الأهمية على طبه الوقوف، وفي سنة (١٩٢٤م) بدأت عملية إصلاح الأزهر الشريف وتطويره، فقال شاعرنا في ذلك قصيدة مطلعها:

قم في فم الدنيا، وحيِّ الأزهرا وانثر على صدر الزمان الجوهرا
واذكرْه بعد المسجدين، معظِّما لمساجد الله الثلاثة مُكْبرا

وقد افتتحها أيضاً بثلاثة أفعال أمرية هي (قم - حيِّ - أُنثر، الديوان ١/١٥١). وكذلك فعل في مطلع قصيدته (تكليل أنقرة وعزل الآستانة) ١/٦٣):

قم، نادِ (أنقرةً)، وقل: يُهنيكِ مُلْكٌ بنَيتِ على سيوفِ بنيكِ

(قم - نادِ - قل). ويختمها بقوله:

إني أرى الشورى التي اعتصموا بها هي حبلُ ربِّك.. أو زمام نَبيكِ

وإذا خالف مطلع قصيدته: (العلم، والتعليم، وواجب المعلم ١/ ١٨٠) باعتماده على فعلين أمريين هما: (قم – وفّه):

قم للمعلم وفّهِ التبجيلا ... كاد المعلّم أن يكون رسولا
أعلمتَ أشرفَ، أو أجلَّ من الذي ... يبني، وينشئ أنفُسًا وعقولا.؟

فإنه يعود إلى التثليث في خاتمتها فيقول:

قوموا، اجمعوا شُعب الأبوة، وارفعوا ... صوتَ الشباب محبَّباً مقبولاً

ويثلث أيضاً في مطلع قصيدته (بنك مصر) التي قالها الشاعر في الاحتفال بإنشاء بنك مصر، بدار الأوبرا (١/ ١٨٤):

قف بالممالك، وانظر دولة المال ... واذكرْ رجالاً أدالوها بإجمال
وانقُل ركاب القوافي في جوانبها ... لا في جوانب رسم المنزل البالي

ويختم بقوله:

آمالُ مصر إليها طالما طمحتْ ... هل تبخلون على مصرٍ بآمال
فابنُوا على بركات الله، واغتنموا ... ما هيّأ الله من حظٍّ وإقبال

وفي رأس سنة ١٣٢٩هـ كتب قصيدة رحب فيها بالهلال (١/ ١٨٥) فقال:

العامُ أقبل، قم نُحيِّ هلالاً ... كالتاج في هام الوجود جلالا

لكنه لم يثلّث ولم يثنِّ، حتى في إعادة طلب القيام، في أحد مفاصل القصيدة، بل أفرد:

قم للهلال قيامَ محتفلٍ به ... أثنَى، وبالغَ في الثناء، وغالَى

غير أننا نلمس أنه عوض ذلك بالتثليث في الفعل الماضي (أثنى – بالغ – غالى).

وفي قصيدته (استقبال ١/ ٢١٥) يثلث في المطلع ضمن بيتين، فقال:

يا راكبَ الريحِ، حيِّ النيلَ والهَرَما وعظِّم السفحَ من سيناء، والحرمَا
وقف على أثرٍ مرُّ الزمانُ به فكان أثبتَ من أطواده، قِممًا

(حيي - عظم - قف).

وفي قصيدته (أرسطاطاليس وترجمانه) (٢١٩/١) التي كتبها في أحمد لطفي السيد، حين ترجم كتاب (الأخلاق) مهنئاً، ملتزماً بالتثليث، يقول:

مَشّاء هذا العصر، قف حدِّث عن العصر القديم
مثِّل لنا اليونان بيـ ـنَ العلم، والخلق القويم

وفي قصيدة (شهيد الحق) ٢٢١/١ - التي كتبها في الذكرى السابعة عشرة لوفاة مصطفى كامل باشا بقوله:

شهيد الحق. قم ترهُ يتيماً بأرض ضيِّعتْ فيها اليتامى
أقام على الشفاهِ بها غريبًا ومرّ على القلوب، فما أقاما

وفي قصيدة (بعد المنى) ٦٤/١ وهي أول قصيدة قالها بعد عودته من منفاه بالأندلس، وقد أشاد فيها بذكر تلك البلاد عرفاناً بفضلها يقول:

أنادي الرسمَ لو ملك الجوابا وأجزيه بدمعيَ لو أثابا
وقلَّ لحقِّه العبراتُ تجري وإن كانت سوادَ القلب ذابا
سبقن مقبِّلاتِ التُّرب عني وأدّين التحية والخطابا
فنثري الدمعَ في الدمن البوالي كنظمي في كواعبها الشيابا
وخفتُ بها كما شاءت وشاءوا وقوفًا علّم الصبر الذّهابا

وعاد إلى الثليث الأمري في قصيدته (رومة) ٢٤٨/١، والتي كتبها إلى صديقه المؤرخ؛ إسماعيل بك رأفت:

قف بروما، وشاهدِ الأمرَ، واشهدْ أن للمُلْك مالكًا سبحانه

ويختمها بقوله:

إن مـن فـرّق الـعـبـادَ شـعـوبًـا　　جـعـل الـقـسـط بـيـنـهـا مـيـزانَـهْ
هـبكِ أفـنـيـتِ بـالحـداد الـلـيـالـي　　لـن تـردّي عـلـى الـورى رومـانـهْ

ويفتتح قصيدته: (على قبر نابليون ١/٢٥٣) بالفعل (قف) منفردًا فيقول:

قـف عـلـى كـنـزٍ بـبـاريـسَ دفـين　　مـن فـريـدٍ فـي المـعـانـي، وثـمـين

لكنه يعود إلى التثليث في أحد مفاصل القصيدة فيقول:

قـم إلـى الأهـرام، واخـشـعْ، واطّـرحِ　　خَـيْـلَـةَ الـصـيـد، وزهْـوَ الـفـاتحـين

(قم - اخشعْ) - اطّرح). وقوله:

يـا كـثـير الـصـيـد، لـلـصـيد الـعُـلا　　قـم، تـأمّـل، كـيـف صـادتْـك المـنـون!
قـم تـرَ الـدنـيـا كـمـا غـادرْتـهـا　　مـنـزل الـغـدر، ومـاءَ الخـادعـين

(قم - تأمّل - قم)، وللكلام صلة إن شاء الله.

* * *

القيام والوقوف في الشوقيات[1]

(٢)

ويواصل شوقي التأكيد في شعره علي الوقوف والقيام بمعان مختلفة، لاستنهاض الهمم، والمطالبة باتخاذ موقف، والدفع إلى اعتزام الأمور، فيقول في قصيدته (تكريم) (٢٥٩/١) التي ألقاها في تكريم الأساتذة: عبدالله حمزة، وإسماعيل كامل، وعوض البحراوي، وذلك في فندق شبرد بالقاهرة:

وقَفوا له دون الزمان وريبه ... ومشت حداثتهم على حد ثانه
قم يا خطيب الجمع، هات من الحِلَى ... ما كنت تنشرُه على آذانه
فلطالما أبدى الحنين لقسِّه ... واهتزّ أشواقاً إلى سَحْبانه

وفي قصيدته (توت عنخ آمون ٢٦٦/١) يقول:

قفي يا أخت يوشع، خبّرينا ... أحاديث القرون الأولينا
وقصّي من مصارعهم علينا ... ومن دُولاتهم ما تعلمينا

(قفي - خبّرينا - قصِّي) وقوله في القصيدة نفسها:

وقوما هاتفين به، ولكن ... كما كان الأوائل يهتفونا

---

(١) نشرت بجريدة (الجزيرة) ١٤٢٢/٤/٢٣هـ.

وفي قصيدته: (تحية المؤتمر الجغرافي ١/٢٧٥) يقول:

يا موكبَ العلم قف في أرْض (مَنْفَ) به ... ينـاجِ مـهداً، ويـذكرْ لـلصبا شـانـا

(قف): وفي (الهلال والصليب الأحمران ١/٢٩١):

يـتـلاقـان عـلـى الـوغـى ... رشـداً تـبـيّـن مـن غـوايـه
يـقـفـان فـي جـنـب الـدمـا ... كـالـعـذر فـي جـنـب الجـنـايـه

وفي قصيدة (شكسبير) ٢/٨ يقول:

قـم أيّـد الحق في الـدنـيا، أليس لـه ... كتيبـةٌ منك تحت الأرض خرساءُ؟

وفي قصيدته (أثر البال في البال ٢/٩) القيام في صيغة الماضي:

قـام دونـهـا سـبـبٌ ... واسـتـحـثـهـا سـبـب
فـهـي تـارةً مـهَـلٌ ... وهـي تـارة خَـبَـبٌ

ثم قال:

قـامـت الـسُّـراة بـه ... والمـعـيَّـةُ الـنُّـجـب

وفي قصيدته (مرقص ٢/١٤):

مُـشـرفُ الـذُّرَى ... مـا نـجُ الـرَّحَـبْ
قـام ربُّـه ... يـرفـع الحُـجُـبْ
لـم تـقـم عـلـى ... مـثـلـه الـقُـبَـب
ثـم أبـا نـوا ... سٍ انـظـر الـنُّـشَـبْ

ويختم قصيدته (تحلية كتاب ٢/١٨) بقوله:

وبـنُـو الـوادي رجـالاتُ الحـمـى ... وقـفُـوا من ساقـة الجـيش ذُنـابَى
مـوقـف الـعـاجـز مـن خـلف الـوغى ... يـحرُسُ الأحمال، أو يسقي مُصابا

وفي قصيدته: (الربيع وادي النيل ٢/٢٢) يقول في حشد من الأفعال الأمريّة:

آذارُ أقبلَ، قم بنا يا صاحِ ... حيٍّ الربيع، حديقةَ الأرواح
واجمع ندامى الظَّرْف تحت لوائهِ ... وانشر بساحته بساط الراح
صفوٌ أتيحَ، فخذ لنفسك قسطُها ... فالصفوُ ليس على المدى بمُتاح

(قم - حيٍّ - اجمع - انشر - خذ - إلخ). وفي وصف مشاهد الطبيعة في طريقه إلى الآستانة قال:

تلك الطبيعة قف بنا ياساري ... حتى أريك بديع صنع الباري

ثم يقول:

قامت على ضاحي الجِنان، كأنها ... رضوانُ يزجي الخُلْد للأبرار

ويقول:

قام الجليدُ بها وسال، كأنه ... دمعُ الصبابة بلَّ غَضٍّ عِذار

ويقول أيضاً:

المشترين الله بالأبناء ... والأزواج، والأموال، والأعمار

وفي سينيته الأندلسية ٢/٤٥) يقول:

أكثرتْ ضجةَ السواقي عليه ... وسؤالَ اليراع عنه بهمْس
وقيامَ النخيل ضَفَّرن شَعْراً ... وتجرّدن غيرَ طوقٍ وسَلْس

(سلْسلت النخلةُ: ذهبَ كربُها). وقال في قصيدته: أنْس الوجود ٢/٥٧):

قف بتلك القصور في اليمّ غرقى ... ممسكًا بعضها من الذعر بعضاً
كعذارَى أخفين في الماء بضًا ... سابحاتٍ به، وأبدين بَضّا

وفي قصيدته (نكبة دمشق ٢/٧٤) يقول:

وقفتمُ بين موتٍ أو حياةٍ ... فإنْ رمتم نعيم الدهر فاشقُوا
وللأوطان في دم كل حُرٍّ ... يدٌ سلفت ودينٌ مستَحَق

وفي قصيدته (طوكيو ٢/٨٥) يقول:

قف بطوكيو، وطفْ على (يُوكاهامَةْ) ... وسل القريتين: كيف القيامة
دنت الساعة التي أنذرَ النا ... سَ، وحلّتْ أشراطها والعلامَةْ
قف تأملْ مصارعَ القوم، وانظرْ ... هل ترى من ديار عادٍ دِعامه

ولننظر كيف عاد إلى التثليث الأمري: (قف - طف - سلْ) ثم (قف - تأمّلْ - انظر) مما يوحي بتمسكه بالإخراج الفني الذي اختاره، ويؤكد كيف يمكن أن تسيطر بعض المفردات، وبعض التراكيب على الشاعر، وتضعه في حيز لغوي متكرر، يمنحنا فرصة لتعرّف المجالات اللغوية التي يتيحها الشاعر لنفسه من بين مختلف المجالات.

* * *

القيام والوقوف في الشوقيات[1]

(٣)

وهكذا يتمسك شوقي ببدء الكثير من قصائده في الشوقيات، وبعضها من عيون أشعاره، بالفعل (قم) و(قف)، وها نحن نواصل معه الرحلة، فنجده في قصيدته (الطيارون الفرنسيون ٢/٢٨) يقول:

قم سليمان، بساط الريح قاما ... مَلَكَ القوم من الجوّ الزماما
حين ضاق البَرُّ والبحر بهم ... أسرجوا الريح، وساموها اللجاما

وفي قصيدة (توت عنْخ آمون) ٢/٩٥ يقول:

هذا القيام، فقل لنا الـ ... ـيومُ الأخيرُ متى يكون؟
البعثُ غاية زائلٍ ... فانٍ، وأنتم خالدون

وفيها أيضاً يقول:

هذا المقامُ عرفتُه ... وسبقتُ فيه القائلين
ووقفتُ في آثاركم ... أزن الجلال، وأستبين

ويقول أيضاً:

---

(١) نشرت بجريدة (الجزيرة) ١٤٢٢/٤/٣٠هـ.

أقعدتُ جيلاً للهوى واقمتُ جيلاً آخرين

ونلحظه هنا لم يطالب غيره بالوقوف تأمُّلاً، بل كان يتحدث عن نفسه بصيغة الماضي، فهو الذي وقف وهو الذي منح نفسه فرصة التأمل في آثار الماضيين.

وفي قصيدته الأندلسية (يا نائح الطلح) ٢/١٠٤ يقول:

رسمٌ وقفنا على رسم الوفاء له نجيش بالدمع والإجلالُ يثنينا
لفتيةٍ لا تنال الأرض أدمعَهم ولا مفارقهم، إلا مُصلّيا

وقال في معرض الغزل واصفاً الغصون وما عليها من حمائم: (٢/١٢٠):

مشَى في حواشيها الأصيلُ، فذهَّبْت ومارتْ عليها الحلْيُ وهي تميد
وقامت لديها الطيرُ شتَّى، فآنِسٌ بأهلٍ، ومفقود الأليف، وحيد
وباكٍ ولا دمعٌ، وشاكٍ ولا جوىً وجذلانُ يشدو في الربّى، ويُشيد

وفي قصيدة «دمشق» ٢/١٠٠ يقول على طريقته في التثليث:

قُم، ناج (جلّق)، وانشدْ رسم من بانوا مشت على الرسم أحداث وأزمان

لم تخلُ حتى قصائد الغزل من هذا الانبهار الذي يعبر عنه بالأمر (قم أو قف) ففي إحدى قصائده (٢/٢١) يقول:

قف باللواحظ عند حدِّكْ يكفيك فتنةُ نار خدِّكْ
واجعلْ لغمدك هُدنةً إن الحوادث ملءُ غِمْدكْ
وصن المحاسن عن قلوب لا يدين لها بجُندك

(قف – اجعل – صن).

وفي قصيدة (مُضناك ٢/٢٢) يقول:

مُضناك جفاه مرقدُهُ وبكاه ورحّم عُوّدُه
وبناجي النّجم، ويتعبُه ويقيم الليل، ويقعده

ويقول (٢/١٢٤):

عـرضـوا الأمـان عـلـى الخـواطـر   واسـتـعـرضـوا الـسُّـمْـر الخـواطـر
فـــوقـــفـــتُ فـــي حـــذَرٍ، ويـــا   بَـــى الـــقـــلـــبُ إلا أن يـــخـــاطـــر

ويقول (٢/١٢٧):

ومن لم يُقم سترًا على عيب غيره   يعشْ مُستباح العِرض منهتك السّتْر
وخـمـيـلـةٍ فـوق الجـزيـرة مـسُّـهـا   ذهـبُ الأصـيـل حـواشـيـاً ومـتـونـا
وقـف الحـيـا مـن دونـهـا مـسـتـأذنـاً   ومـشـى الـنـسـيمُ بـظـلّـهـا مـأذونـا

وقال (٢/١٤٣):

قـــالـــوا لـــه روحـــي فـــداه   : هـــذا الـــتـــجـــنـــي مـــا مـــداه.؟
أنـــا لـــم أقُـــمْ بـــصـــدوده   حـــتـــى يـــحـــمّـــلـــنـــي نَـــواه

وفي قصيدة بعنوان (المؤتمر ٢/١٥٣) قال:

وقـفـات حـقٍّ لـم تـقـفـهـا أمـةٌ   إلا انـثـنـتْ آمـالُـهـا بـنـجـاح

وفي (توت عنخ آمون والبرلمان) ٢/١٥٨ يقول في أفعال أمرية متوالية:

قـم سـابـق الـسـاعـةَ، واسـبـق وعْـدهـا   الأرض ضـاقـت عنك، فـاصـدع غِمْدها
وامـلأ رمـاحًـا غَـورَهـا ونجـدَهـا   وافـتـح أصـول الـنـيـل، واسـتـرِدَّهـا

وفي (مصرح اللُّورد كِتْشنر)/ ١٦٠) يقول:

قـف بـهـذا الـبـحـر، وانـظـر مـا غـمـرْ   مـظـهـر الـشـمـس، وإقـبـال ا لـقـمَـرْ

وفي قصيدة (ذكرى استقلال سوريا ٢/١٨١) يقول:

سلوا الحرية الزهراء عنا ... وعنكم، هل أذاقتْنا الوصالا
عرفتم مهرها فمهرتموها ... دمًا صبغَ السياسبَ والدِّغالا
وقمتم دونها حتى خضبتمْ ... هوادجها الشريفةَ والحجالا

وقال فيها أيضاً:

مقيمٌ ما أقامت (ميسلون) ... يذكّر مصرَع الأُسدِ: الشِّبالا
أقام نهارَه يُلقي ويَلقَى ... فلما زال قرصُ الشمس زالا

وفي إحدى همزياته (الشوقيات ٣/٤) قال:

ولقد عهدتكَ لا تضيّع راجياً ... واليوم ضاق الكلُّ فيك رجاءً
وعلمتُ أنك من يودّ ومن يفي ... فقف الغداةَ لو استطعت وفاءً

ونلحظ أنه في البيت الأول أدخل أل على لفظ (كلّ)، وذلك لا يرتضيه النحاة، فقد نبهوا إلى عدم جواز دخول أل على (بعض، وكل) لعدم الفائدة، من جهة أنهما من الألفاظ الموغلة في الإبهام، فلا تتعرف، ولا تتخصص. وقال عن (عبدالحليم العلائلي بك ٣/٢١) ولكن بصيغة الماضي:

وكم من موقفٍ ماض وقفتم ... فكنتم فيه للوطن الفداءَ

ويمتدح يعقوب صرُّوف، أحد صاحبي مجلة المقتطف، وجريدة المقطّم المتوفى سنة ١٩٢٨م، (الشوقيات ٣/٢٩) فيقول:

وعشنا بها جيلين قمتَ عليهما ... معلّم نشء، أو إمام شباب
سهولٌ من الفصحى وقفتَ بها الهوى ... على ما لديها من رُبىً وهضاب

وتوفي الشاعر محمد عبدالمطلب سنة ١٩٢١م الذي كانَ يلقب بشاعر البدو، وهو من قبيلة جهينة العربية المصرية، فألقى شوقي في حفل تأبينه إحدى بائياته المؤثرة، ومطلعها:

قام من علّته ا لشاكي الوصِبْ ونلقّى راحةَ الدهر التَّعِبْ
أيها النفس، اصبري، واسترجعي، هتف الناعي بعبدالمطلب

وقال فيها:

قم صف الخُلد لنا في ملكه من جلال الخُلْق، والفَنع العجَبْ
... قم، تأمّل، هذه الدارُ وفَى لك من طلأبها الجمعُ الأرِبْ

* * *

القيام والوقوف في الشوقيات[1]

(٤)

ويُتوفَّى الشيخ محمد عبده، مفتي الديار المصرية، وذلك سنة ١٩٠٥م، ومما اشتهر به رحمه الله المكانة الغنية في تفسير القرآن الكريم، كما اشتهر معه في ذلك تلميذه رشيد رضا، يقول شوقي مخاطباً الشيخ الإمام (٤١/٣):

مفسِّر آي الله بالأمس بيننا　　　قُم اليوم فسِّر للورى آية الموت

ويعدّ [رياض باشا] في مصر أحد الشخصيات الكبيرة التي ارتبطت بها مجموعة من أحداث التاريخ المصري، ورثاه شوقي فقال: (٤٢/٣):

مماتٌ في المواكب، أم حياةٌ　　　ونعشٌ في المناكب، أم عظاتٌ
ويومُك في البريّة، أم قيامٌ　　　وموكبك الأدلة والشّيات
(رياضُ) طويتَ قرنًا ما طوتْهُ　　　مع (المأمون): دجلةُ والفراتُ
فقمتَ عليه تجربةً وخُبْرًا　　　ومدرسةُ الرجالِ التجرياتُ
فهلاً قمتَ في النادي خطيباً　　　لك الكلمُ الكبارُ الخالداتُ!

وفي رثاء (عثمان باشا غالب) الذي توفي سنة ١٩٢٠م)٤٩/٣) قال:

---

(١) نشرت بجريدة (الجزيرة) ١٤٢٢/٤/١٤هـ.

ضجت لمصرع غالبٍ في الأرض مملكة النبات
قامت على ساقٍ لغيـ ـبته، واقعدت الجهاتِ
عثمانُ، قم ترَ آيةً اللهُ أحيا الموميـاتِ

ويقول في رثاء المغني (عبدالحي) المتوفي سنة ١٩١٢م (٥٢/٣)، مختتماً القصيدة التي رثاه بها:

قم غنِّ ولدان الجنان، وحُورَها وابعثْ صداك فكلّنا أرواحُ

وفي رثاء (محمد ثابت باشا) المتوفَّى سنة ١٩٠١م (٥٣/٣):

قم، فحدّث عن السنين الخوالي وفتوحِ المملّكين الصِّيدِ

وفي أحد زعماء مصر المشاهير (محمد فريد بك) قال: (٥٥/٣)، المتوفى سنة (١٩٢٠م):

كلّ حيٍّ على المنية غادٍ تتوالى الركابُ، والموتُ حادِ
هل ترى كالتراب أحسنَ عدلاً وقيامًا على حقوق العباد!
قم إن اسطعتَ من سريرك، وانظر سرُّ ذاك اللواء في الأجناد

وحين فقد الدكتور محمد حسين هيكل ابنه الوحيد سنة ١٩٣٥م عزّاه شوقي بقصيدة مطلعها: (٥٩/٣)

الضلوعُ تتقدُ والدموع تطّردُ
(هيكلُ) النقاءِ لهُ من مدامع عمَدُ
قامت النُّعوشُ على جانبيْه والوُسُدُ

وكان (عبدالخالق ثروت باشا) من الزعماء المصريين الأفذاذ، مات بفرنسا سنة (١٩٢٨م)، وكان شوقي من أصدقائه الحميمين، فرثاه بمطولة (٦٢/٣) بدأها بقوله:

يموت في الغاب، أو في غيره الأسدُ كل البلاد وسادٌ حين تُتَّسدُ
نعَى الغمامَ إلى الوادي وساكنه : برقٌ تمايل منه السهل والجلَدُ

قام الرجال حيارى، منصتين له حتى إذا هدَّ من آمالهم قعدوا

وقال في (عبدالعزيز جاويش) حين مات سنة (١٩٢٩م) (٣/٦٦):

ثلاثُ عقائدَ في حفرةٍ تدكّ الجبالَ، وتوهي الحديدْ
قعدن فكنّ الأساس المتينَ وقام عليها البناء المشيد

وهكذا نلحظ أن القيام والوقوف شغل حيزاً كبيراً من قصائد الرثاء عند الشاعر، فلم تكد تخلو منه قصيدة واحدة من مراثيه، وذلك كما رأينا في النماذج السابقة، وما نجده فيما نتابعه معاً في القصائد اللاحقات. ففي تعزيته لصديقه (حامد بك مصطفى خلوصي) في والده الأمير لأيْ مصطفى: يقولك (٣/٦٩):

كأس من الدنيا تدارْ من ذاقها خلع العِذارْ
الليل قوّامٌ بها فإذا ونَى قام النهارْ

ويموت (قاسم أمين سنة ١٩٠٩م)، فيرثيه شوقي بقصيدة منها (٣/٧٦):

تشري الممالكُ بالدم استقلالَها قوموا اشتروه بفضةٍ ونُضار
هاتُوا (ابن ساعدةٍ) يؤبّن (قاسمًا) وخذوا المراثيَ فيه من (بشّار)

ولم تقتصر دعوته إلى الوقوف والقيام على مراثي المسلمين أو العرب أو المصريين فقط، بل شملت كل عظيم، وربما كل من رثاهم شوقي، فهو يقول في مرثيته لتولستُويْ الفيلسوف الروسي الشهير، (٣/٨٠)، توفي سنة ١٩١٠م:

تولستويُ، تُجري آيةُ العلم دمعَها عليك، ويبكي بائس وفقيرُ
قم، انظرْ، وأنت المالئ الأرض حكمةً الجْدَى نظيمٌ، أم أفاد نثير.؟

وفيها يقول أيضاً:

وقام مقام الفرد في كل أمةٍ على الحكم جمٌّ يستبدّ غفيرُ

وفي مرثيته لواحد من علماء القانون في مصر، (وهو عمر بك لطفي سنة ١٩١١م) (٣/٨٣) يقول:

قفوا بالقبور نسائلْ عمرْ: متى كانت الأرضُ مثوى القمر.؟
سلوا الأرض: هل زيِّنت للعَليـ ـم، وهل أُرِّجتْ كالجنان: الحُفرْ؟
وهل قام (رضوان) من خلفها يلاقي الرضيَّ، النقيَّ، الأبَرْ
فقمتَ إلى حفرةٍ هيئتْ وقمتُ إلى مثلها تحتفرْ

إنها وقفة على القبور، لا على الأطلال، ومساءلةٌ للحفر وساكنيها، لا للربوع التي لا أحد فيها، وفرقٌ بين وقفة ووقفة، ومساءلة ومساءلة، وإن اشتركا في الوحشة والكآبة والاغتراب والافتقار والاقتصار!

* * *

القيام والوقوف في الشوقيات[1]

(٥)

ومازال القيام والوقوف يشغل الشاعر أحمد شوقي، كما رأينا ونرى، في أغراض الشعر المختلفة، من غزل ورثاء وحماسة، وماتزال تشغلنا منه هذه الكثرة التي تحولت إلى ما يشبه اللازمة الغنائية والشعرية في قصائده. ومن الشخصيات الوطنية التي بهرت شوقي، شخصية (مصطفى كامل) ومن مراثيه فيه قوله (٣/٩١):

لم يمت من له أثَرْ ... وحياةٌ من السِّيَرْ
لم ينم عنك ساعةً ... في الأحاديث والسمرْ
قم ترَ القوم كتلةً ... مثل ملمومة الصخَرْ
آذنونا بموقفٍ ... من جلالٍ ومن خَطر

وتوفي الأديب مصطفى لطفي المنفلوطي (سنة ١٩٢٤م) فرثاه شوقي بعينيّة من أرق الرثاء في الشعر العربي فقال: (٣/٩٤)، وكان قد صادف أن يوم وفاة المنفلوطي كان يوم أطلق الرصاص على سعد زغلول، فلم يلتف الناس حول نعشه، ولا حضروا جنازته بالقدر الكافي، وانشغلوا بما حصل لسعد.

من مات في فزع القيامة لم يجد ... قدمًا تشيِّع، أو حفاوة ساع
ما ضرَّ لو صبرت ركابُك ساعةً ... كيف الوقوفُ إذا أهاب الداعي

(١) نشرت بجريدة (الجزيرة) ١٤/٤/١٤٢٢هـ.

ورثى وكيل وزارة المعارف (عاطف بركات باشا، المتوفى سنة ١٩٣٥م)، فقال: (٩٧/٣):

فخلِّ الأربعين لحافليها ... وقم تجد القرون مَرَرْنَ ساعًا
ولم تكن الحتوفُ محلَّ شكٍّ ... ولا الآجالُ تحتمل النزاعا
قُمِ ابْنِ الأمّهات على أساسٍ ... ولا تبن الحصونَ ولا القلاعا

وخاطب الطيارَيْن (فتحي ونوري) اللذين قدما من الآستانة إلى مصر بطيارتهما، فسقطت بهما قريباً منها، فماتا وذلك سنة ١٩١٣م، (١١٦/٣):

انظر إلى الأقمار كيف تزول ... وإلى وجوه السعد كيف تَحُولُ
كم ألف ميلٍ نحو مصر قطعتمُ ... فيم الوقوفُ ودون مصرٍ ميل؟

ومما قاله في رثاء علي باشا أبو الفتوح المتوفى سنة ١٩١٣م (١٢١/٣):

ما بين دمعي المسبَلِ ... عهدٌ، وبين ثرى (علي)
ووقفتُ ما بين المحقِّـ ... ـقِ فيه، والمتخيِّلِ

وفي رثاء جورجي زيدان المتوفى سنة ١٩١٤م قال: (١٢٥/٣):

فقف على أهله، واطلب جواهرهُ ... كناقدٍ ممعنٍ في كفّ لألٍ
فالعلم يفعل في الأرواح فاسدُه ... ما ليس يفعل فيها طبُّ دجّال
وربَّ صاحب درسٍ لو وقفت به ... رأيت شبة عليمٍ بين جُهّال

وفي رثائه لمجموعة من طلبة البعثة المصرية إلي البلاد الأوروبية، ماتوا سنة (١٩٢٠م) في صدام قطارات بإيطاليا، قال: (٢٨/٣):

فيا ناقليهم، لو تركتم رُفاتَهمْ ... أقام يتيمًا في حراسة لألِ
لئن فات مصرًا أن يموتوا بأرضها ... لقد ظفروا بالبعث من تُربها الغالي
وما شغلتهمْ عن هواها قيامةٌ ... إذا اعتلَّ رهنُ المحبِسين بأشغال

وفي (سعيد بك زغلول المتوفى سنة ١٩٢٢م)، وهو ابن أخت الزعيم (سعد زغلول باشا):، قال (٣/١٣٢):

آلَ (زغلولَ)، حسبكم من عزاءٍ ... سنَّةُ الموت في النبيِّ وآلهِ
فجأ الدهرُ فاقتضبتُ القوافي ... من فجاءاته وخطفِ ارتجاله
قم فشاهد لو استطعت قياسًا ... حسرةَ الشعر، والتياعَ خياله

وقال في ذكرى المغني الشهير (سلامة حجازي سنة ١٩٣١م) - ٣/١٣٨:

أقعدَ الروضَ في الحياة مليًّا ... وأقام الرُّبَى بسحر الهديلِ
قام يجزي (سلامةً) في ثراهُ ... : وطنٌ بالجزاء غير بخيل
مصرُ في غيبة المشايع، والحا ... سدِ، والحاقدِ اللئيم الذليل
قامت اليوم حول ذكراك تجري ... وطنيًّا من الطراز القليل

وفي رثاء (أدهم باشا) القائد العثماني في حروب الأتراك مع اليونان قال (٣/١٤٠):

(فَرُوق) اضحكي، وابكي فخاراً ولوعةً ... وقومي إلى نعش الفقيد المعظَّم
وخطِّي له بين السلاطين مضجعًا ... وقبرًا بجنب الفاتح المتقدم
ويا قومُ، هذا من يقام لمثله ... مثالٌ لباغي قدوةٍ متعلِّم

(فَرُوق: من أسماء الآستانة. الفاتح المتقدم: المقصود محمد الفاتح).

ومات الشريف الحسين بن علي سنة ١٩٣١م ودفن بالقدس الشريف، فرثاه شوقي، بروح عربية، رغم أن ذلك يتنافى مع بعض مواقفه من الخلافة العثمانية، مما قد يثير بعض التساؤلات حول مراثي شوقي، هل كان يكتبها تعبيراً عن موقف، أو هي مجرد إرضاء لبعض الخواطر والجهات؟ قال شوقي (٣/١٥٠):

لك في الأرض والسماء مآتم ... قام فيها أبو الملائك هاشم
قعدَ الآلُ للعزاءِ، وقامت ... باكياتٍ على الحسين الفواطم

قم تأمّل بنيك في الشرق زُين التّا ج، ملءُ السرير، نورُ العواصم
قم، تحدّث أبا عليٍّ إلينا كيف غامرتَ في جوار الأراقم؟
حبذا موقفٌ غُلبتَ عليه لم يقفه للعُرب قبلك خادم
نقّلوا النعش ساعةً في ربّا الفتـ ـح، وطوفُوا بريِّه في المعالم
وقفوا ساعةً به في ثرى الأقما رِ، من قومه وتُرْب الغمائم

* * *

القيام والوقوف في الشوقيات[1]

(٦)

حين أحسست وأنا أقرأ شعر شوقي، أنه يعتمد كثيراً على مجموعة من الألفاظ تتوارد في شعره وتتكرر بشكل لافت، لم أكن أتصور أنه يمكن تجميعها في زمر محدّدة أو تكويرها في بؤر لغوية يطولها الحصر، وتخضع للدرس، وها نحن من خلال متابعتنا لاستعماله لكلمتين: (القيام والوقوف) نمسك بإحدى تلك الزمر، وفي كثرة كاثرة، تفسّر بعض تلك الاستعمالات، بالإضافة إلى ما تتيحه لنا هذه المتابعات من دفء شعري متدفق، ونبضات عاطفية حانية، ومازلنا مع الشاعر في المجلد الثالث من الشوقيات، وفيه (١٦٦/٣) نجده يرثي الدكتور أحمد فؤاد، أحد الأطباء المشاهير، والمتوفَّى (سنة ١٩٣١م) فيقول مشبّهاً له بيوسف الصديق:

رُحماك (يوسفُ) قف ركابك ساعةً ... واعطف على (يعقوب) فيه حزينا

● وفي المجلد الرابع (١٥/٤) يرثي الموسيقي سيد درويش في ذكراه سنة ١٩٣١م فيقول:

أيها الدرويشُ، قم، بُثَّ الجوى ... واشرح الحبَّ، وناج الشهداء
لا ترق دمعًا على الفن، فلن ... يعْدم الفنُّ الرُّعاةَ الأمناء

(١) نشرت بجريدة (الجزيرة) ١٤٢٢/٦/١٣هـ.

● وفي أخر قصيدة قالها سنة ١٩٣٢م، ألقيت يوم وفاته، وجهها للشباب الذي نهض بمشروع القرش، قال (٤/٢٦):

لا يقيمنْ على الضيم الأسدْ ... نزع الشبلُ من الغاب الوتدْ
اتركوه يَمْشِ في آجامه ... ودعوه عن حمى الغاب يذُد

● وفي الاحتفال الذي أقيم بمناسبة عيد الجهاد الوطني سنة ١٩٢٦م كتب قصيدة وطنية (٤/٢٩) فقال:

وقمنا في شراع الحق نلقَى ... وندفع عن جوانبه الرياحا
نعالج شدةً، ونَرُوض أخرى ... ونسعى السعيَ مشروعًا مباحا

● وفي غليوم رئيس ألمانيا (سنة ١٩٠٦م) الذي قسم العالم إلى جرمان وغير جرمان، قال شوقي مدافعاً عن العرب والمسلمين:

يا ربّ، ما حكمُك؟ ماذا ترى ... في ذلك الحلم العريض الطويل؟
قد قام غليومُ خطيبًا، فما ... أعطاك من ملكك إلا القليل

● ووقف (غليوم الثاني) على قبر صلاح الدين، فسلّم عليه وحياه، فهز هذا الموقف شوقي، فأنشد يقول: (٤/٥٦):

رعاك الله من ملك هُمام ... تعهّد في الثرى ملكًا هماما
أرى النسيان أظمأهُ، فلمّا ... وقفتَ بقبره كنت الغماما
وقفتَ به تذكّره ملوكًا ... تعوّد أن يلاقوه قياما

● وفي وصف (الفنار) ٤/٥٧ قال:

مشى على الماء، وجا ... بَ كالمسيح العَبَبا
وقام في موضعه ... مستَشْرِفًا، منقِّبا

● وعلى لسان حارس الفنار قال:

قد عشتُ في خدمتهمْ ... ولا تراني تعِبًا
كم من غريقٍ قمتُ عنْـ ... ـدَ راسه مطبِّبا

● وفي قصيدة (أثينا) التي نشرها بمجلة رمسيس (سنة ١٩١٢م) قال (٦١/٤) حول أبي الهول، والأهرامات:

ما فلّ ساعدَهُ الزمانُ، ولم ينل ... منه اختلافُ جوارفٍ، ونوارِ
كالدهر لو ملكَ القيامَ لفتكةٍ ... أو كان غير مُقلَّمَ الأظفار
وثلاثةٍ شبَّ الزمان حيالها ... شُمٌّ على مَرِّ الزمان، كبار
قامت على النيل العهيدِ عهيدةً ... تكسوه ثوبَ الفخر وهي عوار

وفي تحية مجموعة من الطلاب المصريين المبتعثين إلى أوروبا قال: (٦٩/٤) يحث نفسه على تحيتهم:

قف حيِّ شبان الحمى ... قبل الرحيل بقافيهْ
عوّدتهمْ أمثالها ... في الصالحات الباقيه

وقام الملك فؤاد بزيارة الجيزة أواخر سنة ١٩٢٠م فمدحه الشاعر بقوله: (٧١/٤) في كثير من مبالغاته:

إذا ما مسَّ تربًا عاد مسكًا ... ونافسَ تحته الذهبَ الرغامُ
وإن هو حلَّ أرضاً قام فيها ... جدارٌ للحضارة أو دِعام

وحين نشر الأديب كامل الكيلاني ديوان الشاعر أحمد بن زيدون لأول مرة في مصر، تفاعل شوقي مع هذا الحدث الشعري، وبخاصة أن اسمه (أحمد) أيضاً، وأنه يجتمع معه في حب كل ما هو أندلسيّ، فقال (٧٨/٤):

يا ابن زيدون مرحبا ... قد أطلت التغيُّبا
قم ترَ الأرضَ مثلما ... كنتمُ أمس ملعبا
وترَ العيشَ لم يزلْ ... لبني الموت مأربا

وحين مرّ (غاندي) زعيم الهند المعروف بمصر سنة ١٩٣١م في طريقه إلى مؤتمر المائدة المستديرة بلندن، كتب شوقي قصيدة دالية مطلعها (٤/٨٣):

بني مصر، ارفعوا الغارا ... وحيُّوا بطل الهند
وأدُّوا واجبًا، واقضوا ... حقوق العلم الفرْد
قفوا، حيُّوه من قربٍ ... على الفُلْك، ومن بُعْد
وغطُّوا البرَّ بالآس ... وغطوا البحر بالورد

وكتب أبياتاً للموسيقار محمد عبدالوهاب، ليغنيها أمام ملك العراق (فيصل الأول، سنة ١٩٣م) فقال (٤/٨٨):

يا شراعًا وراء دجلة يجري ... في دموعي، تجنبتك العوادي
قف، تمهل، وخذ أمانًا لقلبي ... من عيون المها وراء السواد

* * *

الخاتمة المقدمة
للقيام والوقوف في الشوقيات[1]

(٧)

كان علينا أن نبدأ الحديث عن (القيام والوقوف في الشوقيات) بشيء من الشرح اللغوي للكلمتين، ليكون ذلك معيناً على المراد من طرح هذا الموضوع، ولكننا عكسنا الأمر، وها نحن نختم بالتقديم، لعل في هذا مجلبة للإثارة، وتحريضاً على التساؤل.

أ - **القيام**: جاء في اللسان «بتصرف»، القيام نقيض الجلوس. قال عبدٌ لرجلٍ أراد أن يشتريه: لا تشترني. فإني إذا جُعتُ أبغضتُ قومًا، وإذا شبعتُ أحببتُ نومًا. أي أبغضت القيام، وكرهته، واستمرأ البقاء على حاله جالسًا، وهذا يشير إلى أن القيام مسبوق بجلوس. ومنه قيام رمضان، وقيام الليل.

● قال ابن بَرِّي: وقد ترتجل العرب لفظة (قام) بين يدي الجُمَل، فتصير كاللغو. لكنه لم يمثل لها. قلت: وتأتي قام من أفعال الشروع، وذلك كقولهم: قام يسيء معاتبتي.

● والقيام: العزم، ومنه قوله تعالى: **﴿وأنه لمّا قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبَدا﴾**، أي لمّا عزم - الجن/ الآية ١٩/ قلت: لعل قام هنا بمعنى شرع. وقوله

---

(١) نشرت بجريدة (الجزيرة) ٢٧/٦/١٤٢٢هـ.

تعالى: ﴿**إذ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السموات والأرض**﴾. أي عزموا فقالوا/ الكهف/ ١٤ – ومنه أيضاً قول النابغة الذبياني:

نبذتُ حصنًا وحيًا من بني أسدٍ قاموا فقالوا: حمانا غيرُ مقروبِ

أي عزموا فقالوا. ومنه قول حسان بن ثابت:

علامَ قام يشتمني لئيم كخنزير تمرّغ في رماد

● ويجيء القيام بمعنى المحافظة والإصلاح، وذلك كقوله تعالى: ﴿**إلاّ ما دمتَ عليه قائماً**﴾ أي ملازماً ومحافظاً – آل عمران/ الآية ٧٥.

● ويجيء القيام أيضاً بمعنى الوقوف والثبات، يقال: قم لي، أي قف لي وتحبَّسْ مكانك حتى آتيك، قال تعالى: ﴿**وإذا أظلم عليهم قاموا**﴾، أي وقفوا وثبتوا في مكانهم – البقرة/ الآية ٢٠./ وعلى هذا جاء قول هُدية يصف فلاةً لا يُهتدى فيها:

يظلّ بها الهادي يقلّب طرفه يعضّ على إبهامه وهو واقفُ

أي ثابت في مكانه، لا يتقدم ولا يتأخر، ومنه قولهم: وقفت الدابة، إذا وقفت عن السير.

وقال في المعجم الوسيط ما ملخصه:

● قام: انتصب واقفاً. وقام الأمر: اعتدل. وقام فلان على الأمر، دام وثبت، وللأمر: تولاّه. وأقام بالمكان: لبث فيه واتخذه وطنًا، والشرعَ: أظهره وعمل به.

ب – **الوقوف**: أما الوقوف فمما جاء عنه في اللسان: الوقف: الحبس، ومنه وقف الدابة عن المشي ونحوه. ومنه وقف الأرض، أي حبسها علي المساكين ونحوهم.

● ومن معاني الوقوف: ترك المشي بعد إتيانه، وكل شيء تمسك عنه فقد أوقفته ووقَفته – بالتخفيف.

● التفهّم والتبيّن، ومنه قولهم: وقفتُ على ما عند فلان، أي فهمتُه وتبينتُه.

● الوقّاف: المتأني الذي لا يستعجل في الأمور، قال الشاعر:

وقد وقّفتني بين شكّ وشبهةٍ ... وما كنتُ وقّافًا على الشُّبهات

وفي حديث الحسن: (إن المؤمن وقّافٌ متأنّ، وليس كحاطب الليل).

● ومن معاني (الوقّاف) أيضاً: الإحجام عن القتال، كأنه يقف نفسه عنه ويمنعها، قال دريد بن الصمة:

وإن يكُ عبدُ الله خلّى مكانه ... فما كان وقّافًا، ولا طائش اليد

■ **وفي المعجم الوسيط:** وقف وقوفاً: قام من جلوس، وسكن بعد المشي، وعلى الشيء: عاينه، وتوقّف عن الشيء: امتنع عنه وكفّ، أو تمكّث وانتظر. واستوقفه: سأله الوقوف وحمله عليه. ولنردّد مع شوقي قوله:

قف دون رأيك في الحياة مجاهدًا ... إن الحياة عقيدة وجهاد

ونذكر بما يلي:

١ - أن ما ورد في الشوقيات يدور في عامته على المعانى المعجمية السابقة. ولم يستطع الشاعر أن يولد معاني بلاغية جديدة في ذلك.

٢ - التقى مع شعراء الجاهلية وغيرهم في وقفة الانبهار، والتحية، وبث الهموم والأشجان، والخطبة في القوم واستعراضهم، وفي البكاء أحياناً على الأطلال والإشادة بها، فقد قال امرؤ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل ... بسقط اللوى بين الدَّخُول فحومل

وقال طرفة:

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيّهم ... يقولون: لا تهلك أسًى وتجلّد

وقال غيره:

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ... ودارٍ عفت آثارُها منذ أزمان

ووقف كذلك آخرون من شعراء الجاهلية حتى أصبح ذلك الوقوف من تقاليد القصيدة الجاهلية، وجاء أبو تمام في العصر العباسي يقول:

ما في وقوفك ساعة من باس تقضي حقوق الأربع الأدراس!

وهو يرد بذلك على فئة من الشعراء هاجمت القدماء بشراسة، وسخرت منهم حول هذه الوقفة الطللية، كان من أئمتهم الشاعر أبو نواس حين قال:

صفةُ الطلول بلاغة القِدْمِ فاجعل صفاتك لابنة الكَرْمِ

نقول هذا ونحن نعلم الفرق بين وقوف ووقوف، وصفة ووصوف.

٣ - إن القيام والوقوف كثر في الشوقيات بشكل لافت، لا تفسير له إلا النضوب اللغوي والفقر الفكري فإنما اللغة وسيلتنا للتعبير والتفكير.

إن ما ذكرناه من شواهد القيام والوقوف، وغيرها من الظواهر المشابهة يمثّل حقيقة مذهلة، وهي أن بعض الألفاظ تعلق بألسنة أصحابها وأقلامهم، فلا تنفك عنهم، وتتحول إلى خصيصة من خصائصهم، المعيبة أو الحبيبة. لكن شعر شوقي - كما كنت أقول لطلبتي - إنما يتجلّى خارج الشوقيات، كما أن شوقي يظل شاعراً رائداً مهما حذفت من شعره الذي لا يعجبك أو ممّا مالأ بِهِ الآخرين.

* * *

شيء عن الطِّيَرة[1]

(١)

الطِيَرة - بكسر الطاء، وفتح الياء أو تسكينها - مصدر قولهم: تطيّرت طِيَرة كتخيّرت خِيَرة. قالوا: ولم يجئ من المصادر على هذا الوزن غير هذين اللفظين، والطُّورَة: لغة في الطِّيرة، والميمون طائره: هو المبارك حظه، قال تعالى ﴿**وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه**﴾ الإسراء/ ١٣ - أي حظه، وقيل: عمله، قال المفسرون: ما عمل من خير أو شر ألزمناه عنقه. والتطيّر: التشاؤم، قال تعالى في قصة ثمود قوم صالح عليه السلام، وتشاؤمهم من نبيّهم: ﴿**قالوا اطَّيّرنا بك وبمن معك، قال طائركم عند الله**﴾ - النمل/ الآية ٤٧ - أي إن ما أصابكم من خير وشر فمن الله، وقيل: اطّيَّرنا أي تشاءمنا. ومن معاني الطيْر أيضاً: التطير، ومنه قولهم: لا طَيْر إلا طيْر الله، كما يقال: لا أمر إلا أمر الله، وأنشد الأصمعي قول الأحمر:

تعلَّمْ أنه لا طير إلا … على متطيِّر، وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء … أحايينًا، وباطلُه كثير

وكان مذهب العرب في الفأل والطيَرة واحداً، فأثبت النبي صلى الله عليه وسلم الفأل واستحسنه، وأبطل الطيرة ونهى عنها، وجاء في الحديث: (أنه كان يحب الفأل،

---

(١) نشرت بجريدة (الجزيرة) ٢٧/٦/١٤٢٢هـ.

ويكره الطيرة)، فما الفأل؟ أصل الفأل الكلمة الحسنة يسمعها عليل، فيتأول منها ما يدل على برئه، كما لو سمع - مثلاً كلمة (سالم). أما الطيرة فهي مضادة للفأل، قال أبو ذؤيب:

زجرتُ لهم طيْر الشمال، فإن تكن　　　هواك الذي تهوى، يصبك اجتنابُها

وفي الحديث: (لا عدْوَى، ولا طيَرة، ولا هامة)، ورغم هذا النهي فإنه لا يكاد أحد يخلو من مداخلها، قال صلى عليه وسلم: (ثلاثة لا يسلم منها أحد: الطِّيَرةُ، والحسد، والظن، قيل، فما نصنع.؟ قال: إذا تطيّرت فامْضِ، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تصحِّح).

وقال الجاحظ (الحيوان ٣/٤٣٨): أصل التطير إنما كان من الطيْر إذا مرّ بارحاً أو سانحاً، أو رآه يتفلّى وينتف، ثم استعملوا ذلك في كل شيء. ولإيمان العرب بالطيَرة عقدوا الرتائم، وعشّروا إذا دخلوا القرى تعشير الحمار، واستعملوا في القداح: الآمر، والناهي، والمتربِّص، وهنّ غير قداح الإيسار.

● (الرتائم: جمع رتيمة، وهي أن يعقد الرجل - إذا أراد سفرًا - شجرتين أو غصنين، ويقول: إن رجع وهما على حالهما، كانت زوجته محتفظة بوفائها، وإلا فلا. التعشير: كانوا يزعمون أن من قرب أرضاً وبيئة فوضع يده خلف أذنه، ثم نهض عشر نهقات، أمنَ وباءها، يقول عروة بن الورد:

لعمري لئن عشرتُ من خشية الردى　　　نهاق الحمير، إنني لجَزُوع

● وكانوا من شدة طلبهم للطيَرة والفأل يشتقون من اسم الشيء الذي يرونه أو يسمعونه بعض المعاني، قال سوار بن المضرَّب السعدي:

تغنَّى الطائران ببين ليلى　　　على غصنين من غَرْبٍ وبانِ
فكان البانُ أن بانت سليْمى　　　وفي الغَرْب اغتراب غير دان

فاشتق كما نرى - الاغتراب من الغَرْب (يصنع منه عصا الرمح)، والبينونة من البان.

● وقال جران العَوْد:

جرى يوم رحنا بالجمال نزفُّها غرابٌ، وشَحّاجٌ من البين يبرحُ

(الشَّحّاج: الغُراب البارح)، فاشتق العقوبة من العُقاب، والغُربة من الغراب.

ورأى السمهري غراباً على بانه ينتف ريشه، ففسّر البان بالبينونة، ووجد في الغراب كل معاني المكروه، فقال:

رأيت غراباً واقعاً فوق بانةٍ ينتّف أعلى ريشه، ويطايره
فقلتُ ولو أنّي أشاء زجرتُه بنفسي للنهديِّ: هل أنت زاجره.؟
فقال: غرابٌ باغترابٍ من النوى وبالبان بين من حبيب نعاشره

وقال الأعشى:

ما تَعيفُ اليوم في الطير الرَّوَحْ من غراب البين، أو تَيْسٍ بَرَحْ

(الرَّوَح: اسم جمع لرائح، وقيل: هي روَحَةٌ، مثل كفَرةٌ، وفجَوةٌ، فطرح الهاء، وهو ما يفعله المذيعون والمحاضرون اليوم) ونلحظ أن الرغبة في تحقيق المشاكلة دفعت الأعشى إلى أن يجعل التيس من الطير، إذ تقدم ذكر الطير، مستعملاً إياها بمعنى التطير:

وقال النابغة:

زعم البوارح أن رحلتنا غدًا وبذاك خبرنا الغرابُ الأسوَدُ

وقال عنترة:

ظعَنَ الذين فراقَهمْ أتوقّع وجرى ببينهمُ الغراب الأسودُ
حَرِقُ الجناح كأن لَحْيَيْ رأسه جَلَمان بالأخبار هشٌّ مولَع
فزجرتُه الاّ يفرِّخ بيضُه أبداً ويصبح خائفاً يتفجّع
إن الذين نعبْتَ لي بفراقهم هم أسهروا ليلي التّمامَ فأوجعوا

(ليلى التِّمام: الشديد الطول) فقال: (جرى بينهمُ الغرابُ) لما فيه من معنى الغربة، ولأنه أبقع، وقال: (حرِقُ الجناح) تطيّر أيضاً، ثم جعل لحيي رأسه جلمين، والجلم يقطع، وجعله بالأخبار هشّاً مولعاً وجعل نعيبه وشحيجه كالخبر المفهوم. (الحيوان ٣/٤٤٢).

ولئن كان الغراب أكثر من جميع ما يتطير به في باب الشؤم، ومثله البوم، فإن التطير قد يكون بغيرهما أيضاً، قال الشاعر:

نظرتُ وأصحابي ببطن طويلع ضُحيّاً وقد أفضَى إلي اللُّبَبِ الحبلُ
إلى ظبية تَعطُو سَيالاً تَصُورهُ يجاذبُها الأفنان ذو جددٍ طفل
فقلتُ وعفت: الحبلُ حبلُ وصالها تجذّذَ من سلماك، وانصرم الحبل
وقلتُ: سيالٌ، قد تسلتْ مودتي تصورُ غصوناً، صار جثمانُها يعلو

(السّيال: كسحاب نوع من الشجر تحبه الظباء. تَصُوه: تميله. الجدد: الخطوط والعلامات).

وإلى اللقاء مع الشعراء في تطيراتهم.

* * *

شيء عن الطِّيَرة[1]

(٢)

لم أشأ أن أختم الحديث عن الطيرة في مقالتي الماضية، بل آثرت أن ألتقي بكم مرة أخرى، لنعلم أن الطيرة برغم نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عنها، ورغم أنها ضرب من الشرك بالله، فإنها ظلت شائعة في المجتمعات العربية والإسلامية، وانعكس ذلك على شعر بعض الشعراء، الذين أوردنا نماذج من شعرهم فيما سبق، ونواصل الآن إيراد بعض النماذج الأخرى، قال ابن قيس الرّقيّات:

بشّر الظبيُ والغراب بسعدى ... مرحبًا بالذي يقول الغراب

وقال أبو حيّة التميمي (زهر الآداب للحصري ١٦٧/٢):

بدا إذ قصدنا عامدين لأرضنا ... سنيحٌ، فقال القوم: مَرّ سنيح

وهاب رجال أن يقولوا، وجَمجُموا ... فقلت لهم: جار إليّ ريح

عُقَابٌ بإعقاب من الدار بعدما ... مضت نيّةٌ لا تُستطاع، طَرُوح

وقالوا: دمٌ، دامت مودّةُ بَيْنِنا ... وعادَ لنا غضٌّ الشباب قريح

وقال صحابي: هدهدٌ فوق بانةٍ ... هدىً وبيانٌ في الطريق يلوح

وقالوا: حماماتٌ، فحُمّ لقاؤها ... وطلْحٌ، فنيلت والمطيُّ طليح

---

(١) نشرت بجريدة (الجزيرة) ١٤٢١/٨/١٥هـ.

(السنيح: ما جاء من المياسر إلى الميامن. الجمجمة: عدم الإبانة في الكلام. جارٍ: من الجري. الإعقاب: التبديل. نيّة طَرُوح: بعيدة، الطليح: المهزولة).

وقال الأصمعي (الحيوان ٣/٤٦١): هرب بعض البصريين من الطاعون، فركب ومضى بأهله نحو سَفَوان (اسم ماء كان قريباً من مريد البصرة) فسمع غلاماً له يعدو خلفه وهو يقول:

تخيّر طيْرَةُ فيها (زيادٌ) ... لتخبره وما فيها خبير
أقام كأن (لقمان بن عادٍ) ... أشار له بحكمته مُشير
تعلَّمْ أنه لا طير إلا ... على متطيِّر، وهو الثبور
بلَى شيء يوافق بعضَ شيء ... أحاييناً وباطله كثير

وممن كان لا يؤمن بالطيرة المرقِّش السدوسي، قال:

إني غدوتُ وكنتُ لا ... أغدو على واقٍ وحاتم
فإذا الأشائم كالأيا ... مِنِ، والأيامن كالأشائم
فكذاك لا خيرٌ ولا ... شرٌ على أحد بدائم

(حاتم: هي هنا اسم للغراب)، وقال سلامة بن جندل، أو علقمة الفحل:

ومن تعرّض للغربان يزجرها ... على سلامته لابدّ مشؤوم

ومنهم الحارث بن حِلِّزة، حيث يقول:

يا أيها المزمِعُ ثم انثنَى ... لا يثنِك الحازي ولا الشّاحجُ
ولا قعيدٌ أعضبٌ قَرنُه ... هاج له من مَرْبَع هائج
بينا الفتى يَسعى، ويُسعَى له ... تاحَ له من أمره خالج
يترك ما رقَّحَ من عيشه ... يعيث فيه همَجٌ هامج

(الحازي: زاجر الطير، أو الكاهن، الشاحج: الناعب. القعيد: ما جاء وراءك من ظبي أو طائر، الأعضب: المكسور القرن، تاحَ: قدّر وتهيأ. الخالج: الموت يختلج المرء وينتزعه. رقّح: أصلح).

وإذا كان المستنيرون من عرب الجاهلية رفضت عقولهم الخضوع لعملية التطير واستنباء الغيب عن طريقها، فكيف بأولئك وهؤلاء في العصور الإسلامية، يختبئون وراء الخرافات، ويدينون بالولاء للجهالات؟

● وكان إبراهيم بن سيار النظّام من علماء الكلام يحارب الطيرة ويحذّر منها، وذكر في ذلك قصة وقعت له، حين سافر إلى قصبة الأهواز، تحت ضغط الحاجة، وهو لا يعرف أحداً فيها، فلما وصل إلى الميناء ليركب لم يجد سفينة، فتطيّر من ذلك، ثم وجد سفينة في صدرها خرق، فازداد تطيره، وسأل ملاحها عن اسمه فقال: (داوداذ) وهي كلمة فارسية تعني الشيطان، فتطيّر منه أيضاً، ولكنه صمم على السفر، ثم حصلت له أمور أخرى، كلها كانت مثبطات موحية بالنحس والشؤم، ولكنه لم يبال بها، ومضى في طريقه متكلاً على الله، وبينا هو جالس في الخان إذ جاء رسول من أحد العلماء الأثرياء يدعى إبراهيم بن عبدالعزيز، قال له: إن شئت مكثت ونحن متكفّلون بأمور معيشتك، وإن شئت الرجوع أعطيناك ثلاثين مثقالاً ذهبية، وأنت أحق من عذَره. قال النظام: فهجم عليّ أمر كاد ينقضني، أما واحدة، فإني لم أكن ملكت قبل ذلك ثلاثين ديناراً في جميع دهري. والثانية أنه لم يطل مُقَامي وغيبتي عن وطني، والثالثة ما تأكد لي من أن الطيرة باطل لا سند له من واقع أو خيال. وأخيراً فلنردّد مع خُثَيم بن عديّ الملقب بالرّقاص، الكلبي:

وليس بهيّابٍ إذا شدّ رحلَهُ ... يقول: عَداني اليوم واقٍ وحاتم
ولكنه يمضي على ذاك مُقدماً ... إذا صدّ عن تلك الهَنات الخُشارم

(عداني: منعني. الواقي: طائر ضخم أبقع. حاتم: من أسماء الغراب، الخُثارم: المتطيّر).

* * *

ضروب من التشاؤم[1]

يقول الشاعر العربي المتفائل، إيليا أبو ماضي:

إن شرَّ الجناة في الأرض نفس ... تتوقّى قبل الرحيل: الرحيلا
وترى الشوك في الزهور، وتعمى ... أن ترى فوقه الندى إكليلا

وهذا يعني في مذهبه أن الإنسان هو الذي يصنع مشاعره، وإحساسه بالحياة، (كن جميلاً تَرَ الوجود جميلاً). ومما يرد في هذا الشأن أن من تمام تشاؤم الشاعر ابن الرومي أنه رأى وهو يخرج من بيته عودين متقاطعين فوقهما تمرة، فرجع إلى بيته مذعوراً، ولم يمض في طريقه، لأنه قرأ العودين حرف (لا) ولفظ تَمْر: (تمرُّ)، فأصبحت الجملة في إطار تشاؤمه هكذا: (لا تمرّ). وممن تشاءم منهم الناس صالح بن عطية الأفقم، وكان لا يصحب رجلاً إلا مات أو قُتل، أو سقطت منزلته، قال فيه دعبل بن علي بن رزين الخزاعي:

قل للأمين أمين آل محمدٍ ... قولَ امرئ شفِقٍ، عليك، مُحامِ
إياك أن تُغترَّ عنك صنيعةٌ ... في صالح بن عطيّةَ الحجّام
ليس الصنائعُ عنده بصنائعٍ ... لكنّهن طوائلُ الإسلام
اضرب به نحر العدوّ، فإنه ... جيش من الطاعون والبِرُّ سامِ

(الأفقم: الذي تقدمت ثناياه العليا، فلم تقع على السُّفلى. أمين آل محمد: يريد

---

(١) نشرت بجريدة (الجزيرة) ١٤٢١/٨/٢٢هـ.

الخليفة المعتصم. تُغترّ: تؤخذ وتُنال على غرّةٍ. طوائل: جمع طائلة، يقال: بينهم طائلة، أي عداوة، البِرسام: التهاب غشاء الرئة).

● وقال محمد بن عبدالله في محمد بن عائشة الهلالي:

لِلهلاليّ قتيل أبداً في كل عام
قتلَ الفضلَ بن سهلٍ وعليَّ بن هشام
وعجيفاً آخرَ القو م بأكناف الشآم
وغدا يطلب من يُقْ تَلُ بالسيف الحسام
فأعاذ الله منه أحمداً خيرَ الأنام

قالوا: والمقصود بأحمد هنا هو أحمد بن أبي دؤاد القاضي.

وقال عيسى بن زينب في الصخري:

يا قوم من كان له والدٌ يأكلُ ما جمَّع من وَفْر
فإن عندي لابنه حيلةً بموت إن أصحبَهُ الصخري
كأنما في كفّه مِبْردٌ يَبرُد ما طال من العُمْرِ

ومن الصُّرد (اسم طائر صغير، جمعه صِرْدان، كجُرَدٍ وجِرْذان) اشتقّوا التصريد (أي التقليل)، كما اشتقوا أيضاً الصَّرَد (أي البرْد)، قال الشاعر:

وما صُرَدٌ يوماً على غصن شوْحطٍ وصاح بذات البين منها غرابُها
فقلتُ: أتصريدٌ، وشَحْط، وغُربة فهذا لعمري نأيُها واغترابها

(الشّوْحط: شجر تتخذ منه القسيّ ونحوها. الشَّحْط: البعد).

وتحصل مصادفات كثيرة للناس، من إتيان الأمور على الوجه الذي لا يريدون، فيضيقون بها، وربما عدوا ذلك من سوء الطالع وانتكاس الحظ، وهي في الحقيقة مجرد مصادفات ومقدرات نستعين عليها بالله، قال أبو عمرو المديني: لو كانت البلايا بالحِصَص، ما نالني كما نالني، فقد اختلفتْ الجارية بالشاة إلى التيّاس اختلافاً كثيراً، فرجعت الجارية حاملاً، والشاةُ حائلاً.

ومن المصادفات ما نقله الجاحظ في كتابه (الحيوان ٤٦٩/٢): عن إسماعيل بن غزوان قال: بكرتُ اليوم إلى أبي عمران، فلزِمتُ الجادّة، فاستقبلني واحدٌ فلزم الجادة التي أنا عليها، فلما غشيني انحرفت عنه يَمنةً فانحرف معي، فعدتُ إلى سمتي فعاد، فعدتُ فعاد، ثم عدت فعاد، فلولا أن صاحب بِرْذون فرّق بيننا لكان إلى الساعة يكُدُّني (أي يلحّ في مواجهتي). فدخلتُ على أبي عمران فدعا بغدائه، فأهويت بلقمتي إلى الصِّباغ (ما يصطبغ من الإدام ويغمس فيه)، فأهوى إليه بعضهم، فنحّيتُ يدي فنحًّى يده، ثم عدتُ فعاد، ثم نحيتُ فنحًّى، فقلت لأبي عمران: ألا ترى ما نحن فيه.؟ قال: سأحدّثك بأعجب من هذا، أنا منذ أكثر من سنة أشفق أن يراني ابن أبي عون الخيّاط، فلم يتفق لي أن يراني مرة واحدة، فلما أن كان أمس ذكرتُ لأبي الحارث السلامةَ من رؤيته، فاستقبلني أمس أربعَ مرات.

أليس هذا هو محض مصادفة لا دخل فيها لأي مؤثر غيبي سوى تقدير العزيز العليم. ويرى الشاعر الجاهلي سلامة بن جندل أن من يتعرض لزجر الغربان يستنْبئها سلامته، يكون كمن يجلب الشؤم لنفسه، فيقول في قصيدته التي مطلعها:

هل ما علمت وما استودعتُ مكتوم ... أم حبلُها إذ نأتك اليوم مصروم

يقول:

ومن تعرّض للغِربان يزجُرها ... على سلامته، لابدّ مشؤوم

وقال الأصمعي: قال سلَمة بن قتيبة بن مسلم: أضللت ناقةً لي عُشراء وأنا بالبدو، فخرجت في طلبها، فتلقاني رجل بوجهه حَرْقٌ من النار، ثم تلقاني رجل آخذٌ بخطام بعيره، ينشد:

فلئن بغَيتُ لها البغا ... ةَ، فما البغاةُ بواجدينا

ثم سألت عنها فقيل لي: التمسها عند تلك النار، فوجدتهم قد نتجوها حواراً، فأخذت بخطامها، وانصرفت.

وإن كان لنا من شيء نؤكد عليه فهو أن لا سعد ولا نحس إلا من الله، والسعيد السعيد من يلجأ إلى الله في جميع أحواله، فلتكن دائماً مع الله.

* * *

مشائيم تناقل أسماءهم الرواة(1)

(1)

شَأَمَهُمْ، يشأَمُهم، شَأْماً: جر عليهم الشُّؤم، الذي يعني: النحس والشر. قال في اللسان: هو خلاف اليمن. ورجل مشؤوم على قومه: أي سبب شرٍّ لهم، والجمع مشائيم، كميمون وميامين، وكان حقهما أن يجمعا جمع مذكر سالماً، فيقال مثلاً: مشؤومون، وميمونون، فجمعهما على مفاعيل من الجموع النادرة. أنشد سيبويه للأحوص اليربوعي:

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرةً ... ولا ناعبٍ إلا بشؤمٍ غرابُها

وقال أبو خَولة الرياحي: (الحيوان ٣/٤٣)

فليس بيربوع إلى العقل فاقةٌ ... ولا دنَسٌ يسودّ منه ثيابُها

فكيف بنَوْكي مالك إن كفرتمُ ... لهم هذه: أم كيف بعدُ خطابُها

مشائمُ ليسوا مصلحين عشيرةً ... ولا ناعبٍ إلا ببَيْن غرابها

وقد تشاءموا به، أي تطيروا منه، والطِّيَرة محرمة شرعاً، فالأشياء والأحداث لا تحمل سعداً أو نحساً في ذلتها، ولا تزيد على كونها أسباباً لنفاذ إرادة الله، فهو الخالق للأسباب والمسببات.

---

(1) نشرت بجريدة (الجزيرة) ١٥/٣/١٤٢١هـ.

وقد يطلق (الأشأم) ويراد به الشؤم، فهو من باب مجيء أفعل على المصدر، وذلك كقول زهير بن أبي سلمى:

فتُنتَجْ لكم غلمانَ أشأمَ كلُّهمْ كأحمر عادٍ، ثم تُرضعْ فتَفطِمِ

أي غلمان شؤم، وجمعه حينئذ (أشائم).

ومن الأمثال العربية (دَقَّ القومُ بينهم عطر مَنْشِمِ) يقول زهير في المعلقة نفسها:

تداركتما عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقُّوا بينهم عطر مَنْشِمِ

والأقاويل في (عطر منشم) كثيرة، كما أشار إلى ذلك الثعالبي في (ثمار القلوب ص ٣٠٨)، ونقل عن ابن قتيبة أنه قال: أحسنُ ما سمعتُ فيه أن مَنْشِمِ امرأة كانت تبيع العطر الحَنُوط (وهو كل ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة، ومثله: الحِنَاط)، فقيل للقوم إذا تحاربوا وتفانوا: دقوا بينهم عطر مَنشِمِ.

فعلى هذا الأساس يكون الشؤم ضمن هذا المثل على سبيل المجاز لا الحقيقة، ولكن زهيراً ذكره في معلقته مرتباً عليه حالة شؤم حلت بعبس وذبيان بسبب حرب (داحس والغبراء) التي تذكرنا بشؤم حرب أخرى هي حرب البَسُوس، التي وقعت بين بكر وتغلب، واستمرت أربعين سنة أو تزيد، سميت هذه الحرب باسم امرأة مشؤومة هي: البسوس بنت منقذ التميمية، زارت أختها أمَّ جساس بن مرة، صحبة جار لها من قبيلة (جَرْم) اسمه سعد بن شمس، ومعه ناقة له، وجدها (كُليب وائل) ترعى في أحد المراعي التي حماها وخص بها نفسه بصفته رئيس القبيلة، فرماها بسهم أصاب منها موجعاً، فأقبلت إلى صاحبها وهي ترغو، وضرعها يشْخب لبناً ودماً، وما أشد أن يصاب الأعرابي في ناقته! وما أعظم أن يحس أنه منتهك الجيرة.! فانطلق الجرميُّ إلى (البسوس) وأخبرها بالقصة، فصرخت في القبيلة: (واذلاَّه - واغربتاه.! وأنشأت تقول أبياتاً سماها العرب: (أبيات الفناء)، وهي:

لعمريَ لو أصبحتُ في دار (منقذٍ) لما ضيمَ (سعدٌ) وهو جارٌ لأبياتي
ولكنني أصبحتُ في دار غربةٍ متى يَعْدُ فيها الذئب يَعْدُ على شاتي
فيا سعْدُ، لا تغرُرْ بنفسك، وارتحلْ فإنك في قوم عن الجار أموات
ودونكَ أذوادي، فخذْها وآتني براحلةٍ لا تغدِرنْ ببنيّاتي

فسمعها ابن أختها (جساس) فقال لها: أيتها الحرة، اهدئي، فوالله لأقتلن بلَقحة جاركِ (كليباً). وبرّ بوعده، وخرج إلى (كليب)، وفي غفلة من أمره طعنه طعنةً أثبتته، وأصابت منه مقتلاً، فما لبث أن مات منها وفارق الحياة. فثارت الحرب بين بكر وتغلب، وسُفك بسبب ذلك دماءٌ كثيرة من القبيلتين، وكانت وقائع متتابعة تناقل أخبارها الرواة، وبالغ بعضهم في تهويلها إلى أن غدت بشكل يشبه الأساطير، وضرب العرب المثل بشوم هذه البسوس، ومن أملح ما قيل فيها قول (المغلّسي) من قصيدة:

وكأن بين يمينهِ وتراثِه: حربُ البسوسِ
وكأنه في زُهده وعفافه: (بِشْرُ المريسي)

ومن أشأم المشائيم (طويس المغني)، كان من الموالي الذين ازدحمت بهم المدينة المنورة في عصر بني أمية، وتسكعوا فيها على حلِّ شَعْرهم، فأغنوا الفن والغناء، وضاق بهم ذرعاً العلماء والأتقياء، وكان اسمه أول الأمر طاووساً ثم صغر تحقيراً لشأنه نظراً لسوء سلوكه، ويكنى بأبي عبدالنعيم، وهو أول من غنى في الإسلام بالمدينة.. ونقر فيها بالدف المربّع.

وكان يحس بنحسه وشؤومه على غيره، ولهذا قال موجّهاً الخطاب لأهل المدينة: (يا أهل المدينة، مادمت بين ظهرانيكم فتوقعوا خروج الدجال والدابة، فإن مت فأنتم آمنون: اعلموا أن أمِي كانت تمشي بين نساء الأنصار بالنمائم، وأنها ولدتني في الليلة التي مات فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفطمتني يوم مات أبو بكر، وبلغتُ الحلم في اليوم الذي قُتل فيه عمر بن الخطاب، وتزوجت في اليوم الذي قُتل فيه عثمان، ووُلد لي في اليوم الذي قتل فيه عليٌّ). وذهب أمره مثلاً، فقيل: (أشام من

طويس). قال الثعالبي في (ثمار القلوب ص ١٤٥). ومن أملح ما ورد في التمثل بشؤمه قول أبي الفتح البُستي في أبي علي سيمجور:

ألم تر ما ارتآه أبو علي … وكنتُ أراه ذا لبٍّ وكَيْسِ
عصى السلطانَ فابتدرتْ إليه … جيوشٌ يقلعون أبا قُبيس
وصيَّر (طُوسَ) معقِله، فأضحتْ … عليه (طوسُ) أشأم من (طويسِ)

قال: وكان أبو الحسن اللحام يلقب أبا جعفر محمد بن العباس بن الحسن بطويس، حتى شُهر به، وفيه يقول:

عاد إلى الحضرة نفسانِ … (طويسٌ)، والنذلُ (ابنُ مَطرانِ)
اثنان ما إن لهما ثالثٌ … إلا عصا موسى بن عمرانِ

قال دعْبلِ بن علي في صالح بن عطية الأفقم (الذي تقدم ثناياه فلم تقع على السفل) وكان لا يصحب رجلاً إلا مات أو قُتل، أو سقطت منزلته: (الحيوان ٣/٤٨١)

قل للأمين، أمين آل محمد … قولَ امرئ شفِقٍ عليه، محامِ
إياك أن تغترّ منك صنيعةٌ … في صالح بن عطية الحجّام
ليس الصنائع عنده بصنائع … لكنهن طوائل الإسلام
اضرب به نحر العدوّ فإنه … جيشٌ من الطاعون والبرسام

الأمين: يريد به هنا: الخليفة المعتصم، كما في الأغاني. طوائل: جمع طائلة، وهي العداوة والثأر. البرسام: بالكسر علة يُهْذَى فيها. وبالفتح كلمة فارسية بمعنى التهاب الصدر، مركب من (بَرْ) وهو الصدر و(سام) بمعنى الالتهاب.

وقال محمد بن عبدالله في محمد بن عائشة:

للهلاليّ قتيل … أبداً في كل عامِ
قتل الفضل بن سهلٍ … وعليٌّ بن هشام
وعجيفاً آخر القوْ … م بأكناف الشآم

وغـــداً يــطـــلـــب مـــن يــقـــ ـــتـــل بـــالـــســيـــف الحـــســـام
فـــأعـــاذ الـــلـــه مـــنـــه أحـــمـــداً خـــيـــر الأنـــام

أحمد: هو أحمد بن أبي دؤاد القاضي.

وقال عيسى بن زينب في الصخري، وكان مشؤوماً:

يـــا قـــوم مـــن كـــان والـــد يـــأكـــل مـــا جـمَّـــع مـــن وَفْـــر
فـــإن عـــنـــدي لابـــنـــه حـــيـــلـــةْ يمـــوت إن أُصْـــحِـبَـــه الـــصـــخـــري
كـــأنمـــا فـــي كـــفـــه مِـــبْـــرد يـــبْـــرد مـــا طـــال مـــن الـــعـــمـــر

وإلى اللقاء مع مشؤومة من العصر نفسه بالمدينة المنورة، تعتقد أنها مظلومة، وما بيدها حيلة.

* * *

مشائيم تناقل أسماءهم الرواة(١)

(٢)
الشاعرة عاتكة بنت زيد

العاتك: الكريم، والخالص من الألوان والأشياء، قال في المعجم الوسيط: يقال: أحمرُ عاتكٌ: أي شديد الحمرة. والعاتكة: مؤنث العاتك، والمرأة التي تكثر من الطيب حتى تحمرّ بشرتُها، جمعها: عواتك. قلت: ويمكن أن تدخل فيه التّطْريات بالإصباغ الحديثة.

وشاعرتنا المشؤومة هي: عاتكة بنت زيد بن عمر بن نُفَيْل، القرشية العَدَويّة، توفيت حوالي سنة أربعين للهجرة بالمدينة المنورة، وهي من حسان المهاجرات وصوالحهن، والمصادفات السيئة وحدها هي التي سلكتها ضمن أفراد هذا الميدان، والأمر كله بيد الله، إليه المرجع وإليه المآل.

تزوجت أول أمرها من عبدالله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم، وكانت امرأة ذات جمال وكمال وتمام في عقلها وجزالة منظرها، قالوا (الأغاني ٨/١٨): فغلبت على رأيه، وملكت عليه عقله وقلبه حتى شغلته عن أمور دينه ودنياه، فقال له

(١) نشرت بجريدة (الجزيرة) ١٤٢١/٣/١٥هـ.

والده أبو بكر الصديق: قد شغلتك عاتكة عن المعاش والتجارة، وألهتك عن عبادتك، طلّقها يا عبدالله! فطلقها تطليقة، وتحولت إلى ناحية الدار، فبينا أبو بكر يصلي على سطح له في الليل، إذ سمعه يقول:

أعاتِكَ لا أنساكِ ما ذرَّ شارق ... وما ناح قُمريُّ الحمام المطوَّقُ
أعاتكَ، قلبي كلَّ يوم وليلةٍ ... لديكِ، بما تُخفي النفوسُ، معلَّق
لها خُلق جَزْل، ورأيٌ، ومنطق، ... وخَلْقٌ مصون في حياءٍ، ومَصْدَق
فلم أرَ مثلي طلَّق اليوم مثلَها ... ولا مثلَها في غير شيء تُطلَّق

فرقّ له أبو بكر وأمره بمراجعتها، فخرج إليها يجري إلى مؤخر الدار قائلاً:

أعاتكَ قد طلِّقتِ في غير ريبةٍ ... وروجعتِ للأمر الذي هو كائن
كذلك أمرُ الله غادٍ ورائحٌ ... على الناس، فيه أُلفةٌ وتبايُنُ
ومازال قلبي للتفرق طائراً ... وقلبي لما قد قرَّبَ اللهُ: ساكن
ليَهْنِك أني لا أرى فيك سَخطةً ... وأنك قد تمَّت عليك المحاسنُ
فإنك ممن زيَّن اللهُ وجهه ... وليس لوجهٍ زيَّن اللهُ: شائن

وأعطاها حديقة على أن لا تتزوج أحداً من بعده، فلما مات من السهم الذي أصابهُ في غزوة الطائف رثته بقولها:

فلله عينَا مَنْ رأى مثله فتىً ... أكرَّ وأحْمَى في الهياج، وأصبرا
إذا شُرِعتْ فيه الأسنةُ خاضها ... إلى الموت، حتى يترك الرمْحَ أحمرا
فأقسمتُ لا تنفكّ عيني سخينةً ... عليك، ولا ينفك جلديَ أغبرا
مدى الدهر ما غنَّتْ حمامةُ أيكةٍ ... وما طردَ الليلُ الصباحَ المنوَّرا

فخطبها عمر بن الخطاب من بعده، فوافقت، ولكنها تحرّجت من الحديقة ووعدها لعبدالله، فقال لها استفتي! فاستفتت علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال لها: ردّي الحديقة على أهله وتزوجي! فلما قتل عمر قالت ترثيه:

عينُ جودي بعبرة ونحيب لا تُصلّي، على الإمام النجيب
فجعتنا المنونُ بالفارس المُعْـ ـلَم، يوم الهياج والتّلبيب
عصمةِ الله، والمعين على الدهـ ـر، غياثِ المنتابِ والمحروبِ
قل لأهل الضّراء والبؤس: موتُوا قد سقْته المنون كأس شَعوبِ

(التلبيب: الأخذ بالتلابيب. أو من قولهم: لبّبه بالسيف، أي وضعه على عنقه، شَعوب: الموت).

كما رثته بقولها:

مُنع الرُّقاد، فعاد عينيَ عيدٌ مما تضمّن قلبي المعمودُ
يا ليلةً حُبستْ عليّ نجومُها فسهِرْتُها والشامتون هجود
قد كان يُسهرني حذارك مرةً فاليوم حقٌ لعينيَ التّسهيدُ
ابكي أمير المؤمنين، ودونه للزائرين صفائحٌ وصعيد

فلما انقضت عدتها خطبها الزبير بن العوام فتزوجها، فلما قتل الزبير في توابع موقعة الجمل بوادي السباع رثته أيضاً فقالت:

غدَر ابنُ جُرْموز بفارس بُهْمَةٍ يوم اللقاء، وكان غير معرِّدِ
يا عمرو لو نَبّهته لوجدتَه لا طائشاً رَعِشِ اللسان ولا اليدِ
هبلتْك أمُّك، إن قتلتَ لمُسلماً حلّتْ عليك عقوبةُ المتعمِّدِ

فلما انقضت عدتها منه تزوجها الحسين بن علي؛ فكانت أول من رفع خده من التراب في كربلاء يوم قُتل، وقالت ترثيه أيضاً:

وحُسَيناً، فلا نسيتُ حسيناً اقصدتْه أسنّةُ الأعداء
غادروه بكَرْبلاءَ صريعاً جادتِ المُزْنُ في ذَرى كربلاء

(أقصدته: قتلت - الذَّرَى: الفِناء، والنواحي). قالوا: فكان بعد ذلك عبدُالله بن عمر يقول: من أراد الشهادة فليتزوج عاتكة، أما هي فقد رفضت الزواج لأنها كما قالت: ما كنتُ لأتخذ حماً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان ظاهر هذه القصة التي تناقلها الرواة والمؤرخون يشير إلى أن النفوس بدأت تنكمش عن شاعرتنا، لما حصل لها في سلسلة حياتها من فقدها للأزواج، فإنها تدل من وجه آخر على شدة صبرها، وقدرتها على مواصلة الحياة، فإن ما مرت به من نكبات يعدّ بحق من أكبر صور الابتلاء التي يتعرض لها المؤمن، ويثاب عليها إن صبر، وبتصفّح سريع لشعرها في موت أزواجها، نستطيع أن نطل على بركان الحزن المتأجج بداخلها، إذ كانت رضي الله عنها ما تكاد تبتسم، ولا تكاد تخالط قلبها فرحة، فسرعان ما تهاجمها الدموع وتغزوها الأحزان.

* * *

مشائيم تناقل أسماءهم الرواة(١)

(٣)
غراب البين وأشياء أخرى

لم تكن نظرة العرب إلى الشؤم والمشائيم، مرتبطة بالأناسي فقط، بل شملت بعض الطيور والحيوانات والأشياء أيضاً، ومن ذلك قولهم: (أشأم من رغيف الحَوْلاء). وكانت الحولاء هذه خبّازة في بني سعد بن زيد مناة (ثمار القلوب ص ٣١٠) كانت تعيش في جوار أاحد كبرائهم، مرت ذات يوم وعلى رأسها كارةُ خبز: (الكارة: ما يجمع ويحمل على الظهر أو الرأس، من طعام أو ثياب)، فتناول رجل من رأسها رغيفاً، فغضبت لذلك، وقالت له: ما لك عليّ حق، ولا استطعمتني، فلماذا أخذت رغيفي؟ أما إنك ما قصدت بهذا إلا فلاناً - تعني الرجلَ الذي هي في جواره، وانطلقت إلى مجيرها باكية شاكية، فثار، وجرى الدم في عروقه، واعتبر ما فعلهُ الرجلُ موجهاً لكرامته، وثار معه قومه، واشتبك أنصار الرجلين من أجل هذا الرغيف، وسقط بينهم قتلى كثيرون أوصلتهم القصة إلى ألف نسمة، وصار لذلك رغيف الحولاء مثلاً يضرب في الشيء اليسير، يجلب الخطب الكبير.

● وقد استثمر ابنُ العميد هذا المثل في رسالته إلى أبي العلاء السَّرَوي، التي كان ينكر فيها تعصُّبه للعجم على العرب، فقال: (اقبَل وصية خليلك، وامتثل مشورة

---

(١) نشرت بجريدة (الجزيرة) ١٤٢١/٣/٢٩هـ.

نصيحتك، ولا تتمادَ في مَيْدان الجهل يُنْضِك: أي يضعفك، ويصيبك بالهزال. والصواب: أن يقول: بنفيك، بالرفع، لأنه لا يصح تقدير إنْ الجازمة، ولا يستقيم المعنى معها، فلا يقال: إن لا تتمادَ في ميدان الجهل يُنضك، إذ الإنضاء مترتب على التمادي لا على عدم التمادي)، ولا تتهافت في لجَاج يغريك. واخش يا سيدي أن يقال: التحمت حرب البسوس من ضرع دميَ، واشتبكت حرب غطفان من أجل بعير قُرِعَ، وقُتل ألف فارس برغيف الحَوْلاء، وصبَّ الله على العجم سوط عذاب بمزاح أبي العلاء).

● وقالوا: (بِكْرُ بِكْرَيْن شيطان)، والبِكر: أول ولد الرجل، أو المرأة، فإذا كان أول ولد الزوجين معاً فهو بِكْرُ البِكْرَين، والعرب تتشاءم بالبكر إذا كان ذكراً، فإذا كان بكر البكرين، كان نهاية في الشؤم عندهم. يقول أحد الشعراء في غلام كان بِكْر بِكْرين: (ثمار القلوب ص ٦٦٦):

يا بكْر بكريْن، ويا خِلْبَ الكبِدْ ... اصبحتَ مِني كذراعٍ من عضُدْ

● ويضرب للعرب المثل في اليوم المنحوس بـ (يوم عَبيد)، وكان عَبيد بن الأبرص، وهو أحد شعراء المعلقات، قد تصدّى للنعمان بن المنذر (ثمار القلوب ص ٢١٥) في يوم بؤسه، الذي كان لا ينجو منه من لقيه فيه، كما تقول القصة، ولا يخيب من لقيه في يوم نعمه، فقال له: يا عَبيد، إنك مقتول، فأنشدني قولك: (أقفر من أهله ملحوب)، وهي معلّقة (عَبيد) المشهورة، فأنشده:

اقفر من اهله (عَبِيد) ... فاليوم لا يبدي، ولا يُعيدُ

ثم أمر به فقُتِل، وصار يومُ (عبيد) مثلاً. قال أبو تمام:

لَمّا اظلتني سماؤك اقبلتْ ... تلك الشهودُ عليَّ، وهي شهودي
من بعد أن ظن الأعادي أنه ... سيكون لي يومٌ كيوم (عَبِيد)

● وقال الجاحظ في الحديث عن الغراب (الحيوان ٢/٣١٥): غراب البين نوعانٌ: أحدهما غِربان صغار تجمع بين الضعف واللؤم. والآخر: كل غراب يتشاءم

به، فإذا نعب أو ظهر، كان عندهم نذير شرٍّ وخراب، ذلك لأنه لا يوقّع إلا في منازل القوم الراحلين ومواضع بيوتهم، يلتمس ما تركوا من بقايا تصلح لطعامه، ولا يعتريها إلا إذا بانوا، فسمّوه: غراب البين، واشتقوا من اسمه: الاغتراب، والغُربة. وليس في الأرض بارح ولا قعيد، ولا شيء مما يتشاءم به، إلا والغراب عندهم أنكد منه. قال الثعالبي (ثمار القلوب ص ٤٥٨): وللبديع الهمذاني ما يؤكد هذا المعنى، وذلك حيث يقول: ما أعرِف لفلان مِثْلاً إلا الغراب، لا يقع إلا مذموماً، على أيِّ جنب وقع، إن طار فمقسَّم الضمير، وإن وقع فمروِّع بالنذير، وإن حجل فمشية الأمير، وإن شَحَجَ (الشَّحيج: صوت الحمار أو البغل) فصوتُ الحمير، وإن أكل فَدَبَرَةُ البعير. (الدَّبرة – بفتحات –: القَرْحة).

● وقد أكثر الشعراء من ذكر غراب البين، وبخاصة في الهجاء والهجران، ومما ذكره الثعالبي في (ثماره) قول الشاعر:

يا غرابَ البين في الشؤ ... م، وميزابَ الجناب
يا كتاباً بطلاقٍ ... وعزاءً بمُصابْ

وقول الآخر:

بتُّ على رغم غراب البيْن ... انا ومن أُحبُّ ناعميْنِ
قريرَ عين، بقرير عيْن ... فظُنَّ ما شئت بعاشقين

وقال أحدهم يصف السمك والصياد:

أنعتُه أبيضُ كاللجين ... سمّاكُهُ أشعثُ ذو طِمْريْن
في اللون، لا الطِّيب: مُمسَّكين ... أشدُّ شؤماً من غراب البين

● ومن مبالغات الناس في هذا الشأن، وضلالهم فيه، مغالاتهم في نسبة الشؤم للأمكنة والأزمنة والأنواء والبروج، ويرتب بعضهم حياته عليها، وذلك بالطبع مناف للعقيدة السليمة والتفكير الصحيح القائم على أساس متين من العقل السليم، والنقل الصحيح، وسيقول بعضنا كالعادة: ذلك يتم بحمد الله خارج مجتمعنا، وبعيداً

عن حياتنا، وذلك ضرب من الهروب، وعدم القدرة على المجابهة، وإلا فمازال منا من يهتم بقراءة البروج، ويؤمن بتأثيراتها على حياته، وقد يتبع ذلك شيء من الاستدراج، ليعلم الله مدى قوة عبده المؤمن، الذي يؤمن بأن الله ربط بين عناصر الحياة بأربطة الأسباب، فلكل حادث محدث، ولكل مسبَّبات أسبابها، ولا يمكن تعطيل الأسباب والتدخل فيها، إنما المتحكم فيها هو المسبِّب الحقيقي، هو الله تبارك وتعالى، فهو الذي قد يعطلها ويبطل تأثيرها، كما هو الشأن في المعجزات والكرامات، وما عدا ذلك مما يقوله بعض الناس فهراء وبهتان مبين.

* * *

مشائيم تناقل أسماءهم الرواة(١)

(٤)
ملافظ ومواقف

يتشابك موضوع الشؤم بموضوعات أخرى، يصب أحدها في الآخر، ويتأثر به أيما تأثر، مثل موضوع الحسد، والعين، فكلاهما قد يسبب شرّاً أو يجرُّ نحساً، ولأجل هذا أمرنا الله أن نستعيذ هنا ومن أصحابهما، قال تعالى: **﴿قل أعوذ برب الفلق من شرّ ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شرّ النفّاثات في العُقد، ومن شر حاسد إذا حسد﴾** فعلى المؤمن أن يحمي نفسه بالمعوّذات الشرعية، وأن يحمي غيره منه، فإذا رأى ما يعجبه قال: ما شاء الله، وهي جملة تطفئ مثارات الشر في النفس البشرية، وتحد من تأثيراتها المدركة والمستسرّة، قال تعالى في صاحب الجنة، **﴿ولولا إذ دخلْتَ جنتك قلتَ ما شاء الله، لا قوةَ إلا بالله﴾** الكهف/٣٩ - بل وتحمي نفسك من نفسك، فالمثل يقول: ما يحسد المال إلا أصحابُه، والحسد والعين لا يعدوان أن يكونا حركة بيولوجية وأخرى سيكولوجية، يتبعها تغير على صعيد الواقع، أو في دنيا الوهم، والتخييل. ومع إيماننا بفاعلية الحسد والعين، فإنه لا ينبغي الاستسلام لما قد يتركانه في نفوسنا من هلوسة.

---

(١) نشرت بجريدة (الجزيرة) ١٤٢١/٤/٦هـ.

● ويتشاءل نوعٌ من الناس بعض الأيام والشهور والأرقام، وينسبون لها الشؤم، فهذا الرقم (١٣) منحوس عند الأوروبيين، والرقم خمسة، منحوس عند العرب، ولهذا لا تنطقه بعض الشعوب العربية، بل تضع مكانه كلمة (عدِّه) هكذا: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، عدّة، ستة إلخ. وكان الناس بالمدينة المنورة، وبعض المدن الأخرى لا يقيمون أعراسهم في شهر صفر، ويعتقدون بنحسها إن حصلت عمداً أو اضطراراً، ثم كسرت هذه القاعدة بالاعتماد على الله ثم بالفكر المستنير الذي لا يقبل مثل هذه الخزعبلات. وجاء في (ثمار القلوب ص ٦٤٩): إن بعض الناس يعدون الأربعاء أثقل الأيام، وفيه قال أحد الشعراء من مزدوجة:

الأربعاءُ يومٌ وَحِشْ ... النحسُ فيه منكمِشْ
الأخذ فيه والعطا ... من ذي المودات خَطا

ولابن الحجّاج من قصيدة يرثي بها الفتح بن العميد:

أقول ليوم الأربعاء، وقد غدا ... عليّ بوجهٍ أغبرِ اللون، قاتمِ
بَعثتَ على الأيام نحساً مؤيّدا ... بشؤمك، يا يوم الندى والمكارم

وتداول الناس الشؤم بين الأربعاء والأحد، وقالوا: كان قُدار بن سالف، ومن تابعه من ثمود، عقروا الناقة يوم الأربعاء، فصبّحهم العذابُ يومَ الأحد. وقال أبو تمام في محمد بن يوسف، وقد أوقع بقوم في يوم الأحد، كانوا من البغاة:

من كان أنكأ حدّاً في كنائسهم؟ ... أأنت أم سيفُك الماضي، أم الأحدُ؟

وقال إسماعيل الناشي:

تجنَّبْ حدة الأحدْ ... ولا تركب إلى أحدْ
فما بالدَّيْر من أحدْ ... يؤمَّلُ ثَمَّ، لا أحدْ!

● ويقول المثل: (الملافظ سعادة)، فربَّ كلمة جلبت فرحاً، وكلمة أخرى أنشأت حزناً وكآبة، أو أسالت دماءً، وأقامت حرباً، فعن إبراهيم بن المهدي العباسي

(الأغاني ١٣٨/٥) قال: أرسل محمد الأمين في ليلة من ليالي الصيف مُقْمرة: يا عم، إن الحرب بيني وبين طاهر بن الحسين قد سكتت، فصِرْ إليَّ، فإني إليك مشتاق. فجئته وقد بُسط له على سطح دار أمه زُبيدة، وعنده سليمان بن جعفر، ومجموعة من جواريه، بينهن جاريته المفضلة (ضَعْف)، وكانت تحسن الغناء، فقال لها: غنيني، فقد سُرِرت بعمومتي، فاندفعت تغنيه من شعر الوليد بن عقبة:

همُ قتلوه، كيْ يكونوا مكانه — كما فعلتْ يوماً بكسرى مرازِبُهْ
بني هاشمٍ، كيف التواصلُ بيننا — وعند أخيه سيفُه ونجائبه

فغضب، وتطيّر، وقال لها: ما قصتكِ ويحك.! غنيني ما يسرّ، فاندفعت تغني:

هذا مَقَامُ مُطَرّدٍ — هُدِمت منازلُهُ ودُورُهْ

فازداد تطيّراً، وقال لها: ويحك.! غنّي غير هذا، فغنّت:

كُلَيْبٌ لعمري كان أكثر ناصراً — وأيسرَ جُرماً منك: ضُرِّج بالدمِ

فطردها، وقال لها: قومي إلى لعنة الله. ولقد كان في إمكان هذه الجارية أن تكون أكثر ذوقاً، وأقدر على حسن الاختيار لمناسبة مثل هذه المناسبة، ومقام مثل هذا المقام، ولكنها لم تفعل، ربما لأنها باب من أبواب الشؤم الذي أصاب الأمين، وانتهى به إلى القتل، أو لأنها لشدة إخلاصها له كانت تنبهه إلى وجوب أخذ الحيطة، وعدم الانخداع بسراب الهدنة التي بادره بها أنصار المأمون، أو ربما كانت مكلفة بتوصيل رسالة إليه من أعدائه بعد أن اشتروا ذمتها وقتلوا في نفسها الإخلاص له، بحيث يساعد مثل هذا الغناء وما فيه من إيماءات للنهاية، في توهينه، وبعث اليأس والاضطراب في نفسه.

- ومن الملافظ غير الموفقة قول النابغة الجعدي: (الأغاني ٧/٥):

لبستُ أناساً فأفنيتُهمْ — وأفنيتُ بعد أناسٍ أناساً

- ويتشاءم بعض الناس بالعين التي ترف، والكف التي تشفّ، وبأوضاع

النّعلين، ونحو ذلك، ويبالغون في تحكيم الأحلام في استكشاف الغيب، ويضيقون بنعيق الحمير ونعيب البوم والغربان، كما أن بعض الناس - مع الأسف - يأتون إلي العرّافين والمنجمين، ومن يدعون استكشاف الغيب عن طريق ضرب الودع والرمل، وغيرها من الوسائل الشيطانية والخرافات التي لا يقبلها عاقل يحترم نفسه، ويحس بقيمته وكرامته وإنسانيته الحقة في هذا الوجود، والذي يستغرب له أن مثل هذا السلوك ليس قاصراً على العامة والجهال، بل قد يصدر من بعض المتعلمين والمتعلمات وحملة الشهادات، فمتى يتحرر أمثال هؤلاء من أسر الخرافة، ويحكّمون النقل والعقل فيما يشهدون ويأتون أو يذرون.!

* * *

إصدارات نادي أبها الأدبي

اصدارات نادي أبها الأدبي

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	موضوعه	سنة الطبع	
				هجري	ميلادي
١ ــ	حفل افتتاح النادي	منـــــوع	كلمات وقصائد	١٤٠٠	١٩٨٠
٢ ــ	النحو قانون اللغة/ ابن هشام	د. محمود فجال د. عبدالرحمن سليمان	دراسة	١٤٠٢	١٩٨٢
٣ ــ	وصف الحيوان في الشعر الهذلي	د. إسماعيل داود النتشة	دراسة	١٤٠٢	١٩٨٢
٤ ــ	لمحات من تاريخ عسير القديم	د. سيد أحمد يونس	تاريخ	١٤٠٢	١٩٨٢
٥ ــ	باقة البنفسج	د. عبدالهادي حرب	ديوان شعر	١٤٠٢	١٩٨٢
٦ ــ	النبات في عسير	محمد حسن غريب الألمعي	دراسة	١٤٠٢	١٩٨٢
٧ ــ	هل هناك أزمة في الأدب	د. محمد عبده يماني / علوي طه الصافي / سباعي عثمان	دراسة	١٤٠٢	١٩٨٢
٨ ــ	الإدارة والمواطن	عبدالرحمن محمد السدحان	دراسة	١٤٠٢	١٩٨٢
٩ ــ	صحيفة بشر بن المعتمر	د. علي محمد صبح	دراسة	١٤٠٢	١٩٨٢
١٠ ــ	جناية الشعر الحر	أحمد فرح عقيلان	دراسة نقدية	١٤٠٣	١٩٨٣
١١ ــ	فلتشرق من جديد	طاهر عوض سلام	رواية	١٤٠٣	١٩٨٣
١٢ ــ	أبها في التاريخ والأدب	علي أحمد آل عمر عسيري	دراسة	١٤٠٣	١٩٨٣
١٣ ــ	التبرج والحجاب في ضوء الكتاب والسنّة	زهرة أحمد الألمعي	دراسة	١٤٠٣	١٩٨٣
١٤ ــ	آراء في السحر	أحمد ثابت عسيري	دراسة	١٤٠٣	١٩٨٣
١٥ ــ	الحديث النبوي في النحو العربي	د. محمود فجال يوسف	دراسة	١٤٠٣	١٩٨٣
١٦ ــ	شعاع الراحلين	عبدالرحمن إبراهيم الحفظي	ديوان شعر	١٤٠٣	١٩٨٣
١٧ ــ	وحي وقلب وألحان	عبدالسلام هاشم حافظ	ديوان شعر	١٤٠٣	١٩٨٣
١٨ ــ	قصائد من الجبل	مجموعة من شعراء أبها	ديوان شعر	١٤٠٤	١٩٨٤
١٩ ــ	دراسات في المسرح والمسرحية	إبراهيم محمود أبوعجمية	دراسة	١٤٠٤	١٩٨٤
٢٠ ــ	الجاحظ بين مؤلفاته	سلمان عابد الندوي	دراسة	١٤٠٤	١٩٨٤
٢١ ــ	قراءات في شعر الشيخ سليمان بن سحمان	د. إبراهيم محمد الزيد	دراسة	١٤٠٤	١٩٨٤

م	اسم الكتـــــاب	اسم المؤلـــــف	موضوعه	سنة الطبـــــع	
				هجــري	ميــلادي
٢٢ ـ	سوق عكاظ في التاريخ	محمد أحمد العقيلي	دراسة	١٤٠٤	١٩٨٤
٢٣ ـ	لحظة يا حلم	محمد عبدالرحمن الحفظي	ديوان شعر	١٤٠٤	١٩٨٤
٢٤ ـ	زمن العشق الصاخب	حسن محمد النعمي	مجموعة قصصية	١٤٠٤	١٩٨٤
٢٥ ـ	حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب	محمد أحمد العقيلي	دراسة	١٤٠٤	١٩٨٤
٢٦ ـ	نزيف المشاعر	أحمد عبدالله بيهان	ديوان شعر	١٤٠٤	١٩٨٤
٢٧ ـ	شهادة للبيع	محمد عبدالله الحميِّد	مجموعة قصصية	١٤٠٤	١٩٨٤
٢٨ ـ	الطب النبوي والطب القديم	د. محمد بشير حقي	دراسة	١٤٠٤	١٩٨٤
٢٩ ـ	مذكرات سليمان شفيق باشا	محمد أحمد العقيلي	دراسة	١٤٠٥	١٩٨٥
٣٠ ـ	في عروض الشعر العربي	د. عبدالمجيد محمد الطويل	دراسة	١٤٠٥	١٩٨٥
٣١ ـ	خراف الأيام	راشد الحمدان	مقالات	١٤٠٦	١٩٨٦
٣٢ ـ	محطات أمل للشباب	د. عبداللطيف فرج	دراسة	١٤٠٦	١٩٨٦
٣٣ ـ	ملف النادي بيادر العددالأول	مجموعة من الأدباء	ثقافي إبداعي	١٤٠٦	١٩٨٦
٣٤ ـ	النهج الابداعي للآمدي الناقد	د. عبدالحميد العبيسي	دراسة	١٤٠٦	١٩٨٦
٣٥ ـ	الحياة الفكرية والأدبية في جنوب البلاد السعودية	د. عبدالله محمد أبوداهش	دراسة	١٤٠٦	١٩٨٦
٣٦ ـ	الخليفة عمر بن عبدالعزيز والشعر	د. عبدالحميد المعيني	دراسة	١٤٠٧	١٩٨٧
٣٧ ـ	الجغرافية الزراعية لمنطقة عسير	أحمد محمد حيدر	دراسة	١٤٠٧	١٩٨٧
٣٨ ـ	عسير في الفترة من ١٢٤٩ ـ ١٢٨٩هـ	أحمد علي عيسى عسيري	دراسة	١٤٠٧	١٩٨٧
٣٩ ـ	السير الحثيث للاستشهاد بالحديث	د. محمود فجال يوسف	دراسة	١٤٠٧ هـ	١٩٨٧
٤٠ ـ	آخر ما جاء في التأويل القروي	حسن محمد النعمي	مجموعة قصصية	١٤٠٧	١٩٨٧
٤١ ـ	افتراءات الصليبي (متابعات أولى)	محمد عبدالله الحميِّد	دراسة	١٤٠٨	١٩٨٨
٤٢ ـ	بيادر (العدد الثاني)	مجموعة من الأدباء	ثقافي إبداعي	١٤٠٨	١٩٨٨
٤٣ ـ	رواد علم الفلك في الحضارة العربية	د. علي عبدالله الدفاع	دراسة	١٤٠٩	١٩٨٩

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	موضوعه	سنة الطبع هجري	سنة الطبع ميلادي
٤٤ ــ	نظرات في العقيدة والمجتمع	إبراهيم الراشد الحديثي	مقالات وعظ	١٤٠٩	١٩٨٩
٤٥ ــ	التعريف بالأنساب والتنويه لذوي الأحساب	محمد بن أحمد إبراهيم الأشعري تحقيق/ علي محمد علوان	مخطوط	١٤٠٩	١٩٨٩
٤٦ ــ	بيادر (العدد الثالث)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤١٠	١٩٨٩
٤٧ ــ	عسير في ظلال الدولة السعودية الأولى	د. عبدالله محمد أبوداهش	بحث	١٤١٠	١٩٨٩
٤٨ ــ	بيادر عدد خاص (الشعر في رحاب الفهد)	مجموعة من الشعراء	ديوان شعر	١٤١٠	١٩٨٩
٤٩ ــ	من أوراق جماح السرية	تركي محمد العسيري	مجموعة قصصية	١٤١٠	١٩٩٠
٥٠ ــ	بيادر (العدد الرابع)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤١٠	١٩٩٠
٥١ ــ	على ضفاف الأمازون	محمد ناصر العبودي	رحلات	١٤١٠	١٩٩٠
٥٢ ــ	قصائد غاضبة	علي آل عمر عسيري	ديوان شعر	١٤١١	١٩٩٠
٥٣ ــ	عسير خلال قرنين	د. عبدالمنعم الجميعي	تاريخ	١٤١١	١٩٩٠
٥٤ ــ	من وحي الفاجعة	مجموعة من الشعراء	ديوان شعر	١٤١١	١٩٩١
٥٥ ــ	بيادر (العدد الخامس)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤١١	١٩٩١
٥٦ ــ	أضواء على مذكرات سليمان شفيق باشا	يوسف حسن العارف	دراسة	١٤١١	١٩٩١
٥٧ ــ	دورة الأيام	أحمد إبراهيم مطاعن	ديوان شعر	١٤١١	١٩٩١
٥٨ ــ	بيادر (العدد السادس)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤١٢	١٩٩١
٥٩ ــ	إقليم قبائل عسير (جزءان)	عمر غرامة العمروي	تاريخ	١٤١٢	١٩٩١
٦٠ ــ	خواطر شاعر	د. محمد سعد الدبل	ديوان شعر	١٤١٢	١٩٩١
٦١ ــ	بيادر (العدد السابع)	مجموعة من الكتاب	ثقافي ابداعي	١٤١٢	١٩٩٢
٦٢ ــ	بيادر (العدد الثامن)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤١٣	١٩٩٢
٦٣ ــ	الأمثال الشعبية في المنطقة الجنوبية	يحيى إبراهيم الألمعي	تراث	١٤١٣	١٩٩٢
٦٤ ــ	افتراءات المستشرق بروكلمان على السيرة النبوية	د. غيثان علي جريس	بحث	١٤١٣	١٩٩٢

م	اسم الكتـــــاب	اسم المؤلـــــف	موضوعه	سنة الطبـــع هجـري	ميـلادي
٦٥ ــ	ديوان السبع السيارة النيرات	ابن حجر العسقلاني تحقيق وشرح/ محمد يوسف أيوب	تحقيق	١٤١٣	١٩٩٢
٦٦ ــ	بيادر (العدد التاسع)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤١٣	١٩٩٣
٦٧ ــ	بيادر (العدد العاشر)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤١٤	١٩٩٣
٦٨ ــ	أنابيش تراثية	أبوعبدالرحمن بن عقيل	مقالات	١٤١٤	١٩٩٣
٦٩ ــ	بيادر (العدد الحادي عشر)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤١٤	١٩٩٣
٧٠ ــ	من أغاني المشرد	يحيى السماوي	ديوان شعر	١٤١٤	١٩٩٣
٧١ ــ	ملتقى أبها الثقافي	مجموعة من الكتاب	توثيقي	١٤١٢	١٩٩٢
٧٢ ــ	ملتقى أبها الثقافي الثالث	مجموعة من الكتاب	توثيقي	١٤١٤	١٩٩٣
٧٣ ــ	بيادر العدد (الثاني عشر)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤١٥	١٩٩٤
٧٤ ــ	ملتقى أبها الثقافي الرابع	مجموعة من الكتاب	توثيقي	١٤١٥	١٩٩٤
٧٥ ــ	المجالس الأدبية في الأندلس	د. عبدالله علي ثقفان	تاريخ	١٤١٥	١٩٩٤
٧٦ ــ	الغطاء النباتي في الاقليم الجنوبي الغربي للمملكة	فريدة محمد قدح	بحث	١٤١٥	١٩٩٤
٧٧ ــ	بيادر العدد (الثالث عشر)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤١٥	١٩٩٥
٧٨ ــ	مسرحية شعرية (صابر)	علي آل عمر عسيري	مسرحية شعرية	١٤١٥	١٩٩٥
٧٩ ــ	مواجع قلـــب	عبدالله محمد الزمزمي	ديوان شعر	١٤١٥	١٩٩٥
٨٠ ــ	بيادر العدد ١٤	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤١٦	١٩٩٥
٨١ ــ	بيادر العدد ١٥	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤١٦	١٩٩٥
٨٢ ــ	شذا العبير لأدباء ومثقفي عسير	هاشم سعيد النعمي	دراسة	١٤١٦	١٩٩٥
٨٣ ــ	قصائد للوطن	علي آل عمر عسيري	ديوان شعر	١٤١٦	١٩٩٥
٨٤ ــ	حولّيات سوق حباشة	د. عبدالله محمد أبوداهش	وثائق	١٤١٦	١٩٩٦
٨٥ ــ	افتراءات الصليبي ــ متابعات ثانية	محمد عبدالله الحميِّد	مقالات	١٤١٦	١٩٩٦
٨٦ ــ	بيادر العدد ١٦	مجموعة من الكتاب	ثقافي ابداعي	١٤١٦	١٩٩٦
٨٧ ــ	بيادر العدد ١٧	مجموعة من الكتاب	ثقافي ابداعي	١٤١٦	١٩٩٦

م	اسم الكتـــــاب	اسم المؤلــــــف	موضوعه	سنة الطبـــــع هجـــري	ميـلادي
٨٨ ـ	مكاشفات السيف والوردة	عبدالعزيز مشري	سيرة ذاتية	١٤١٧	١٩٩٦
٨٩ ـ	ديوان أبها	تركي العصيمي	ديوان شعر	١٤١٧	١٩٩٦
٩٠ ـ	تأملات على مرافئ الغربة	حسين أحمد النجمي	ديوان شعر	١٤١٧	١٩٩٦
٩١ ـ	السياسة في علم اللغة	د. عبدالله هادي القحطاني	ترجمة	١٤١٧	١٩٩٧
٩٢ ـ	تاريخ الأقليات الإسلامية في العالم (الجزء الأول أفريقيا)	د. غيثان علي جريس	دراسة	١٤١٧	١٩٩٧
٩٣ ـ	بيادر (العدد ١٨)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤١٧	١٩٩٦
٩٤ ـ	بيادر (العدد١٩)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤١٧	١٩٩٦
٩٥ ـ	الغصن اليتيم	ناصر سالم الجاسم	رواية	١٤١٧	١٩٩٦
٩٦ ـ	صور مقروءة	سحر الرملاوي	مجموعة قصصية	١٤١٨	١٩٩٧
٩٧ ـ	بيادر (العدد ٢٠)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤١٨	١٩٩٧
٩٨ ـ	قصيدة وشاعر	د. محمود عبدالله أبوالخير	دراسة	١٤١٨	١٩٩٧
٩٩ ـ	الحكمة في شعر أبي تمام	د. محمود شاكر سعيد	دراسة	١٤١٨	١٩٩٧
١٠٠	بيادر (العدد ٢١)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤١٨	١٩٩٧
١٠١	بيادر (العدد ٢٢)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤١٨	١٩٩٧
١٠٢	الغرب من الداخل	د. مازن مطبقاني	دراسة	١٤١٨	١٩٩٧
١٠٣	رؤية في أدب الأطفال	د. عبدالرزاق حسين	دراسة	١٤١٨	١٩٩٧
١٠٤	اشتعال الرمق	محمد عبدالرحمن الحفظي	ديوان شعر	١٤١٩	١٩٩٨
١٠٥	دامسة	محمد علي علوان	مجموعة قصصية	١٤١٩	١٩٩٨
١٠٦	بيادر العدد ٢٣)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤١٩	١٩٩٨
١٠٧	تقاسيم على جذع نخلة الوادي	أحمد إبراهيم الحربي	ديوان شعر	١٤١٩	١٩٩٨
١٠٨	علم من عسير	د. صالح عون الغامدي	دراسة	١٤١٩	١٩٩٨
١٠٩	بيادر (العدد ٢٤)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤١٩	١٩٩٨
١١٠	بيادر (العدد ٢٥)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤١٩	١٩٩٩
١١١	وطني سيد البقاع	إبراهيم عمر صعابي	ديوان شعر	١٤١٩	١٩٩٩
١١٢	الذهول	إبراهيم ماطر الألمعي	مجموعة قصصية	١٤١٩	١٩٩٩
١١٣	بيادر (العدد ٢٦)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤٢٠	١٩٩٩
١١٤	الجوائز الأدبية	حسين بافقيه	دراسة	١٤٢٠	١٩٩٩
١١٥	عيون على السماء	قماشة عبدالرحمن العليان	رواية	١٤٢٠	١٩٩٩

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	موضوعه	سنة الطبع هجري	ميلادي
١١٦	بيادر (العدد ٢٧)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤٢٠	١٩٩٩
١١٧	الهيار	محمد العثيم	مسرحية	١٤٢٠	١٩٩٩
١١٨	سهيل اليماني	إبراهيم طالع الألمعي	ديوان شعر	١٤٢٠	١٩٩٩
١١٩	بيادر (العدد ٢٨)	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤٢٠	١٩٩٩
١٢٠	الركض في مساحات الحزن	نادية فواز الصالح	مجموعة قصصية	١٤٢٠	١٩٩٩
١٢١	سعوديات ابن عثيمين	د. حسن الهويمل	دراسة	١٤٢٠	١٩٩٩
١٢٢	بيادر ٢٩	مجموعة من الكتاب	ثقافي إبداعي	١٤٢١	٢٠٠٠
١٢٣	أماريق	أحمد عبدالله التيهاني	ديوان شعر	١٤٢١	٢٠٠٠
١٢٤	الترجمة والتحلية في النثر الأندلسي في المائة الثامنة	د. أحمد عبدالواحد	دراسة	١٤٢١	٢٠٠٠
١٢٥	بيادر العدد (٣٠)	مجموعة من الكتاب	إبداعي ثقافي	١٤٢١	٢٠٠٠
١٢٦	مدارات الأسئلة	عبدالله هادي السلمي	مجموعة قصصية	١٤٢١	٢٠٠٠
١٢٧	الأيام الخوالي في أخبار النساء والإماء والجواري	هلال محمد العيسى	دراسة	١٤٢١	٢٠٠٠
١٢٨	بيادر العدد (٣١)	مجموعة من الكتاب	إبداعي ثقافي	١٤٢١	٢٠٠٠
١٢٩	هذا أنا	عبدالله محمد الزمزمي	ديوان شعر	١٤٢١	٢٠٠٠
١٣٠	أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية	عبدالله أحمد حامد	دراسة	١٤٢١	٢٠٠٠
١٣١	بيادر ٣٢	مجموعة من الكتاب	إبداعي ثقافي	١٤٢٢	٢٠٠١
١٣٢	أهل السراة في القرون الإسلامية الوسيطة	أ.د. عبدالله محمد أبوداهش	دراسة	١٤٢٢	٢٠٠١
١٣٣	افتراءات الصليبي متابعات أولى وثانية وثالثة	محمد بن عبدالله الحميِّد	مقالات	١٤٢٢	٢٠٠١
١٣٤	بيادر ٣٣	مجموعة من الكتاب	إبداعي ثقافي	١٤٢٢	٢٠٠١
١٣٥	من نبع الحياة	علي حسن الشهراني	ديوان شعر	١٤٢٢	٢٠٠١
١٣٦	قبيلة الأزد من فجر الإسلام إلى قيام الدولة السعودية	محمد علي حسين الحريري	دراسة	١٤٢٢	٢٠٠١
١٣٧	بيادر العدد (٣٤)	مجموعة من الكتاب	إبداعي ثقافي	١٤٢٢	٢٠٠١
١٣٨	تقاسيم زامر الحي	زايد محمد كناني	ديوان شعر	١٤٢٢	٢٠٠١
١٣٩	شق المبكى ، سر الطلسم	د. ملحة عبدالله	مسرحيات	١٤٢٢	٢٠٠١
١٤٠	بيادر العدد (٣٥)	مجموعة من الكتاب	إبداعي ثقافي	١٤٢٣	٢٠٠٢
١٤١	وشايات قروية	مريع علي سوادي	ديوان شعر	١٤٢٣	٢٠٠٢
١٤٢	متابعات ومبادآت قالات في الفكر والأدب والثقافة	د. محمد العيد الخطراوي	أدبي منوع	١٤٢٣	٢٠٠٢